هند الورداني

باب السعادة

وجدت سعادتي مع القرآن

دار البشير

باب السعادة

(وجدت سعادتي مع القرآن)

الطبعة الأولى
1442 هـ
2021 م

اسم الكتاب: باب السعـادة
التأليف: د. هنـد الوردانـــي
موضوع الكتاب: إسلامي
عدد الصفحات: 280 صفحة
عدد الملازم: 17.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2021 / 11673
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 886 - 6

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

باب السعادة

(وجدت سعادتي مع القرآن)

د. هند الوردانـي

دار البشير

إهداء

إلى كل باحثٍ عن السعادة...

أُهدي إليك كتابي

شكر واجب

أتقدم بخالص شكري إلى معلمتي الحنون الأستاذة مروة بسيوني، التي ساعدتني في كثير من أفكار هذا الكتاب دون أن تشعر، وأمدَّتني كذلك بتوجيهها في رأفةِ أمٍّ شفيقة وحرصِ معلمةٍ لبيبة، شكر الله سعيها، وغفر لها ولوالديها وبارك في ذريتها.

❋ ❋ ❋

مُقَدِّمَة

مَن قال أن القرآن الكريم لا يصلح لهذا الزمان؟! القرآن باب السعادة في كل زمانٍ ومكان، ولقد أخطأ المسلمون حين جعلوه كَلِماً يُقرَأ في المآتم، أو تمائم توضَع في السلاسل، أو صوراً تُزَين الحوائط، أو مصاحف مركونة في السيارات لتحفظ راكبيها في الطريق، أو يتركونها في بيوتهم حتى تتراكم عليها الأتربة ويعشش عليها العنكبوت كي تحميهم من الحسد.

لقد أساء المسلمون إلى أنفسهم قبل أي أحد حين اختزلوا هذا الكتاب العظيم في حيز «البركة»، ويا ليتهم أخذوا بتلك البركة! ولكنهم تركوها حتى صارت عليهم حسرة. والحق أن القرآن منهج حياة، وليس كتاباً للأموات ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨]، وحياة القرآن ليست كأي حياة، فلا انتهاء لها بالموت، فهي حياة كُتِبَ لها الخلود، إذ تمتد حتى نلقى الله ﷻ في جنات النعيم بإذن الله.

وأنا هنا لست بصدد سرد تجربتي الشخصية مع القرآن الكريم، وإنما يميل الكتاب لأن يكون بقدر كبير تجربةً معرفية، لكنك مع ذلك ستلحظ بصماتي وأنفاسي من خلال الحروف، ولا عجب في ذلك، فقد صاحبتُ القرآن طيلة سبع عشرة سنة، منذ كنت طفلة في الثانية عشرة من عمري، فوجدته خيرَ صاحب، وملاذي الأمين، ما ذهبت إليه يوماً حزينة إلا وكفكف دمعي، ولا مجروحة إلا وطيّب جرحي، ولا متحيرة إلا وهداني للحق، يقيل عثرتي، ويصدُّ يأسي، ويشدُّ أزري في بأسي، ويدفعني للنجاح، ويسعد قلبي. وكلما مرّت السنون والأيام

ازددت يقيناً بأنه خير نعمة أنعم الله بها عليّ، فلا حرمني الله نعمته إلى أن ألقاه سبحانه.

ولما وجدت سعادتي مع القرآن، لم أُرِد أن أستأثر بتلك السعادة وحدي، فطفقت أحاول بيانها من خلال هذه الصفحات للقراء، حتى ينهلوا معي من نبعها الصافي.

وستجد أننا سنرتحل من بين طيَّات هذا الكتاب إلى عدة موضوعات تمس حياة الناس ـ وبالأخص في عالمنا المعاصر ـ، وكيف أن القرآن أجاب على أسئلتهم بسهولةٍ ويسر بما يمنحهم الأمان والاطمئنان، ويهديهم إلى سبل السعادة.

وكتبته

هند محمد الوردانى

في ليلة الثلاثاء ٢٧ جمادى الآخرة لسنة ١٤٤٢هـ
الموافق ٩ فبراير لسنة ٢٠٢١م
(الإسكندرية)

elwardany.hend@gmail.com

الفصل الأول

السعادة الأبديَّة

يقول الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢] بل لتسعد وترقى؛ إنه لا شقاء مع القرآن، بل سعادة وطمأنينة وسكينة، وهدوء لا يهزه ضجيج الحياة، وأمن لا يعكر صفوه تقلب الأحوال.

أنت هنا في مأمن عن كل نوازل الدنيا، أنت مع القرآن في بردٍ وسلام، مهما علت أمواج الدنيا فما أنت بغريق، وكيف السبيل إليك وقد آويت إلى حبل الله المتين؟! وإنه ليأخذ بيدك إلى بر الأمان، حتى تصل إلى الخلود في أعلى الجنان بإذن الواحد المنَّان.

إنه القرآن يا سادة، الذي أقام الحضارات، الذي حوَّل العرب من قبائل متناحرة إلى أمة واحدة تسود العالم بين ليلةٍ وضحاها، إنه القرآن الذي دخلت الأمم في دينه أفواجاً، واهتزَّت لسلطانه العروش، وخضعت لحكمه الجبابرة، إنه القرآن الذي أقام العدل ورفع راية الحق، فحملت أمة اقرأ لواء الصدارة؛ لتخرج العالم من غياهب الجهل والوهم إلى أنوار العلم والفهم. وإن أوروبا لتشهد بفضل حضارة الإسلام، التي وضعت أسس سائر العلوم، وأضاءت منار الهدى والرشاد.

❋❋❋

سرُّ الخلود:

إذن ما هو سر خلود القرآن الذي أهَّله لمنح السعادة للناس في كل زمانٍ ومكان؟ وما المزيَّة التي ميزته كي يستحق البقاء دون سائر الكتب السماوية أو حتى البشرية؟!

إن سر خلود القرآن هو كونه معجزة معنوية تتأملها العقول وتتدبرها الأفهام، فهو عكس معجزات من سبق من الأنبياء، إذ كانت معجزاتهم أشياء مادية محسوسة، كانفلاق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى عليهما السلام، تنتهي بانتهاء وقتها، ولا يعلمها علم اليقين إلا من رآها وحضرها.

والسبب في كون القرآن معجزة معنوية هو أن معجزة كل نبي تتناسب مع طبيعة رسالته، فالأنبياء قبل بعثة محمد ﷺ كانت بعثتهم مخصوصة لأقوامٍ بعينهم ولأزمانٍ محددة؛ ولذلك ناسب أن تكون معجزاتهم وقائع مادية تنقضي بانقضاء آجالها. أما خاتم الأنبياء محمد المبعوث للناس كافة، فقد اقتضت عالمية رسالة الإسلام أن تكون معجزته أمراً معنويّاً، تتلوه الألسنة، ويخاطب عقول الأجيال في كل زمانٍ ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا فقد وقع التحدي بالقرآن دون سائر الكتب السماوية التي تفتقر إلى مواطن الإعجاز، وأوكل حفظها إلى أهلها فبدَّلوا وحرَّفوا وطالت عليهم الأزمان.

«أما معجزة محمد، فهي ذلك القرآن المتلو المشتمل على الشريعة المُحكمة، وهو باقٍ يُرَى ويُتلَى إلى يوم القيامة، فيعلم حقيقته مَنِ التَقَى بالنبي صلوات الله عليه وعاينه وخاطبه، ومن جاء بعد عصر الرسول عليه الصلاة والسلام بعشرة قرون، بل بعشرات القرون إن امتد عمر الإنسان في هذه الأرض، ولقد حفظت

منزلته في الأجيال كما نزل على محمد ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩].

فالناس في كل الأجيال بعد محمد ﷺ يرون معجزته رأي العيان، كمن شاهدوا محمداً وخاطبوه، وإن كان لهؤلاء الصحب الكرام فضل علم، فهو مشتق من مشافهة النبي خطابه والتحدث إليه، وهو مشرق الحق ومصدر العرفان وروح الهدى»[(١)].

لقد حمل القرآن السعادة لمن قبلنا، وسيحملها لمن بعدنا في كل زمان ومكان، لكل من سار على هديه وعمل بمقتضى سننه وحكمه حتى تُحَط الرحال في جنة الخلد بإذن الله، «وإذا كانت الأجيال كلها ترى تلك المعجزة وتفهمها، فهي حجة الله الفاتحة عليها، فإن ضلَّت لا تضل عن جهالة ولا عن نقص في البينات، ولا عن شك في الأمر، بل عن عمى في البصيرة وتحكُّم الهوى وسيطرة الأوهام»[(٢)].

❋❋❋

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، محمد أبو زهرة، ص:٩، السلسلة العلمية لمجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، القاهرة، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الفصل الثاني
شنِّف آذانك

ما بين أصوات الدنيا تنشغل النفس في دوامات الحياة، ويعلو ضجيجها حتى يكاد يصمُّ الآذان، فمن لتلك الروح المنهكة التي أضناها اللهث وراء متطلبات لا تنتهي، وأقضَّ مضجعها نداءات الدنيا التي لا تهدأ؟! إنه لا بدّ صوتٌ واحد ينتشلها من غياهب الوحشة، ويزيل مواطن العتمة، لتسكن الروح وترتاح الأسماع وتنقشع سحائب الغَمام... إنه صوتُ القرآن الكريم.

لا يستطيع أن ينكر أحد ما لصوته من تأثير على النفوس؛ إنه لصوت يتهادى بالنفس بين شواطئ الطمأنينة والأمن، عذب الصوت... محبب للنفس... شديد الجمال، وقولنا هذا ليس بمبالغة يفرضها انتماؤنا للإسلام، وإنما حقيقة يقر بها كل مستمع للقرآن الكريم، حتى وإن كان من ألدِّ الأعداء.

فهذا الوليد بن المغيرة الجاهلي العربي الصنديد، المحارب لله ورسوله، يصف القرآن الكريم فيقول: «والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن لقولِه لحلاوةً، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمرٌ، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه».

يقول الإمام الخطّابي[1] رحمه الله: «قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة

(١) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، فقيه مُحدِّث، من أهل بست (من بلاد كابل)، من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب)، له كتب كثيرة من أهمها: (معالم السنن)، (شرح البخاري)، (بيان إعجاز القرآن).

في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشَّاها الخوف والفَرَق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً».

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يريد رسول الله ﷺ ويعمد قتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع في سمعه لم يلبث أن آمن. وبعث الملأ من قريش عتبةَ بن ربيعة إلى رسول ﷺ ليوافقوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من حم السجدة، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

وحينما سمع جبير بن مطعم سورة النجم قال: (كاد قلبي أن يطير)، وكان ذلك أول ما وقر من الإيمان في قلبه.

ولما سمعته الجنُّ لم تتمالك أن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢] ، ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] [1].

(١) بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)]، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، ص: ٧٠ ـ ٧١ (بتصرف واختصار)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.

مزية الصوت القرآني:

إن لصوت القرآن مزيةً يختص بها دون كل ما سواه من سائر الأصوات والكلام، ألا وهي «التجويد».

والتجويد لغةً يعني: التحسين، وأما اصطلاحاً: «فهو إعطاء كل حرفٍ حقه ومستحقه من المخارج والصفات»، فعلى الرغم من أن القرآن يتكون من حروف العربية نفسها التي يتحدث بها سائر العرب، إلا أن تأليفه الصوتي له نغمة فريدة تستطيع أن تميز بها القرآن من بين ألف صوت. وقد جاء الأمر الإلهي بترتيل القرآن الكريم في كتابه؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وبين ﷻ الغرض من أحكام التلاوة في موضع آخر فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] وذلك لبيان الحروف والحركات، وحفظ القرآن من اللحن والأخطاء، وليثبت قلوب الناس بقراءته على مهل، ولذلك يقول النبي ﷺ: «ما أَذِنَ الله لشيء ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَن الصوت بالقرآن أن يجهر به»[1]، والله أعلم.

ولو أننا حاولنا تطبيق أحكام التجويد على كلام الفصحاء أو حتى كلامنا العادي لتبين لنا فداحة ذلك، وقد تحدث الرافعي عن تلك المسألة فقال: «وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتِّلُ قطعة من نثرِ فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن مما تُرَاعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء، فإنك لا بدّ ظاهرٌ بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكَّرت الكلام وغيَّرته، فأخرجته من صفة الفصاحة وجرَّدته من زينة الأسلوب وأطفأت رواءَه وأنضبت ماءه؛ لأنك تزنه على أوزانٍ

(١) متفق عليه.

لم يتّسق عليها في كل جهاته، فلا تعدو أن تُظهِر من عيبه ما لم يكن تعيبه إذا أنت أرسلته في نهجه وأخذته على جملته»[١].

النظم القرآني:

والنظم القرآني يختلف تأليفه الصوتي اختلافاً كبيراً عن نظم الشعر، فأنت تجد أن القصيدة العربية تسير على وتيرة موسيقية واحدة من بدايتها وحتى نهايتها ـ وفق ما يُعرَف ببحور الشعر ـ، على عكس الأبنية الصوتية للقرآن؛ فإن نظمها الموسيقي متنوع متجدد حتى في السورة الواحدة؛ فهو بعيد كل البعد عن الرتابة والملل، لا يخلَق على كثرة الترداد، ولا تفتر عنه النفس باستمرارية التكرار.

وعلى الرغم من ألحانه اللغوية تلك إلا أنه أيضاً ليس من الموسيقا. ثم إن القصيدة العربية تلتزم بقافية أو فاصلة واحدة على الأغلب، بينما يتميز القرآن بتعدد الفواصل بين آياته.

وأما من حيث البناء، فالقرآن لا يسير على عادة العرب في الشعر من البدء بالغزل أو بكاء الأطلال أو نداء الخليلين. وقد يعتري القصائد التغيير في محاولة من الشاعر لتحسين لفظها وبلاغتها، أو يصيبها الخطأ النحوي فيما يسمى بالضرورات الشعرية، في حين أن كل حرف من حروف القرآن الكريم لا يمكن تبديله أو تحريفه، وذلك أنه يستحيل أن تجد أنسب منه في مكانه، ولو عمد أحدهم لفعل ذلك لعُدَّ خللاً أو عيباً؛ ولذلك فقد وقف بلغاء العرب أمام القرآن حيارى، وأثارت الخصائص الفريدة لنظمه حفيظة صناديد قريش في تقوُّلهم عليه وعرَّضتهم للإحراج.

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص: ٢٩٤، دار التقوى ودار العلم والمعرفة، مصر، سنة الطبع: ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٥م.

إن أول شيء أحسَّته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسِّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً مُنوَّعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووُزِّعَت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النفس فيه آناً بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى.

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعَك جواهرُ حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذةٌ أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلم جرّا. فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة.

لا عجب إذن أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر. ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول : ما هو بشعر؛ لأنه ـ كما قال الوليد ـ ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده.

ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط؛ فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته[1].

هذا الجمال الصوتي لنظم القرآن جعله محبباً للقلوب، ترتاح الآذان لعذوبة ألحانه، وتتشوَّف النفس للذة سماعه، ولا تملُّ أبداً لكثرةِ ترداده، بل تكراره بابٌ للسعادة ويزيد جماله جمالاً، ولذلك يقول الشاعر:

(١) النبأ العظيم ـ نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز، (٢/ ٤ ـ ٥) [باختصار وتصرف]، مطابع دار الجمهورية للصحافة، مصر، هدية هيئة كبار العلماء لقراء مجلة الأزهر، عدد ذي القعدة ١٤٣٩هـ ـ يوليو ٢٠١٨م.

وإنَّ كتابَ اللهِ أوثقُ شافعٍ
وأغنى غناءٍ واهباً مُتَفضَّلاً
وخيرُ جليسٍ لا يُمَلُّ حديثُهُ
وترداُدُهُ يزدادُ فيهِ تجمُّلا

وهذا الاجتماع على محبة صوت القرآن يستوي فيه العالم والجاهل والحاضر والباد؛ فقد أحب سماعه رسول الله ﷺ حتى قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اقرأ عليّ». فقال: يا رسول الله، أقرأ وعليك أُنزِل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري»[1].

ولم يستطِع صناديد قريش منع أنفسهم من استراق السمع إليه والتلذذ بجمال آياته. روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له. حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

---

(١) متفق عليه.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أتى أبا جهل في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطمعنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسَي رهان، قالوا: منَّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. فما منعتْهم إلا العصبية كما ترى[1].

بل ويستوي في ذلك العربي والأعجمي؛ فإن كثيراً من الأعاجم وهم لا يفقهون العربية ولا ينطقون بها يجدون راحتهم في سماع القرآن، ويستشعرون اللذة والسكينة والأمان في صوته المألوف من غير أن يفهموا معانيه، فما بالك إذا اجتمع إلى حلاوة الصوت جمال المعاني؟!

وقد كان للأنظمة الموسيقية للقرآن وتضافر حروفه في أبنيته الصوتية سبب في إسلام الكثيرين من غير الناطقين باللغة العربية، وقد عرض لنا الشيخ فهد الكندري ـ جزاه الله عنا خيراً ـ أمثلة لهؤلاء في برنامجه الشهير (بالقرآن اهتديت)، فنجد آدم الذي نشأ مع أمه الإنجليزية وزوجها في بيت كاثوليكي بليفربول يشد انتباهه كلمة (الحق) المتكررة بكثرة في القرآن الكريم، ويستفز مشاعره بناؤها الصوتي، خصوصاً عند وقوف الإمام عليها بالقلقلة الكبرى على القاف المشددة، فتهزُّ كيانه وتثير آماله دون أن يدرك معناها!

وحينما سأل أصدقاءه المسلمين عن معنى تلك الكلمة التي لصقت بذهنه وسمعه أخبروه أن معناها Truth أي الحقيقة، فتيقن حينها بأنه الدين الحق،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام، (١/ ١٧٤) [باختصار]، دار العقيدة، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

وأقرَّ بعظمة هذا الكتاب، وكيف أن قشرته الصوتية خير سفير لجوهر معانيه، وأسلم![١]

ثم نَعرِض لقصةٍ أخرى، وهي قصة الموسيقي الإنجليزي الشهير رحيم جونغ، الذي يقول أنه قبل إسلامه كان مهووساً تماماً بالموسيقى وكانت هي ديانته، وقد بلغ فيها شأناً كبيراً، فحصد العديد من الجوائز، وتعامل مع كبرى شركات الموسيقا أمثال Motown Records، وأشهر المغنين مثل ستيف وندر، وشارك في عمل الموسيقا التصويرية لأنجح الأفلام العالمية، لكن كل ذلك لم يجلب له السعادة، لقد كان تعيساً على الدوام بالرغم من أوج نجاحه الموسيقيّ وكثرة المال من حوله، يقول: «كان في قلبي إحساس متزايد بالإحباط والفراغ، حتى بلغت مرحلة أنني ظننت بأني سأجنُّ»، ثم شرع رحيم في قراءة نسخة مترجمة للقرآن الكريم، وكانت أول آية تقع عليها عينه هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] فأحسَّ وكأنما تلك الآية قد كُتِبَت من أجله فقط وليس لأحد سواه. وبدأ في الاستماع لسور القرآن، فأسرته آيات من سورة الفجر، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] فأخذت بلُبِّه نغمة الترتيل دون أن يتبين معناها، وانبهر بأداء الشيخ سعد الغامدي في قراءتها، وهو الموسيقيّ الذي طالما تفنن في تأليف الموسيقا وصياغة تراكيبها. يقول: «أسرتني الآيات فقط بنغمة الترتيل، وعندما بدأت أقرأ وأفهم المعنى أسرتني بكل جوانبها»[٢].

---

(١) رابط الحلقة على يوتيوب: https: //youtu.be/e1886TJZTeg

(٢) رابط الحلقة على يوتيوب: https: //youtu.be/lYz_RcErZP4

إن القرآن ليأخذ بالقلوب ويسترعي الأسماع، فصوت كلماته خير سبيل لدلالة معانيه ومراده. إن مد الصوت بالحركات الست في كلمة (آلآنَ) من قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]لتبين لنا كم طال بفرعون العناد، وكم حارب الله وأعرض عن الهدى والبيان، حتى إذا عاين الموت وأيقن بالغرق قال: آمنت الآن! هيهات.

والرَّوم[1] في كلمة (تَأمَنّا) من قول إخوة يوسف عليه السلام[2] ليوحي بمكر الإخوة ونيتهم في الإيذاء، واختلاس حركة النون وضعف صوتها، كأنما يختلسون النظر لبعضهم وهم يبيِّتون الشر في صدورهم.

وقول المؤمنين حينما شاهدوا نعيم الجنة المقيم، فتذكروا حالهم في الدنيا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] ، فالغنَّة في النون المتكررة في تلك الآية تدلُّ على أنسهم بمحبة الله والقرب منه والتضرع له، وأن استمرارهم في الدعاء كان مطيَّتهم للوصول إلى الجنة؛ فالنون حرف طبيعي في الموسيقا ـ كما قال الرافعي ـ، وهو إن دل فيدل على الترنم والتطريب.

وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة؛ فإنه جلَّت قدرته قد أجرى سنَّته في نظام هذا العالم أن يُغَشَّى جلائلُ أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال؛ ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها.

---

(١) الرَّوم: هو الإتيان ببعض الحركة، ومن ثَمَّ ضعف صوتها لقصر زمنها، ويسمعها القريب المصغي دون البعيد.

(٢) قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١].

انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة، فكذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعذوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة «الحُداء»[1] يستحث النفوس على السير إليها. ويهوِّن عليها وعثاء السفر في طلب كمالها. لا جرم اصطفى هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل.

ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسْمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩][2].

في المتعة الأسماع بصوت القرآن! ويا لراحة القلوب بهداية الآيات! وكم من أصم ودَّ سماع ألحانه، وذرف لأجل ذلك دمعه وكيانه، فما لك يا سميع تصدُّ، وصوت السعادة حولك لا يُرَد؟!

❋❋❋

(١) الحداء: الغناء للإبل.
(٢) النبأ العظيم، (٢/ ٦).

الفصل الثالث
الإبداع الفني

هذا الفصل مُوَجَّه فقط إلى أصحاب الحس الفني والمهتمين بالإبداع، الذين يجدون سعادتهم في التنقيب عن مواطن الجمال وآثاره المدهشة، وإنك ما إن تستمع لآيات القرآن الكريم أو تقلب نظرك بين دفتي المصحف حتى تتبين لك صورٌ شتى من الفن البديع، لم ترسمها الفرشاة والألوان، ولم تلتقطها عدسات الكاميرات، وإنما جسدتها الحروف والكلمات؛ لتلامس الذوق الوجداني، وتعانق شغاف القلوب، كصورة حية ناطقة بين يديك، تحمل في طياتها الكثير من الدلالة والمعاني الخلابة.

ومواطن الجمال في القرآن الكريم أكثر من أن يحصيها العدّ، فهو حبل الله المتين، الذي وقف أمامه الأولون والآخرون مشدوهين عاجزين، انحسر أمام كلماته بيانهم، وتكسرت أمام حروفه أقلامهم، فعادوا مقرّين بإعجازه، صاغرين لأحكامه، وذلك دأب كل ذي قلبٍ سليم، وحس وجداني سديد.

ونحن هنا إذ نستعرض سويّاً لمحاتٍ سريعة من الجمال في جانبين مهمَّين من كتاب الله، وهما: **التصوير الفني، والرسم العثماني**؛ يستحضرنا قول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): «من إعجاز القرآن أن يظل مطروحاً على الأجيال، تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخيّ المورد؛ كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عالياً يفوق طاقة الدارسين»[1].

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن، ص: ١٥، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.

التصوير الفني:

التصوير الفني هو أحد الأساليب البلاغية التي كثيراً ما يستخدمها القرآن الكريم، فيمنح النَّص الجامد الحياة، ويجسد المعاني الذهنية في صورة حسية، فإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الجمادات الصامتة تتكلم، وإذا القصص والأحداث أشخاص تتحرك على خشبة المسرح، وهكذا حتى ليخيل إليك أن القرآن يأخذ بيديك ليضعك في قلب الحدث لتكون جزءاً منه، تتفاعل مع لحظاته وسكناته وأشخاصه وألوانه.

فنرى في تلك الآية من سورة الحج ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] صورةَ المتذبذب المتردد في دين الله، فلم يدخل الإيمان قلبه، وإنما هو على الحافة، فإن أصابه خير دنيوي من صحة وسعة استبشر بالدين وثبت على مضض، وإن أصابه بلاء في نفسه أو ماله أو أهله تشاءم وانقلب على وجهه خاسراً دينه ودنياه.

والآية ترسم لنا صورة حية لحال المنافق؛ إذ هو كالجندي الذي أصابه الفَرَق والقلق في ساحة المعركة، فهو في طرف الجيش، لا ثبات له، فإن أحس بظفرٍ وغنيمة قرَّ واطمأن، وإن كانت الأخرى فرَّ وطار على وجهه[1].

---

(١) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، (٣/ ١٤٦)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، عدد الأجزاء: ٤، الكتاب مذيَّل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت ٦٨٣) وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي. وأيضاً: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، (٦/ ٩٧)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ثم نعرِّج على سورة التوبة لنستشعر مع الثلاثة المُخلَّفين كيف أن الأرض على سعتها تضيق بقلب تائب نادم على معصية مولاه، وأنه مهما كَثُرَ الناس من حولك فإنه لا ماحيَ للوحشة إلاَّ الفرار إلى الله ﷻ. قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ثم نعرِض لمشهد من سورة الأعراف يصور لنا حال من باع دينه بدنياه، ففرّط في نعمة الله بعد ما آتاه الله العلم، فهبط من سمو الروح ملبِّياً نداء الطين، وأخلد إلى الأرض، فأصبح من الغاوين ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦]، فصار مثل الكلب لا يتوقف عن اللهث، فهو يلهث على كل حال سواء شعر بالعطش أم لا، كحال ذلك المنسلخ المُبدِّل لنعمة الله، لا تنفع معه موعظة، فهو ضالٌّ بكل الأحوال، ولا يتوقف عن اللهث وراء متاع الدنيا الزائل. فما أخسره! ويا لفداحة فعلته! ـ نسأل الله العفو والعافية ـ.

وقريباً منه حال الضالين من بني إسرائيل. إذ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، فهم أخذوا التوراة دون أن يعملوا بها، فكانوا كالحمار، يحمل كتباً من العلم يتعب بحملها ولا ينتفع بها[1].

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٨/ ٢٤٨).

يقول الطاهر بن عاشور: «بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ تَعَالَى آتَى فَضْلَهُ قَوْماً أُمِّيِّينَ أَعْقَبَهُ بِأَنَّهُ قَدْ آتَى فَضْلَهُ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَدِ اقْتَنَعُوا مِنَ الْعِلْمِ بِأَنْ يَحْمِلُوا التَّوْرَاةَ دُونَ فَهْمٍ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّ ادِّخَارَ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ وَانْتِقَالَهَا مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ كَافٍ فِي التَّبَجُّحِ بِهَا وَتَحْقِيرِ مَنْ لَمْ تَكُنِ التَّوْرَاةُ بِأَيْدِيهِمْ»[1].

ثم تأتي اللقطة الأخرى من سورة الأحزاب لتصور لنا تلك الحال الشديدة التي كان عليها النبي (ﷺ) والصحابة في غزوة الخندق، هنا تحزبت قبائل العرب لقطع شأفة المسلمين، فاضطر المسلمون لحفر خندق لحماية المدينة من الخطر المحدق حولها تحت ظروف صعبة من الجوع والبرد، ثم ما لبثت أن نقضت يهود بني قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ، وأصبح المسلمون بين نارين، المشركون أمامهم، واليهود خلفهم، والنساء والذراري بالمدينة مكشوفة مواقعهم لا حول ولا قوة لهم.

في تلك اللحظات الفارقة من تاريخ المسلمين ترسم لنا الآيات صورة حية من اضطراب النفوس وشدة الألم والجوع تحت وطأة الحصار فتقول: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١]. ولو شاء تعالى لقال بدلاً من ذلك (وتمكن الخوف من المسلمين)، ولكنه أراد عزَّ من قائل رسمَ صورة كاملة تعيش فيها لحظة بلحظة في واحة القرآن الغنَّاء.

وأما القصص القرآني فهو آية من الجمال، حياة تدب في النصوص، ومنه مباشرةً إلى القلوب؛ لتحرك المشاعر والإحساس، وهذا هو سر الإعجاز!

---

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، (ج ٢٨/ ٢١٣)، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).

وأقرب مثال أنه لا يخفى ما يعتري القارئ من لذة وشجن واعتبار لدى سورة يوسف عليه السلام. يقول عبد الله بن شداد: سمعت عمر رضي الله عنه يقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف، فسمعت نشيجه وإني لفي آخر الصفوف، وهو يقرأ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفي مشهد بناء الكعبة يقول تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨]، فها هنا ينتقل الحديث في الآية من الغيب إلى المتكلم، ناثراً الحياة في أرجاء المشهد، وكم كانت تنقص الصورة كثيراً لو قيل: (وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت يقولان ربنا تقبل منا)!

ثم تركب السفينة وسط الأمواج المتلاطمة، وترى الأب الحنون المُشفق على ولده يناديه إلى النجاة: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

بل إن الحياة لتدب في جميع الأشياء بنظم القرآن، وتتحدث الطبيعة الصماء، قال تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، فيتنفس الصباح مؤذناً ببدايةٍ جديدة مشرقة، وترى كذلك السباق الجبار بين الليل والنهار: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، والأرض الميتة تحركها الأمطار، فتهتز وتربو بكافة النباتات والأزهار: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

حتى المشاعر أصبح لها لغة في نص القرآن الكريم، فيتحدث الغضب كما لو أنه الآمر الناهي في لحظة الانفعال، حتى إذا ما سكت ثاب الرشد، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وغيرها الكثير والكثير من الصور، حيث التشبيه والاستعارة والتصوير والتجسيم، وكلها يشهد لبلاغة وجمال هذا الكتاب القويم.

الرسم العثماني:

يتميز الخط العربي دون غيره من سائر الخطوط بالجمال الخلاب، فهو الخط الوحيد الذي استخدم في زخرفة المعمار والبناء، وله مكانة بارزة في الفن الإسلامي. وحين نتحدث عن الرسم العثماني للمصحف الشريف فإننا لا بد ننبه أن له خصائص معينة تميزه عن الرسم الإملائي العادي. وقد اختلف العلماء بين كون تلك الخصائص توقيفية من لدن الله ﷻ أو اصطلاحية باجتهاد الصحابة رضوان الله عليهم، ونحن نميل إلى الرأي الأول من كون الرسم العثماني توفيقياً معجزاً، ينضم إلى إعجاز النظم القرآني وإعجاز معانيه.

والاختلافات بين الرسم العثماني والرسم الإملائي قد تكون بحذف حرف أو زيادة آخَر، أو في قبض وبسط حرف، كالتاء في (سُنة ـ وسُنت) و(امرأة ـ وامرأت)، أو في الفصل والوصل مثل: (لكيلا ـ ولكي لا) وغيره. وبالطبع كل ذلك لا يخلو من دلالة، عَلِمَها مَن علمها وجهلها من جهلها، فلا يوجد حرف من كتاب الله سبحانه وُضِعَ في مكانه اعتباطاً، وإنما كل بميزان ومقدار، ولو حاول الإنس والجن أن يبدِّلوا مكانه بحرفٍ آخر من حروف اللغات ما زادهم إلا إرهاقاً، فهو الكتاب الذي أعجز الأولين والآخرين ببلاغته وحُسنِ نظمه وفصاحته.

فزيادة الواو الحاملة للألف في كلمة (الصَّلَوٰةَ) إنما تدلُّ على تفخيم وتعظيم شأن الصلاة عموماً، وهو ما أكدته الشريعة الإسلامية في مختلف أحكامها؛ فالصلاة عماد الدين، وأحد أركان الإسلام، وهي أول ما يُحَاسب عليه العبد يوم القيامة.

وأما الحذف فنجد من أمثلته قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، حيث حُذِفت الواو في الفعل (يدعو) تنبيهاً على السرعة[(١)]؛ فالإنسان بجهله يسارع إلى الدعاء على نفسه وماله وولده بالشر عند الغضب كمسارعته للدعاء بالخير، ويؤيده خاتمة الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

وكذلك حذف الياء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والحذف هنا في كلمتي (الداعي ودعاني) للدلالة على قرب الله تعالى من عباده، وسرعة استجابته ﷻ لدعائهم ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[(٢)].

وأما المثال في الفصل والوصل فقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فقوله

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، (١/ ٣٩٧)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان ـ وبترقيم الصفحات نفسه) الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م، عدد الأجزاء: ٤.

(٢) انظر: لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني، عبد العظيم المطعني (٢/ ٣٩)، مطابع دار الجمهورية للصحافة، هدية مجلة الأزهر، جمادى الأولى ١٤٤٠هـ ـ يناير ٢٠١٩م، عدد الأجزاء: ٣.

تعالى: (مَالِ هَٰذَا) الأصل أنه يُكتَب هكذا (ما لهذا)، والرسم العثماني هنا يدلُّ على تفاجؤ الكافرين بموقف القيامة الذي يعملون له حساباً، وتلعثمهم لدى مواجهتهم بأعمالهم صغيرها وكبيرها منشورة أمامهم ليحاسبوا عليها.

وبعد، فإن تلك مشاهد قليلة من كثير، ومختصرة من طويل في دوحة الجمال القرآني، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد خزائنه، ولا ينضب نبعه الصافي، ناشراً السعادة في أرجاء المعمورة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع

الردُّ على التساؤلات الكبرى

الإنسان حيوان ناطق مفكر؛ هكذا تحدثت الفلسفة عن الإنسان، فهو أرقى الكائنات وسيد هذا الكون، ومن الطبيعي أن يفكر في حقيقته ومصيره، ولذلك فهو لا يفتأ يتأمل ويفكر ويتساءل! ومَن منَّا لم يُسائل نفسه يوماً: ما الهدف من وجودي في هذه الدنيا؟ وإلى أين مصيري؟ وما العائد من التزامي أو كفاحي؟ وكيف؟ ولماذا؟

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يتركهم في حيرتهم يعمهون، بل أرشدهم إلى إجابات شافية تهدي الحيارى وتطفئ نار الظِّماء، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، وقدّم لهم القرآن ردوداً قاطعة على تساؤلاتهم الكبرى، موضحاً لهم العلل والغايات، ومرشداً لطريق السعادات.

«في ظل غياب الدور الرئيس للدين في الإجابة عن التساؤلات الكبرى أصبح كثير من الشباب متخبطين لا يعرفون الهدف من وجودهم، فتضاءلت قدرتهم على مواجهة التحديات. فما معنى الحياة؟ وما معنى الموت؟ وإن كانت حيواتنا إلى الفناء فما الجدوى إذن من تحمل الألم والصبر على الابتلاء؟ ولذلك ارتفعت أعداد المنتحرين حول العالم.

لقد حاول العالم الرأسمالي الحديث الإجابة عن أسئلتهم من خلال الترفيه والتشتيت، فلا داع للتساؤلات الوجودية، وأهم شيء في الوجود هو أن تعيش في اللحظة الراهنة؛ الآن وهنا وحسب، امتلكْ كل وسائل الرفاهية واشترِ كل

ما تشتهي، وعِش كل الحيوات التي أردت عيشها في هذه الحياة، فنحن نعيش حياة واحدة فقط فلْنستمتع بها كما شئنا!... لكن لا يلبث الإنسان أن يفيق من سكرته، أو يذهل عنها للحظات حتى تعود إلى رأسه تلك الأسئلة الوجودية مرة أخرى!»[1].

لماذا خُلِقنا؟

هل أوجد الإنسان نفسه؟ بالطبع لا، ولا يوجد عاقل يمكنه القول بذلك، فإن لم يُوجِد نفسه فمن ذا الذي أوجده؟ وهل هذا الإنسان كان عدماً في يوم من الأيام؟

القرآن دعانا إلى التفكر في هذا السؤال، ومن ثَمَّ أرشدنا إلى الإجابة؛ قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ ـ ٣]، وما إن يرتوي غليله من هذا السؤال حتى يتساءل سؤالاً آخر وهو (لماذا؟)... لماذا خُلِقنا؟ أي: ما الهدف من وجودنا في هذه الحياة؟ وقد قدم لنا القرآن إجابة شافية عن هذا السؤال الجوهري في محورين أساسيين:

الأول: أنه خُلِقَ لعبادة الله وحده لا شريك له، **والثاني**: لاستخلافه في هذه الأرض والقيام على عمارتها، وهذان المحوران لا ينفكَّان عن بعضهما. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، كما أعلن

(١) الهشاشة النفسية، إسماعيل عرفة، ص: ٩٦ – ٩٧ ،، مركز دلائل، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٤١هـ ـ ٢٠٢٠م [باختصار وتصرف].

سبحانه أن الإنسان هو خليفته في الأرض، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولأجل أن يقوم على عمارة هذه الأرض ذلَّلها له وحثَّه على الاستفادة من منافعها وخيراتها ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ليست النهاية:

وبعد أن علم الإنسان الهدف والبداية؛ له أن يتساءل عن النهاية، فهل الموت هو النهاية؟ ويجيبنا القرآن بأن «لا»، ليس الموت هو النهاية، بل الموت والحياة اختبار لبني آدم في حياتهم الدنيا؛ ليعلم الله ـ علم ظهور[1] ـ من منهم قد أدى الهدف والغاية. يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، فالدار الدنيا ليست مقرّاً دائماً لبني آدم، وإنما هي ممرٌّ للدار الآخرة الباقية، ويتحدد مصير كل شخص فيها بحسب عمله وتحقيقه للغاية التي خُلِقَ من أجلها إما للجنَّة أو النار؛ ولذلك دعا القرآن الكريم الناسَ إلى الإيمان باليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وحثَّهم على الاستعداد لذلك اليوم والتزوُّد من الأعمال؛ فإن الإنسان لم يُخلَق عبثاً ولا هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ويقول ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وأرشدهم إلى حقيقة هذه الدنيا وزوالها، وأنها ليست نهاية المطاف: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ

(١) علم ظهور: أي ظهور الأمر للناس لتقوم عليهم الحجة، وهو لا ينفي علم الله السابق به؛ فهو سبحانه تبارك وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]. إن كل صاحب فكر سليم وعقل قويم يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة؛ ولذلك خُتِمت الآية بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

الذَّات الإلهية:

فإن سأل الإنسان: فمن أعبد؟ ومن هو ذلك الإله العظيم المستحق للعبادة؟ أجابه القرآن الكريم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة: ١٨٦]. وأنت إذا تصفَّحتَ هذا الكتاب العظيم وجدتَ وصفاً ساحراً، وتنزيهاً قاطعاً للذات الإلهية من خلال الأسماء الحسنى والصفات العلا المنسوبة لله تبارك وتعالى في كتابه، فلا أحد أعرف بالله تعالى من نفسه، يقول ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقول: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]، فتثير هذه الصفات أنساً بالباري، وخشيةً من العظيم، وقرباً من الرحمن الرحيم، وطمعاً في المعطي الكريم، واستكانةً لتدبير الملك القدوس العليم الحكيم.

كما يضع القرآن حدّاً فاصلاً بين صفات الخالق والمخلوق، وأنه من المستحيل أن يستوي الرب المعبود والعبد المخلوق، وضرب لذلك الأمثال، قال تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]، ونبّه الأفهام إلى الفرق بين عظمة الله وقدرته اللا محدودة مقارنةً بعجز المخلوق وقدرته المتضائلة، واستخدمها أداةً للسجال مع الكفار المعاندين، كما في قصة النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، فالله تعالى يجب له كل كمال يليق بذاته المقدسة، وكمالاته ﷻ لا تتناهى، ولا يحصيها عدٌّ، ولا يحيط بها علم؛ ولذلك كان ﷻ إلهاً مستحقاً للعبادة واحداً لا شريك له.

والقرآن في تنزيهه لذات الله ﷻ قد اتخذ مسلكاً قوياً، لا يقبل النقاش أو المقايضة، وقد عاب على أهل الكتاب نسبتهم النقائص لله سبحانه، فقال تعالى تنزيهاً لذاته العلية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وعاب على النصارى ادِّعاءهم له الولد: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣].

إن النقائص مستحيلة في حق الله ﷻ، فإنه لو جاز نسبة النقائص إليه كما ادَّعى أهل الكتاب وغيرهم من المعاندين، لكان عاجزاً عن دفع النقائص عن نفسه ـ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً ـ، ومن كان حاله كذلك فإنه لا يكون مستحقّاً للعبادة، لكنه ﷻ ـ كما أرشدنا القرآن الكريم ـ كان ولا زال المستحق للتنزيه والتقديس، وكل كمال وجمال، المتعلقة به قلوبُ العباد، المتفرد بالوحدانية لا شريك له.

ما وراء الطبيعة:

ما وراء الطبيعة هي تلك الأشياء التي لا تُدرَك بالحواس ولا تُشَاهد بالعين، ولطالما تساءل الإنسان عن وجود عالم موازٍ! أو وجود الملائكة والشياطين. وهي أسئلة بحثت عنها الفلسفة طويلاً، وحاول العلم التجريبي خوض غمارها فعجز، إلا أن إجاباتها كانت قريبة وسهلة وميسرة، يقدمها لنا القرآن الكريم بطريق الخبر ليبدِّد حيرة الإنسان.

الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب ركن أصيل من أركان الإيمان في الإسلام، يقول تعالى في صفات المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[يس: ١١].

وفي الإيمان بالغيب احترام لقدرات العقل البشري المحدودة التي لا تستطيع اختراق ما وراء الطبيعة، فعلى سبيل المثال، أثبتت الدراسات العلمية أن هناك مدى محدوداً لسمع الإنسان، ما بين (٢٠) إلى (٢٠٠٠٠) هرتز، وما قل عن ذلك أو زاد فإنه لا يستطيع سماعه؛ لأنه خارج مدى سمعه، والأمر كذلك فيما

يخص ما وراء الطبيعة؛ فإن الإنسان لا يستطيع إدراكها إلا عن طريق الخبر من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

فمثلاً يخبرنا القرآن عن أمر «الروح» فيقول: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]. ويخبر الإنسان أيضاً عن وجود عالم الملائكة والجن، فيقول تعالى عن الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠]، ويقول تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦]، كما تخبرنا السُّنة أنهم مخلوقات من نور، لهم وظائف مختلفة، وأنهم يَحضُّون المؤمنين على الطاعة.

ويقرُّ القرآن الكريم بوجود الشياطين، ويحذر عاقبة اتباعهم، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، ويقول تعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وغيرها الكثير من الآيات.

وتطرَّق القرآن إلى الحديث عن الجن؛ ليبين أنهم مكلَّفون بالإيمان والطاعة كالإنس تماماً، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ويهدم أسطورة الجن الخارق للعادة ـ التي كانت تسبب الذعر لبعض بني آدم ـ، ويؤكد أنهم لا يعلمون الغيب، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، يقول تعالى في قصة نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]. كما يضرب للإنس المثل في

حُسن إيمان الجن، وتأدُّبهم وإنصاتهم عند سماع القرآن، وحرصهم على دعوة قومهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢]. إضافةً إلى حديث القرآن عن الجنة والنار، ومشاهد مختلفة من البعث ويوم القيامة.

وهكذا يقدم القرآن للناس إجابات واضحة، تشفي غليل فكرهم وتحترم عقولهم، وتمنحهم الهداية والسكينة في حياتهم، فيحثُّ أتباعه على القيام بأدوارهم في هذه الحياة بنفوس مطمئنة، تاركين سبل الحيرة والشك خلف ظهورهم، عازمين على المضي قُدُماً للوصول إلى أهدافهم الكبرى.

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

التوازن منهج حياة

لا شك أن التوازن أمر مهم لحياة الإنسان، وهو مفتاح الأمان لاستقراره على كافة المستويات، المادية منها والروحية، وقد قدمت شريعة القرآن الكريم سبيل التوازن للناس كافة عقيدةً وعملاً، بما يضمن لبني آدم طريق السعادة، فنجد أن شريعة هذا الكتاب المقدَّس كانت دائماً وأبداً مجافية لطرفي الخيط، فما عرفت يوماً إفراطاً أو تفريطاً، على عكس الشرائع الأخرى لأهل الكتاب، فاختارت أن تكون وسطاً وجعلته شعاراً لأمة الإسلام. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: جعلناكم أمة خياراً عدولاً، وسطاً بين الأمم كلها، في العقائد والعبادات والمعاملات؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء لرسل الله أنهم بلغوا ما أمرهم الله بتبليغه لأممهم، وليكون الرسول محمد ﷺ كذلك شهيداً عليكم أنه بلغكم ما أرسل به إليكم[1]. فكانت هذه الوسطية سر اصطفائها على سائر الأمم وتكريمها بالشهادة عليهم يوم القيامة.

وسنضرب الآن بعض الأمثلة للدلالة على منهج التوازن في المناحي المختلفة لشريعة القرآن الكريم:

---

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم، لجماعة من علماء التفسير، ص: ٢٢، دار المختصر للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ.

التوازن عقيدة

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

من أهم القضايا التي توضح منهج التوازن في الإسلام هي موقف القرآن من المسيح عيسى ابن مريم رضي الله عنهما، فنجد أن يهود قد فرَّطت، فأنكرت نبوته عليه السلام، بل وقذفت الطاهرة مريم العذراء في عِرضها، وادَّعت أن عيسى هو ابنها سِفاحاً من يوسف النجار. أما النصارى فقد أفرطوا وغالوا، وادَّعوا أن المسيح إلهاً، بينما جاءت شريعة القرآن لتكون وسطاً، فأثبتت نبوته عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله، وأنكرت على القائلين بألوهيته، فما هو إلا نبي جعله الله آية لبني إسرائيل بمجيئه للدنيا بغير أب، وأمه طاهرة، اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] أي: ما عيسى ابن مريم إلا عبد من عباد الله أنعمنا عليه بالنبوة والرسالة، وصيَّرناه مثلاً لبني إسرائيل يستدلون به على قدرة الله حين خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أبوين[1].

ولم يدَّع يوماً عليه السلام الألوهية، وما كان له ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨]؛ ولهذا خاطب الله تعالى في القرآن الكريم

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: ٤٩٣.

أهل الكتاب من النصارى محذِّراً إياهم من المغالاة في شأن عيسى عليه السلام، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

وهكذا حققت شريعة القرآن التوازن في شأن المسيح عليه السلام، فكانت وسطاً بين مجافاة اليهود ومغالاة النصارى.

بين الخوف والرجاء:

التوازن حليف المسلم في جميع نواحي حياته، حتى في أخص عباداته! فالعبادة لها أركان ثلاث (الحب والرجاء والخوف)، ولا ينبغي للمسلم أن يستبدَّ به مقام دون آخر، بل لا بدّ من جمع هؤلاء الثلاثة قاطبةً؛ حتى يستقيم أمر العبادة وإلا انهارت منظومتها بأكملها، كالطائر المرتحل، يطير برأس الحُب بين جناحي الخوف والرجاء، فالحب يحدوه إلى التحليق نحو ديار الحبيب، بينما يطير بتوازن بين جناحي الرجاء والخوف، وهو بالطبع لا يستطيع أن يطير بجناح واحد، فلو انكسر أحد جناحيه لاختلَّ توازنه وسقط أرضاً، كذلك المؤمن المحب لربه، متوازن في كل أحواله ومقاماته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩][1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الجمع بين المقامين في كثير من آياته، في تأكيدٍ منه على أنه السبيل إلى التوازن العَقَدي الصحيح، والدليل من القرآن

(١) واصباً، هند الورداني، ص: ٢٦ (بتصرف)، الدار العالمية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ-٢٠١٩م.

الكريم أن الله ﷻ كثيراً ما يجمع في وصف نفسه بين صفات الترغيب والترهيب: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، ويقول عزّ من قائل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، ويقول سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]؛ ترغيباً لعباده في طاعته وترهيباً من معصيته.

كذلك جمع القرآن بين وصف الجنة والنار، وعرض جزاء المؤمنين وشقاء الفجّار: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١]، ويقول سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦ ـ ٢٧] وغيرها الكثير من الآيات.

وهكذا نجد أن القرآن كان وسطاً، يقدم عقيدة متوازنة بعيدة عن الإفراط والتفريط، بما يضمن الاستقرار النفسي لأتباعه، فلا المسلم بالقانط من رحمة الله فيهلك مع الهالكين، ولا هو بالمؤمِّل التارك للعمل فيغرق في أماني الأوهام والتسويف. وقد عاب القرآن الكريم على أهل الكتاب إفراطهم في الرجاء إلى حدٍّ هوى بهم في مهاوي الغرور: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢]، وعاب على القانطين من رحمة

الله لإفراطهم في الخوف ووصفهم بالكفر والضلال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ويقول سبحانه أيضاً: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] أي: لأنه لا ييأس من رحمة الله تعالى إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا يعرفون سعة رحمته تعالى ونفاذ قدرته[١].

والسبيل الصحيح إلى التوازن هو أن تؤخَذ الشريعة الإسلامية بصورة كاملة، وأن يُبتعَد عن تبعيض النصوص، فلا يجوز أخذ نصٍّ وترك آخر، وإلا سيترتب عليه تصور عَقَدي مشوَّه، فالرجاء والخوف يشكلان معاً مقاماً واحداً؛ إذ لا ينبغي أن يتفرد أحدهما بالعبد، وإلا كان من الهالكين قنوطاً ويأساً، أو بطراً وغروراً، فهما وجهان لعملة واحدة، ولذا جاء الأمر الشرعي بوجوب الإيمان بكافة شرائع الإسلام، يقول الرحمن جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وذم سبحانه في كتابه ممارسة تبعيض الوحي التي أقدم عليها اليهود فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[البقرة: ٨٥][٢].

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، (٨/ ٥٦)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة، الطبعة الأولى، فبراير ١٩٩٨م.

(٢) انظر: جمالية الدين، فريد الأنصاري، ص: ٢٤٢، دار السلام، مصر، الطبعة الخامسة، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م. وانظر: واصباً، هند الورداني، ص: ٢٩ (بتصرف).

التوازن شريعة

ولا تنسَ نصيبك من الدنيا:

لم يدعُ الإسلام يوماً إلى الفقر، وهذا الفهم الخاطئ لدى البعض من كون الإسلام يدعو إلى التقشف هو فهم مغلوط ومفترى على شريعته الغرّاء، فلم يجعل القرآن الجنة حِكراً على الفقراء، بل تعامل مع الفقر على أنه آفة تنخر في عظام المجتمعات؛ ولذلك تعوَّذ منه النبي ﷺ[1]، كما لم يجعل المغفرة منوطة بأموال الأغنياء، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، فمعيار التفاضل عند الله هو الإيمان والعمل الصالح وليس الغنى أو الفقر، ولهذا اتخذت شريعة القرآن الكريم موقفاً وسطاً من التعامل مع الدنيا، فلم تجافِها ولم تغالِ فيها، وإنما أقرَّت أنها ممرٌّ إلى حيث المستقر من الجنة أو النار بحسب عمل المرء، وأنه على المؤمن أن يأخذ منها بقدر حاجته وما يعينه على التزوُّد لآخرته، فلا يجافيها فيصبح من الدراويش، ولا ينبهر بزخارفها ومتاعها فيصبح من الخاسرين.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قصة قارون: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ

(١) رُوِيَ أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهمَّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللَّهمَّ إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت» [رواه أبو داود والنسائي في سننهما].

﴿ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٧] فكان ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ عنوانَ التوازن.

❋❋❋

التوازن آداباً

حتى المشية!

لم يترك القرآن التوازن في أدق تفاصيل حياة المسلم، فنجد أن لقمان الحكيم ـ الأب المشفق ـ يوصي ابنه بسلسلة من الآداب وخصال الخير، فيأمره بالقصد والاعتدال في كل أموره، حتى في مشيته! يقول الباري ﷻ: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، واقصد أي: توسط، فلا تجعل مشيتك سريعة ولا بطيئة، بل متوازنة بين ذلك.

وحتى في الإنفاق يأمر القرآن الكريم بالتوازن، والابتعاد عن كلٍّ من الإسراف والتقتير: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

اعلم أنه لما أمره بالإنفاق في الآية المتقدِّمة علمه في هذه الآية أدب الإنفاق، واعلم أنه تعالى شرح وصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فههنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تمسك من الإنفاق بحيث تضيق على نفسك

ولأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً، بحيث لا يبقى في يدك شيء.

وحاصل الكلام: إن الحكماء ذكروا في كتب «الأخلاق» أن لكل خلُق طرفَي إفراط وتفريط وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل الوسط، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣][1]. وهكذا جعل القرآن التوازن شعاراً لحياة المسلم في كل صغيرة وكبيرة.

❋ ❋ ❋

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، (٢٤/ ٢٨٤)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ، عدد الأجزاء: ٣٢.

الفصل السادس

قواعد الذوق والإتيكيت

سنَّ الإسلام للمؤمن آداباً سلوكية لا تفارقه في حياته اليومية، وقد سبق القرآن الإتيكيت الغربي في تأسيس قواعد الذوق واللباقة من خلال آدابه وتشريعاته قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة، فلم يظهر مصطلح الإتيكيت الغربي إلا في القرن السابع عشر الميلادي بفرنسا، ثم انتقل منها إلى إنجلترا في القرن الثامن عشر، وعندما صارت بريطانيا قوةً عظمى انتشر المصطلح في كافة أرجاء العالم.

وقد تلقى أغلب الناس قواعد الإتيكيت الغربي بالقبول بينما تنكروا لآداب القرآن؟! وليس ثمة سبب لذلك في رأيي إلا «الانهزام الحضاري»، الذي يجعل كل ما هو غربي سهلاً مستساغاً تهضمه البطون، وكل ما هو إسلامي متحجر ودوغمائي تمجُّه الأسماع ولا تستهويه القلوب! ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولكني على يقين أن الإسلام الذي شيَّد الحضارات قادمٌ لا محالة، مهما اشتدت الكبوة.

❋❋❋

الإتيكيت الإسلامي

لم يترك الإسلام أمراً من أمور الناس إلا وجعل له ذِكراً وآداباً، بِدءاً من دخول الخلاء إلى أصول التعامل مع الناس، فتعرفُ الإنسان المسلم بسَمْتِه وحُسن ذوقه. ونرى أن القرآن الكريم يطلب من المسلم أن ينتقي خير الألفاظ وأطيب الكلام

في حديثه مع الناس. قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وفي وصايا لقمان لابنه قال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩]، وفيها جملة من آداب التعامل مع الناس، حيث التواضع وغض الصوت؛ لأن اللباقة تحتاج من الإنسان أن يتحدث بصوت متزن، لا يكون كالهمس فلا يُسمَع، ولا صراخاً وصخباً فيصك الآذان، إضافةً إلى كمال الهيئة وحُسن المِشية.

كما يبين لنا القرآن آداب الإتيكيت الإسلامي في الاستئذان وإلقاء التحية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور: ٢٧ـ ٢٩].

ولنأخذ الآية السابقة كمثال لنبين مدى رقي الإتيكيت الإسلامي من خلال آداب الاستئذان، فنجد أن القرآن الكريم يقسم الأماكن من حيث آداب الاستئذان إلى قسمين:

ـ أماكن ذات ملكية خاصة: كالبيوت والمكاتب.

ـ أماكن ذات ملكية عامة: كالأسواق والمكتبات العامة.

الأماكن الخاصة

فعلى الإنسان أن يتعامل فيها بالخطوات الآتية على الترتيب:

١- يستأذن (يطرق الباب أو يدق الجرس).

٢- ثم يُعرِّف بنفسه.

٣- ثم يلقي التحية ويقول: (السلام عليكم، أأدخل؟).

٤- فإن أذنوا له بالدخول فليدخل.

٥- وإن لم يُؤذَن له، فله أن يكرر محاولة الاستئذان مرتين أخريين لا أكثر (بإجمالي ثلاث مرات)؛ لئلا يزعجهم، فإن لم يجبه أحد فليرجع.

وفي هذا الهَدي حفاظ على خصوصيات المَزُور وحريته الشخصية، وتنمية للباقة الزائر واحترامه لحياة الآخرين.

الأماكن العامة

أما الأماكن العامة فهي مباحة، ولا إثم في الدخول إليها بغير استئذان؛ لأنها مما ينتفع به الناس.

وفي آداب التحية يتجلى الإتيكيت الإسلامي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]. فإن المسلم إذا أُلقيت عليه التحية فعليه أن يرد ببشاشةٍ وودٍّ بما هو أفضل منها، أو أن يردها بمثلها، وكما يقول العلماء: (فإن الزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة). وفي تحية الإسلام: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ما يبعث على الطمأنينة والمحبة والسلام، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى

تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[1]؛ فإن في إفشاء السلام تقوية لأواصر الأخوة والمودة بين الناس.

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي توضح لنا قواعد الإتيكيت الإسلامي الراقي بما لا يسع المجال لحصرها هنا، ولذلك اكتفينا بهذه الأمثلة.

إن الإسلام يتخير لنا أطايب الكلام والمعاملات ليرسخ رقي الإنسان المسلم، والقرآن ومن ثَمَّ السنة هما نبعا الإتيكيت الإسلامي، والتمسك بهما هو الذي حوَّل العرب من طائفة جاهلية همجية، تعيش على السلب والتناحر بين القبائل، إلى أمة تضع قدماً في الصين وأخرى في الأندلس، تشيد الحضارات وتنشر الآداب أينما وُجِدَت؛ الرقي عنوانها والسمو غايتها، فلنعد إلى سلوكنا الإسلامي، وهلمَّ بنا نطرق باب السعادة.

❋❋❋

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٤).

الفصل السابع

الصحَّة النفسية

القرآن كتابٌ إصلاحيٌّ اجتماعيٌّ من الطراز الأول، ولذلك أولى صحة الإنسان النفسية عناية فائقة، وهو مع ذلك لم يغفل عن صحة الإنسان البدنية كما سنرى لاحقاً؛ إذ النفس محور التغيير ومفتاح النجاح إذا أحسن المرء سياستها وتهذيبها، وصحة الفرد نفسيّاً طريقُ فلاحه وسعادته، ومن ثَمَّ فلاح الجماعات، وفلاح الأمة جمعاء، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

أنواع النفس في القرآن الكريم:

اختلف الفلاسفة في ماهيَّة النفس، فاتَّجه البعض إلى القول بأنها جوهر روحي مستقل عن جسم الإنسان، ويمثِّل هذا الرأي سقراط وأفلاطون، واتَّجه آخرون إلى أنها صورة منطبقة مع الجسم لا يمكن فصلها عنه، ويمثل هذا الاتجاه أرسطو، وهناك اتجاه ثالث حاول التوفيق بين الرأيين، ويمثله الفلاسفة المسلمون[1].

وعلى كلٍّ فإن هذه القضية فرعية بالنسبة إلينا، ولن نتطرق إليها كثيراً. لكننا سنهتم بما يبيِّنه لنا القرآن الكريم من أنواع النفس البشرية من خلال آياته الكريمة:

---

(١) انظر: الإنسان وصحته النفسية، سيد صبحي، ص: ٢٢، الدار المصرية اللبنانية، طبعة خاصة ضمن مشروع مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠٣م.

✍ **النفس المطمئنة:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، وهي النفس الآمنة المطمئنة، الناعمة بروح اليقين، الواثقة بفضل الله تعالى ورحمته(١).

✍ **النفس اللوامة:**

يقول تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وهي التي تلوم صاحبها على فعل المعاصي أو فوات الطاعات. قال الحسن: «ما يُرَى المؤمن إلا يلوم نفسه على ما فات ويندم، يلوم نفسه على الشرِّ لِمَ فعله، وعلى الخير لِمَ لم يستكثر منه، فهذه نفوس خيّرة، حقيقةٌ أن تشرَّف بالقَسَم بها»(٢).

✍ **النفس الأمَّارة بالسوء:**

تقول امرأة العزيز في قصة يوسف الكريم عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهي الكثيرة الأمر بالمعصية، الراكنة إلى الشهوات.

ولا بدّ أن نقول أن هذه الأنواع الثلاثة من الأنفس هي بمثابة «مراحل» نفسية بحسب ما يتعامل الإنسان مع الوسوسة.

---

(١) التفسير الوسيط للطنطاوي، (١٥/ ٣٩٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور، (ج (٢٩/ ٣٣٨).

الوسوسة

هي ذلك الصوت الخفي الذي تُحدِّث به النفس بني آدم، أو ما يُطلَق عليه (الخواطر)، وهي تدوم مع الإنسان دوام حياته، فإما تدعوه إلى الخير، وإما تدعوه إلى الشر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. والإنسان بحسب استجابته لوسوسة النفس يتمثل الأنواع الثلاثة المذكورة في القرآن الكريم، كما سنوضح بالشكل التالي:

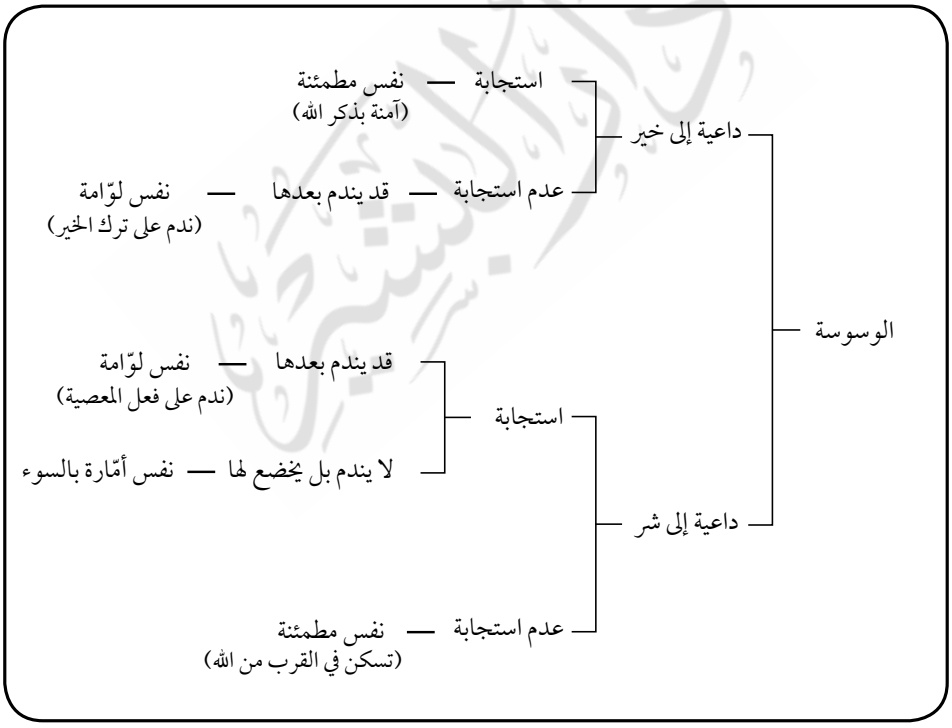

إضاءة:

قال ابن جزي ﷺ: فإن النفوس على ثلاثة أنواع: فخيرُها النفس المطمئنة، وشرُّها الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة[1].

التوازن النفسي

إن القرآن يدعو إلى التوازن النفسي، ليقي بني آدم نزعات النرجسية، ويجنِّبهم كذلك الانحطاط النفسي، فلا داعي للانجراف في مهاوي الغرور. يقول تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]، كما أنه ليس الحل في أن يحتقر ذاته، بل لا بدّ أن يقدِّر نفسه، ويحسن توظيف مواهبه وممتلكاته، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فإنما استواء النفس ورشدها في التوازن بين هذا وذاك.

كذلك نرى أن القرآن يتعامل مع «الخطيئة» من الجهة النفسية بأسلوب متوازن؛ فالذنوب والمعاصي ليستا قوى هدم، ولا مبرراً لجلد الذات أو القنوط من رحمة الله الواسعة، بل هما دافع للتوبة والرجوع إلى الله تعالى، يقول الرحمن جل وعلا: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. بالإضافة إلى أنهما عنصر تحفيز لتزكية النفوس، ومحاولة الاستزادة من الخيرات، وفي ذلك دعوة القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، (٢/ ٤٣٢)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، عدد الأجزاء: ٢.

تزكية النفس

يدعو القرآن دائماً إلى تزكية النفوس من أجل الوصول إلى سبل الفلاح؛ فالترفُّع عن الخسائس مثل الكسل وحب الشهوات وإهدار الأوقات والأنانية وغيرها، هي حبائل الترقِّي في دَرَج السموِّ لأجل إصابة الهدف المنشود من تحقيق الذات، وقد قال الله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، ومجاهدة النفس للاستمرار على الخير والإخلاص لله والبعد عن مواطن الشر تحتاج إلى تدريب نفسي ودوام مراقبة، وقد ضمن الله لمن يفعل ذلك طريق الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة؛ إذ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ ولهذا وضع القرآن معالم أساسية يسير عليها الفرد نحو التزكية والصحَّة النفسية، سنتطرَّق إليها في الفقرات القادمة إن شاء الله.

قواعد قرآنية للصحة النفسية

(١) دعِ القلق:

على الرغم من كل الاكتشافات العلمية والطبية الحديثة التي أحدثت ثورة في العالم، إلا أن إنسان العصر يعاني من أشد الأمراض فتكاً، ألا وهو القلق. لقد عجزت المادية الحديثة عن علاج القلق، بل وكانت سبباً في انتشاره ومعاناة الإنسان في كل مكان، فاللهاث في دائرة لا تنتهي خلف الماديات الفانية، والركون إلى حب الشهوات أورث الإنسان المعاصر القلقَ، فتراه في حالة قلق دائم من أن يفوته منها شيء، حريص عليها كحرصه على حياته أو أشد.

وللأسف فإن القلق سبب لكثير من الأمراض كاضطرابات المعدة، واضطرابات النوم، وارتفاع ضغط الدم، وداء السكري، وتسارع ضربات القلب، وضيق التنفس، والأزمات القلبية. وهي أمراض كفيلة بقتل أي إنسان على المدى القريب والبعيد، بالإضافة إلى الأمراض النفسية كالاكتئاب، واضطرابات الشخصية، والانتحار الذي يودي بحياة الآلاف من البشر كل عام. ووفقاً لتصريحات منظمة الصحَّة العالمية على موقع CNN بالعربية؛ فإن هناك حالة انتحار كل (٤٠) ثانية![1].

كل ذلك من أجل ماذا؟ الخوف من الغد؟! القلق على الرزق؟! الانغماس في الدنيا والتكالب على الماديات؟ إن منظمة الصحَّة العالمية قد نشرت تقارير مخيفة تعكس تفشي تلك الأزمة، فقد زاد عدد المصابين بالقلق والاكتئاب حول العالم بنسبة (٥٠٪) تقريباً بين العامين (١٩٩٠ و٢٠١٣) لترتفع من (٤١٦) مليون إلى (٦١٥) مليون شخص، مع توقع زيادة سنوية في الأعداد المصابة، بما يوحي بفشل الاتجاه العام للعالم المادي الحديث[2].

ما أسوأ أن يحبس الإنسان في سجن من الأوهام! فيفسد حاضره بالقلق على المستقبل، ويعيش في دوّامة من توقُّع الأسوأ. إن المئات من شركات التأمين حول العالم قد استغلَّت أوهام الناس وخوفهم الدائم من المصائب والكوارث والحوادث ليكوِّنوا ثروات بالملايين. لقد وجدوا أن نسبة ما يقع من الحوادث في الحقيقة إلى جانب ما يتوقعه البشر هي نسبة ضئيلة جدّاً، وبذلك استفادوا من مراهنات بعض الجبناء وتشاؤمهم.

(1) https: //arabic.cnn.com/health/article/2019/09/10/who-global-suicide-rates-intl

(2) https: //www.who.int/news-room/detail/13-04-2016-investing-in-treatment-for-depression-and-anxiety-leads-to-fourfold-return

إن الحضارة الحديثة ضحلة العلم بالله تعالى، وهي بالتالي مزعزعة الثقة فيه؛ ولذلك تعالج أدْواءَها بأدوية رديئة، من مراهنة تسمى «تأميناً»، ومن إحصاءات تبين للمرعوبين أن نسبة الإصابات أخف مما يتصورون. ونحن ننادي بأخذ الحِيطة للمستقبل، وإرصاد العوض لكل مصاب، ولكننا نستنكر المتاجرة بالذعر الناشئ عن خور اليقين، كما تفعل شركات التأمين، ونستنكر الفَرَق الذي يستحوذ على الجبناء عندما يدفعهم الشك إلى ترقُّب الموت كامناً في كل أفق..!![1].

إن المؤمنين قد رفعوا شعار ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] فناموا مطمئنين، وقد قرّت أعينهم بالله الكريم، فلن يخرج شيء في هذا الكون عن مشيئته وقدرته، فعلام القلق إذن؟! إن رزقك مكفول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وإن هدَّدك أحد أو توعّدك فإن الله حسبك ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، ووالله لو اجتمعت أمة كاملة على أن ينفعوك أو يضروك، فلن يفعلوا إلا بشيء قد كتبه الله لك أو عليك: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥].

---

(١) جدد حياتك، محمد الغزالي، ص: ٧٢، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة مزيدة ومنقحة (ولم أقف على رقم الطبعة ولا سنة نشرها).

فما لي أرى القلق يعتريك؟! أتقلق وأجلك مكتوب؟! وعلامَ إذن تتوهم شبح الموت في كل مكان وتنتظر المصائب وفِراق الأحباب؟! عِش اللحظة واستمتع بالحياة ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٣] ، وإن كنت تقلق من المستقبل، فعليك بالحِيطة والأخذ بالأسباب، اسعَ واجتهد وتوكل على الله، ولا تخشَ النتائج؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وإن كنت من أرباب المال، وممن يحرص على جمعِه حرصه على الحياة، ولا تعرف سوى لغة الأسواق والعملات، التي أصابتك بقرح المعدة وأمراض الضغط والقلب مع كل صعود أو هبوط للأسهم والسندات، فأربِعْ على نفسك؛ فإنه ليس للكفن جيوب، وهذه الدنيا بكل شهواتها ولذاتها إلى زوال، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

(٢) آمِنْ بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة في الإسلام، وقد ورد في الحديث حين سأل جبريل عليه السلام النبي ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ عن الإيمان أنه ﷺ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1]. فالمؤمن يصبر على الأقدار المؤلمة؛ لأنه يعلم جيداً حقيقة هذه الدنيا وأنها دار امتحان، وأن أحوالها تتقلب بين انشراحٍ وضيق،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨).

وغنى وفقر، وصحة ومرض، ولقاء وفراق. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦]. يعلم المؤمن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، فمتى استقبل أقدار ربه بالصبر والتسليم، عمَّر الله قلبه بالهداية واليقين، وهوَّن عليه كل شديد، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

إن الإيمان ـ والإيمان فقط ـ هو من يحفظ الإنسان من الانكسار تحت عجلات الدنيا الطائشة، فيحفظ عليه ثباته وتوازنه النفسي في مواجهة تقلبات الحياة ـ التي لا تحابي أحداً أيّاً كان ـ، ومن ذا الذي يستطيع دفع القضاء أو تغييره؟! وأين المفر من قدر الله؟!

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

دَعِ الأَيّامَ تَفعَلْ ما تَشـــاءُ
وَطِبْ نَفساً إِذا حَكَمَ القَضاءُ
وَلا تَجزَعْ لِحادِثَةِ اللَّيالـي
فَما لِحَـــوادِثِ الدُّنيـــا بَقـاءُ
وَكُن رَجُلاً عَلى الأَهوالِ جَلْداً
وَشيمَتُكَ السَّماحَـــةُ وَالوَفـاءُ
وَلا حُزنٌ يَدومُ ولا سُرورٌ
وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ ولا رَخـاءُ

إذا ما كُنتَ ذا قَلـبٍ قَنـوعٍ
فَأَنتَ وَمالِكُ الدُّنيـا سَـواءُ
وَمَــن نَزَلَت بِساحَتِهِ المَنايــا
فَلا أَرضٌ تَقيهِ ولا سَماءُ
وَأَرضُ اللَهِ واسِعَةٌ وَلَكِـنْ
إِذا نَزَلَ القَضا ضاقَ الفَضاءُ
دَعِ الأَيّـامَ تَغـدِرُ كُلَّ حِيـنٍ
فَما يُغني عَــنِ المَوتِ الدَّواءُ

والقضاء هو ما لا يملك المرء تغييره، فيقابله المؤمن بالصبر والتسليم، أما ما يسع المرء تغييره فإن الرضا به ذلٌّ وخنوع، لذلك ينبغي للإنسان أن يفرِّق جيداً بين ما يمكن تغييره وما لا يمكن، يقول الغزالي ﷺ: «فالرجل إذا وقعت به مظلمةٌ يملك ردَّها، ويؤتى القدرة على كفِّها، فإن الصبر عليها جريمة، ورضاه بها معصيةٌ، أما إذا حلَّت به مظلمة يعجز عن دفعها، أو نابته كارثة يعلم أن التخلُّص منها فوق قواه فيجب عليه أن يتحمَّل ويصبر»[1].

(٣) لا تبكِ على ما فات:

إن الماضي ذهب ولن يعود، فما لك تبكي عليه؟! هل يستطيع أحد أن يعيد اللبن المسكوب؟! إنه من الحمق أن نفسد الحاضر ونضيع المستقبل من أجل شيء انتهى ولن يعود أبداً، إن الانحباس في زنزانة الماضي لا يورث إلا الحسرة والندم وقلة الحيلة، ولذلك نهى الله المؤمنين عن الانغماس في ذكرياته الأليمة، يقول

(١) جدد حياتك، محمد الغزالي، ص: ٨١، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة مزيدة ومنقحة (ولم أقف على رقم الطبعة ولا سنة نشرها). المصدر نفسه، ص: ٨١.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

لم يرِدِ الماضي في القرآن الكريم إلا من أجل «الاعتبار» فقط، فالمؤمن عليه أن يتعلم من أخطائه السابقة، وكذا من أخطاء غيره؛ ليجتنبها ثم يمضي للأمام، لا أن يقف أمامها ليتفصَّد قلبه حزناً وندماً ويعذِّب نفسه على ما فات. وصاحب العقل السليم يأخذ من الماضي العبرة ويستمتع بحاضره ويعمل لمستقبله، قال الرحمن جل وعلا: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

(٤) اضبط مشاعرك:

التوازن مهمٌّ، حتى في المشاعر، إن الدنيا متخمةٌ بالهموم التي لا تستثني أحداً، فلا تدعِ المشاعرَ السلبية تؤثر عليك، فلديك طريق لا بدّ من إكماله. يقول الدكتور خالد المنيف: «لن تستطيع أن تمنع طيور الهموم أن تحلِّق فوق رأسك، لكن تستطيع أن تمنعها من أن تعشش في رأسك».

إن الدنيا لن تتغير، لكن عليك أنت أن تغير نظرتك للدنيا، وتضبط مشاعرك من أجل حياة أسعد، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى في كتابه لنبيه الكريم ﷺ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] أي: فلا تكونن أيها الرسول من الجاهلين الذين اشتد حزنهم وتحسَّروا حتى أوصلهم ذلك إلى الجزع الشديد[1].

(١) التفسير الميسر، لنخبة من أساتذة التفسير، ص: ١٣١، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.

إن الاستغراق في المشاعر السلبية يضع الإنسان في دائرة لا تنتهي من الأحزان، فتثقل روحه ويضعف بدنه، وقد يشتد عليه الحزن حتى يهلك، فعلام تقتل نفسك حسرةً وغمّاً؟ إن الدنيا قصيرة فلا تضيِّعها في الحزن والندم، وأمامك هدفٌ سامٍ تسعى للوصول إليه، فقم الآن!

النبي ﷺ كان رحيماً بقومه، رفيقاً بهم، سعى لهدايتهم بكل سبيل، فأبوا! فحزن لتكذيبهم به وإعراضهم عن الهدى، فأنزل الله قرآناً تسليةً لنبيِّه فقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]. أي: فلا تقتل نفسك همّاً وحزناً لتكذيبهم، ولا تكترث لإعراضهم، واستكمل طريق دعوتك، فما عليك إلا البلاغ. وفي هذا الإرشاد القرآني إرساء لقاعدة جليلة في ضبط النفس ومنع الاسترسال مع المشاعر السلبية؛ لضمان صحة الإنسان النفسية والاستمرارية الإنتاجية.

(٥) لا تقارن نفسك بالآخرين:

يقول الله تعالى في كتابه لنبيه الكريم: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الحجر: ٨٨]، وهذا أمر للنبي ﷺ ولمن تبعه من أمته، أي: لا تقارن حياتك بحياتهم، فتتحسَّر على ما فاتك، وتزدري نعمة الله عليك؛ ولذلك روي أن النبي ﷺ كان إذا رأى شيئاً يعجبه قال: «لبَّيك! إن العيش عيش الآخرة».

إن كل إنسانٍ له ما يميزه، فلا بدّ له أن يثق بنفسه، ولا يضع نفسه في مقارنة مع الآخرين، حتى لا يهدر وقته وطاقاته، بل يجب أن يقنع بما لديه ويحسن تقديره وتوظيفه حتى يصل إلى ما يريد، فإنه متى كان ناقماً على نفسه لن يتحقق

له النجاح، إن له شكلاً وبشرةً وعائلةً لا بدّ له أن يتقبَّلها، ورضاه عن ذاته هو ما يحقق خطوته الأولى نحو الراحة النفسية والفلاح.

(٦) كن ممتنّاً لما لديك:

الشكاية فنٌّ يتقنه الكثير من البشر، وجحود النعم أحد أمراض العصر، ولعل ذلك سببه الانجراف خلف بحر الشهوات الذي لا ينتهي، حيث يتغافل البشر عما بين أيديهم من النعم التي لا تعدُّ ولا تحصى، ولا يفكرون إلا فيما ينقصهم، فيقعون في دائرة مفرغة من السخط الذي يأكل أرواحهم، ويهدر أوقاتهم، وقد ذكَّر الله عباده بنعمه عليه فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأقول لك الحل القرآني لئلا تقع في شَرَك الشكاية مثلهم: «كن ممتنّاً لما لديك». إن اعترافك بالنعم هو أول الطريق لحُسنِ استغلالها وتوظيفها فيما ينفعك، والحقيقة أن الإنسان الناجح لا وقت لديه للشكاية؛ فإنه على دراية بمواهبه وممتلكاته، ويثمِّن ما لديه، ويسخِّر إمكانياته وطاقاته لتحقيق ذاته، ولذلك فإن شكر النعم باب للعمل. يقول تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

فعلام إذن يجحد الإنسان نعم ربه عليه؟! فيظلم نفسه يعذب نفسه! إن امتنانه وشكره لنعم الله عليه حافزٌ لتطلعه نحو المزيد من كرمه ﷻ، فإنه متى تفكَّر فيما لديه أحسن الظن بربه ورجا واسع إحسانه، والشكر جالب للنعم كما وعد ربنا تبارك وتعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]. «فكن ممتناً لما لديك، يأتِك الخير».

(٧) تفاعل في مجتمعك:

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، توحشه الوحدة، ويسعده التآلف مع أرواح تشبهه، ولهذا كان للتفاعل الاجتماعي الأثر البالغ في الحفاظ على صحة الإنسان النفسية وتطوير شخصيته، وقد جاءت هذه الدعوة الاجتماعية صريحة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، كما حثَّ القرآن على التآلف والتآخي بين المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن صور التفاعل الاجتماعي تكوين الصداقات، وهي ذات شأن كبير في الإسلام؛ لأن الصاحب ساحب، يقول تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ونحن نرى أن النبي ﷺ قد اتخذ في حياته وطريق هجرته صاحباً كريماً وهو أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ومنها: عقد النقاشات المفيدة؛ لتبادل الآراء والأفكار؛ فإنها مما يساعد في تطوير الذات، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦]، وغيرها الكثير من صور التفاعل الاجتماعي التي يحثُّ عليها القرآن الكريم بما يحقق للإنسان استقراره النفسي والاجتماعي.

(٨) تغافلْ!

قِيل: إن تسعة أعشار حُسن الخُلُق في التغافل، وما تغافل إلا كريم، فالترفُّع عن السفاسف والتوافه من شيم العقلاء؛ لأن التغافل قوام استمرار أي علاقة،

أسرية كانت أو زوجية، صداقة كانت أو زمالة؛ فكل بني آدم خطّاء، ولكي تحيا بسعادة عليك أن تتقبل طبيعة الخطأ من الآخرين، وأن تترفع عن الزلل والهفوات.

ونحن لن ننصب المشانق لبعضنا، وإلا ستستحيل حياتنا إلى جحيم لا ينتهي، إن هناك من تستفزه أتفه الأمور، فتنتفخ أوداجه، ويرتفع ضغط دمه، ويعذبه القولون، وينكد على من حوله لأشياء لا يُقامُ لها وزن، فلا يجني إلا خسارة صحته وخسارة من حوله.

النبي ﷺ كان زوجاً كريماً، يحافظ على كيانِ بيته بالتغافل وحُسن الخُلُق؛ وبيته عليه السلام كسائر البيوت، لا يخلو من بعض المنغصات، ولكنه ﷺ كان يحلم على زوجاته، ويكرمهن ويستقبل جفاءَهن بسعة الصدر، ويظهر معدن خلقه الأصيل ﷺ عند الخِلاف والعتاب، فحينما عاتب ﷺ زوجه حفصة رضي الله عنها على إفشاء السر الذي كان بينهما لم يقرّعها أو يؤنبها، ولم يُهِنْها، ولم يقم الدنيا ولا يقعدها، وإنما عرّف بعض هذا السرِّ وأعرض عن بعض، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

ونبي الله يوسف عليه السلام يُعرض عن اتِّهام إخوته له بالسرقة، ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ﴾ [يوسف: ٧٧]، وينسب عليه السلام مكر إخوته معه إلى نزغ الشيطان؛ حفاظاً على أواصر الأخوة، فيقول على لسان ربه تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ﴾ [يوسف: ١٠٠].

إن التغافل من شيم الأنبياء وعباد الله الصالحين، وقد تغافل نبيُّنا ﷺ عن إفشاء سر، وتغافل يوسف عليه السلام عن إلقائه في البئر، فما بالنا لا نتغافل عما هو أقل من ذلك بكثير مما نلاقيه في حياتنا اليومية؟! كن ذا نفس سمحة، وحافظ على صحتك وأحبابك، وسِر على هَدي قرآنِك، ارقَ بتفكيرك...تنعم بحياتك.

(٩) افعل لوجه الله:

قالوا قديماً: (خيراً تعمل...شرّاً تلقَ)، وقد أخطؤوا، فإنه (خيراً تعمل.. أجراً تلقَ)، وقد وجدتُ مع القرآن ما يعيد إليّ استقراري النفسي ويثبِّتني على مبدئي هذا، فمن منَّا لم يتعرض يوماً لموقف يحسن فيه لأحدهم فيجحد ما قدَّمه؟! بل وقد يسيء إليه أيضاً! فأربعْ على نفسك ولا تحزن، فإن بعض الناس قد جحدوا نعم الله عليهم، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]، أفتستعجب بعد ذلك أن يجحدوا إحسانك؟! وقد بيّن تعالى أن قليلاً منهم الشكور، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فإذا أردت ألا تندم فافعل كل شيء لوجه الله؛ فإنه أَروَح لنفسك وأسعد لآخرتك، أنت لن تعمل الخير «وترميه في البحر» كما يقول المثل المصري، لكنك ستستودعه عند الله ﷻ ليرتدَّ إليك في لحظات يأسك واحتياجك، وقد كان هذا دأب أصحاب رسول الله ﷺ وسلفنا الصالح، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩ ـ ١٠]، وهدي النبي ﷺ أن حياته كلها لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]. فافعل الخير، واستشعر متعة العطاء، ولا تنتظر شكراً من أحد؛ فإن أجرك عند الله.

(١٠) دع عنك كلامهم:

لم تُخلَق في هذه الدنيا لتنال رضا الناس، إن الناس فيهم الطيب والحاسد والحاقد، فيهم الشريف والوضيع، فيهم العالم والجاهل، فيهم مختلف الثقافات والبيئات والألوان والأخلاق، فكيف سترضي كل هؤلاء؟! إن رضا الناس غاية لا تُدرك، ولكل ناجح أعداء، وكلما زاد نجاحك كثرت السهام الموجهة نحوك، وعليك أن تقتنع أنه مهما فعلت فلن يرضى عنك اللئام، ومهما أحسنت القول فستجد من يفهم كلامك بشكلٍ خاطئ، فدع عنك كلامهم. إن الناس لم يجتمعوا على الله، وفيهم مَن جحد وجوده جل وعلا، ولم يجتمعوا على رسوله ﷺ، أفيجتمعون عليك أنت؟!

اجعل غايتك رضا الله ﷻ، حكِّم مبادئك وضميرك في تعاملك مع الناس، ثم امضِ ولا تلتفت. دع عنك كلام السفيه، ولا تنجرف لمستنقعه فتستويا، فما من شيء أحب إليه من ردِّك عليه، وقد قال الشاعر:

وما شيءٌ أحبُّ إلى سفيهٍ
إذا سبَّ الكريمَ مِنَ الجوابِ
متاركةُ السفيهِ بلا جوابٍ
أشدُّ على السفيهِ من السِّبابِ

دع عنك كلام الجاهل؛ فإن الجهل مرضٌ لا يضر إلا صاحبه، وأنت لم تُخلَق لتعلِّم كل إنسانٍ الأدب. دع عنك كلام الحاقد والحاسد واللئيم، واتركه لناره تأكله، لا تكترث لكل هؤلاء، ولا تكثر الالتفات فتخسر وقتك وصحتك وأدبك. وقد قالها لك القرآن: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

(١١) حارب الفراغ:

جهدٌ يلهيك خيرٌ من فراغ يضنيك، إن الفراغ آفة تأكل الروح، فيتركها خاوية تنهشها الأفكار السوداء. لو أن لديك زجاجة محكمة الغلق وأحدثتَ فيها فتحةً؛ فإنها سرعان ما تمتلئ بالهواء، وهكذا الإنسان! إنه كائن أجوف، مخلوق من طين، يحتاج إلى أن يملأ فراغه بما يفيد بدلاً من أن يصبح خاوياً هشّاً مملوءاً بالهواء، مشغولاً بسفاسف الأمور، خالداً إلى الأرض، مُعرَّضاً للانكسار النفسي في أي لحظة! ولهذا أعلى الإسلام من قيمة العمل ودعا إليه. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[التوبة: ١٠٥].

ومحاربة الفراغ ضمان لاستمرار الإنتاجية، وهو أمر مهم جداً لصحة الإنسان النفسية؛ فالإنتاج اليومي ولو بمقدار، وحُسن استغلال المواهب والإمكانات يُعلي من قيمة الإنسان الذاتية ويشعره بالسعادة، والنجاح مرهون بنتاج مجهودات الأيام، والمسلم يعلم جيداً أنه لم يخلق عبثاً في هذه الحياة، بل لديه دور سام للقيام به، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقضاء الأعمار في صالح الأعمال يضمن لبني آدم سعادتهم في الدارين، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ولا بدّ.

(١٢) اترك التكلُّف:

التكلف إرهاق للنفس؛ لأنه يحمِّلها ما لا تطيق؛ فالمتكلف يتطلب ما ليس له أو يدَّعي علم ما لا يعلمه[١]، لمجرد أن يتواكب مع وضع لا يناسبه أو يظهر بمظهر لامع، وهو لا يعلم أن ذلك يكلفه الكثير من استنزاف روحي واستغراق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢٣/ ٣٠٩).

في الأوهام؛ إضافةً إلى أنه قد يجرُّه للحسد وتمني زوال النعم عن الغير؛ لأنه يريد أن تلتفت الأنظار وتُسلط الأضواء عليه وحده ولا أحد غيره! ولذلك نهى القرآن الكريم عن التكلف؛ تحذيراً من عواقبه الوخيمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ٣]، وقد نفى النبي ﷺ عن نفسه أن يكون من المتصنعين أو المدَّعين: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]؛ فإن المدعي لم يجعل همَّه الله ﷻ بل الناس للأسف، وكان نظره إلى الناس أقرب من نظره له ﷻ.

وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أن للمتكلف ثلاث علامات: (أن ينازل مَن فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم)[1]. وقال ابن جزي الكلبي في «التسهيل» أن المتكلفين هم: «الذين يتصنَّعون ويتحيَّلون بما ليسوا أهله»، والمتكلف قبل أن يضر غيره فهو يضر نفسه بأي حال. والحل في «البساطة». عش بطبيعتك، فإنك لست مَديناً لأحد حتى تتكلف وتتصنع، وإن أردت أن تصنع نجاحاً فدونك الميدانَ، شيّده بالجد والاجتهاد لا بقصرٍ من الكذب والأوهام.

ملامح الشخصية في القرآن الكريم

يبيِّن لنا القرآن بعض ملامح الشخصية غير السويَّة، كوصف المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، والمغرور الذي أصابته النرجسيَّة فلم يعد يرى غير نفسه، مثلما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وكذلك الشخصية الجبانة التي تخاف الفقر والموت، فتفرُّ من معارك الحياة خالدةً إلى الأرض، بل وتنشر سلبيَّتها مثبطةً

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

غيرها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] والشحيح؛ المريض بداء البخل: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وعلى الجانب الآخر يدلُّنا القرآن الكريم على ملامح الشخصية السوية من خلال وصف عباد الله المؤمنين، فالشخصية السوية تتميز بالإخلاص، والأمانة، والصدق، والإحسان، وحُسن التوكل على الله، وحب الخير للغير، والتفاؤل والأمل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وغيرها الكثير من الصفات الطيبة التي تتمثلها شخصية المسلم.

الخلاصة:

إن الإنسان في حاجة دائمة إلى «مِداد السماء» خلال رحلته في هذه الحياة، فهي سبيله إلى أمنه واستقراره النفسي، وجواز مروره عبر تقلُّبات الحياة، وعونه لفوزه في معاركها، ومصدره لإكمال نقصه البشري من خلال الاتصال بها لإحراز هدفه المنشود من تحقيق ذاته، وهو ما قدَّمه القرآن الكريم للبشر عبر تشريعاته وآدابه التي تضمن للإنسان سعادته ونجاحه في الدنيا والآخرة.

❋❋❋

الفصل الثامن

الصحَّة البدنية

إن الاهتمام بصحة الإنسان من أولويات القرآن الكريم؛ إذ إن مهمة الاستخلاف في الأرض لا يستطيع أن يقوم بها المهازيل، ورياح الحياة دائماً في تقلُّب، ولا يصمد أمامها إلا القوي؛ لذا أسس القرآن قواعد تحث بني آدم على الحفاظ على صحة أبدانهم، وتمهِّد لهم سبيل العيش بسعادة في حياتهم.

ولا تسرفوا

أهم قاعدة حدّها القرآن في سبيل الحفاظ على صحة الإنسان هي (ترك الإسراف). يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقديماً قال الأطباء: «المعدة بيت الداء»، وهو ما أشار إليه القرآن قبل أكثر من ألف وأربعمئة عام؛ فإن الإسراف في الطعام يؤدي إلى كثير من الأمراض، أهمها: السُّمنة، وارتفاع الدهون، وأمراض القلب، واضطرابات المعدة، إضافةً إلى تقليل كمية الدم الواصل للدماغ؛ مما يؤدي إلى الكسل وانخفاض التركيز.

وكيف للمسلم الذي استخلفه الله تبارك وتعالى في الأرض أن يعيش لا همَّ له سوى بطنه؟! إن أمامه الكثير من المهام التي تسمو به في هذه الأرض، فوجب عليه الحفاظ على صحته، ولذلك يقول النبي ﷺ: «ما مَلَأَ آدَميٌّ وِعاءً شَرّاً مِنْ

بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كانَ لا مَحالَةَ: فَثُلُثٌ لِطَعامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِه»(١).

والقرآن في ذلك لا يأمر الناس أن يجوعوا، بل يحثُّهم على التوازن والاستمتاع بالحلال الطيب من الطعام والشراب وشكر الله تعالى على نعمته ورزقه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، ويحذِّرهم مغبَّة الطغيان وكفر نعمته، أن يسرفوا فيها أو يستخدموها في معصيته أو يستحلُّوا الخبائث؛ فإنه بذلك فساد دينهم ودنياهم، يقول الباري ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَائِثَ

لمّا أمر الله ﷻ عباده بتحرِّي الحلال الطيب من المأكل والمشرب نهاهم عن تناول الخبيث منه؛ حرصاً على صحتهم واختباراً لاستجابتهم. يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] . وقد بيّن الله تعالى في كتابه جملةً من هذه الخبائث المنهي عنها، وسنرى كيف حرص القرآن على صحة الإنسان حين تناول هذه الأشياء بالنهي، وكيف أظهرت الأبحاث العلمية خطرها على صحة الإنسان.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى (٦٧٦٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد (١٧١٨٦).

تحريم الخمر:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. الخمر من الخمار أي: التغطية؛ لأن الخمر يغطي العقل، والعقل هو مناط التكليف، وهو الجوهر الذي كرَّم الله به الإنسان على سائر المخلوقات، وذهابه ذهاب لعزَّته وانحطاط لبشريته، فإذا ذهب عقله فلا فرق بينه وبين البهيمة عندئذ؛ ولذلك فقد ورد تحريم الخمر في القرآن الكريم تكريماً لبني آدم وحرصاً على مصلحتهم، ويأخذ كذلك حكم التحريم كل ما شابهها من المسكرات والمخدِّرات المغيِّبة للعقل.

وطبقاً لتقرير منظمة الصحَّةالعالمية (WHO) فإن هناك (٣٣) مليون حالة وفاة سنويّاً حول العالم نتيجة الإفراط في تناول الكحوليات[1]، فإدمان الكحول يتسبب في الكثير من الأمراض الخطيرة: كتليُّف الكبد Liver cirrhosis، وبعض أنواع السرطان، وأمراض القلب والأوعية الدموية، بالإضافة إلى تعريض النفس والآخرين للخطر في غياب العقل تحت تأثير الكحول من أعمال العنف وحوادث طرقٍ وانتحار، خاصةً بين فئة الشباب.

كما أشارت المنظمة إلى ارتباط إدمان الكحول بمعدلات حدوث بعض الأمراض المعدية كالسِّل والإيدز، ولا عجب في ذلك؛ فإن الإنسان إذا ذهب عقله تجرأ على العلاقات المحرمة وفعل الموبقات، ولن يتورع في إيذاء نفسه أو غيره من الناس.

وأكدت المنظمة على خطورة تناول الكحوليات للسيدات الحوامل، وأن تعاطي الكحول يشكِّل تهديداً قاتلاً للجنين، ويؤدي إلى العديد من المضاعفات

(1) https: //www.who.int/health-topics/alcohol

عند عملية الولادة[١]؛ ولذلك نزّه القرآن الكريم الجنس البشري عن هذا الخبث، فسبحان من لا نملك إلا التسليم لشرعته ورحمته!

الميتة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ولتحريم الميتة في الإسلام أسباب وثيقة بصحة الإنسان كما بيّن العلم الحديث؛ فإن الدم بيئة خصبة لنمو البكتيريا، ولذلك جاء أيضاً تحريم الدم. والذبح الإسلامي الشرعي بتضمُّنه قطع الشرايين الكبرى والقصبة الهوائية والمريء يؤدي إلى سرعة وفاة الذبيحة وحُسن التخلص من الدم، ومن ثَمَّ يمنع نمو البكتيريا ويزيد صلاحية تخزين اللحوم.

أما الطرق الأخرى لقتل الذبيحة من الصعق الكهربائي والضرب على الرأس والخنق؛ فإنها تؤدي إلى تجميد الدم في الذبيحة، واسوداد لون اللحوم، وتغيُّر مذاقها؛ نتيجة ترسب الدماء، وسرعة فساد اللحم والإضرار بصحة الإنسان، إضافةً إلى أن هذه الطرق غير آدمية، وتسبب الألم الشديد للحيوان، على عكس المذهب الإسلامي وآدابه الشرعية، التي كتبت الإحسان إلى كل شيء، حتى الذبيحة![٢].

غير أن القرآن الكريم قد أباح أكل الميتة في حالة استثنائية واحدة فقط، وهي «الاضطرار»؛ لأن المحافظة على النفس من الضرورات الخمس في الشريعة الإسلامية؛ ولذلك أباح الله لعباده أكل الميتة في المجاعات؛ حرصاً على حياتهم

---

(1) https: //www.who.int/news-room/fact-sheets/detail/alcohol

(٢) قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإِذَا ذَبَحْتُمْ فأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» [رواه مسلم: ١٩٥٥].

وتثميناً لها، يقول الرحمن ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

لحم الخنزير:

أما عن تحريم لحم الخنزير في الشريعة الإسلامية وعلاقة ذلك بصحة الإنسان؛ فإن لحم الخنزير يسبب أضراراً صحية جسيمة، وطبقاً لمقالة الباحثة دينيس مينغر التي طالعتُها على موقع health line، فإن تناول كبد الخنزير يسبب الإصابة بفيروس الالتهاب الكبدي E virus (E Hepatitis) الذي يصيب حوالي (٢٠) مليون شخص سنويّاً، وقد أدى إلى وفاة (٤٤٠٠٠) شخص حول العالم خلال العام (٢٠١٥م) طبقاً لتقرير منظمة الصحَّة العالمية (WHO)[1]. وعلى الرغم من معاملة كبد الخنزير بالحرارة أثناء الطبخ، إلا أن الدهون المتوفرة بكثرة في لحم الخنزير تحمي وجود الفيروس[2].

وتستطرد الباحثة في المقال: كذلك فإن مركبات النيتروزو (N-nitro compounds) المستخدمة في معاملة لحوم الخنزير المصنعة كـ (لحم الخنزير المقدد ـ النقانق ـ والهوت دوج) تسبب الإصابة بسرطان الكبد. بالإضافة إلى الشكوك التي أثارها علماء الوبائيات من وجود صلة وثيقة بين حدوث مرض التصلُّب العصبي المتعدد (Multiple Sclerosis) وتناول لحم الخنزير، وهو مرض مناعي يؤثر على الجهاز العصبي المركزي، وسببه غير معروف حتى الآن.

(1) https: //www.who.int/news-room/fact-sheets/detail/hepatitis-e

(2) https: //www.healthline.com/nutrition/is-pork-bad

ولم تنتهِ مخاطر تناول لحم الخنزير عند هذا الحد، بل تعدَّت إلى إحداث (١١٧) ألف حالة تسمم سنويّاً في أمريكا ببكتيريا يرسينيا المعوية (Yersiniosis)، إلى جانب تأثير هذه البكتيريا على المفاصل إلى حدٍّ يصل إلى الالتهاب المزمن.

وخلال القرن الماضي عانى الكثير من مستهلكي لحم الخنزير من داء الشعرينات (Trichinosis) بسبب الدودة الطفيلية الموجودة في لحم الخنزير؛ نتيجة لتربيته في بيئة شديدة القذارة[1].

النظافة الشخصية

اهتم القرآن بنظافة الإنسان الشخصية، فحثَّ على الطهارة من الأوساخ والنجاسات والأحداث، وجعلها أحد أهم المعايير لنيل محبة الله ﷻ، يقول تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقد جمعت خاتمة الآية بين كلٍّ من طهارة الروح بالتوبة، وطهارة البدن بالنظافة.

ولا شكَّ أن نظافة البدن تقي الإنسان الكثير من الأمراض، وفي تشريع الإسلام للوضوء؛ ما يبيِّن لنا أهمية الطهارة في حياة المسلم. فالمسلم يتوضأ خمس مرات يومياً كشرطٍ للصلاة، فيغسل وجهه ويديه ورجليه، ويمسح برأسه، فيزداد وجهه وضاءة بنورٍ على نور، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ

(1) https: //www.healthline.com/nutrition/is-pork-bad

أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦] ، بالإضافة إلى الأغسال الواجبة والمندوبة في حق المسلم.

وهذه النظافة تميِّز المسلم في الدنيا والآخرة، فتعرفه في الدنيا بحُسنه وطيب رائحته، وتعرفه في الآخرة بنور وضوئه، يقول رسول الله ﷺ: «إنَّ حَوْضي لأَبْعَدُ مِن أيْلَةَ مِن عَدَنٍ، والذي نَفْسي بيَدِه، إنِّي لأَذُودُ عنْه الرِّجالَ كما يَذُودُ الرَّجُلُ الإبِلَ الغَرِيبَةَ عن حَوْضِه. قَالوا: يا رسول الله، وتَعْرِفُنا؟ قالَ: نَعَمْ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِن آثارِ الوُضُوءِ ليسَتْ لأَحَدٍ غيرِكُمْ»(١).

كما أن في السنة النبوية الكثير مما يحض على النظافة الشخصية، كالتأكيد على السواك، وتقليم الأظافر، والتطيُّب باستخدام العطور، وغيرها من سنن النبي المختار ﷺ؛ ما يتجلى به اعتزاز الإنسان المسلم بنظافته.

التداوي

وفي سبيل الحفاظ على صحة الإنسان؛ فإن القرآن يحث الناس على التداوي، فلكلِّ داءٍ دواء. والتداوي لا يتنافى أبداً مع التوكل على الله، وإنما هو من صميم الأخذ بالأسباب والمحافظة على صحة الإنسان؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «تَداوَوا عِبادَ اللهِ؛ فَإنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لم يَضَعْ داءً إلَّا وَضَعَ مَعَه شِفاءً، إلَّا الهَرَمَ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٥٥٣)، وابن ماجه (٣٤٣٦) واللفظ له.

ومنها: إشارة القرآن إلى التداوي بـ«العسل» وأن فيه شفاء للناس: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. ومنها أيضاً: الإشارة إلى التداوي بالقرآن الكريم: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وهو ما أكَّدته السنة النبوية من أن الفاتحة رقية، وكذلك المعوِّذات وخواتيم سورة البقرة وغيرها من آيات القرآن الكريم المباركة.

يقول ابن القيم رحمه الله: «ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً عجيباً في الشفاء، ومكثتُ بمكة مدة تعتريني أدواءٌ، ولا أجد طبيباً ولا دواء، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنتُ أصف ذلك لمن يشتكي ألماً، وكان كثير منهم يبرأ سريعاً»[١].

نعمة تستوجب الشكر

إن الصحَّة من أجلِّ النعم التي يتوجب على الإنسان شكرها، وهي نعمة مغبونة، لا يشعر بقدرها إلا مَن فقدها، يقول النبي ﷺ: «نِعْمَتانِ مَغْبونٌ فِيهِما كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ والفَراغُ»[٢]، وقديماً قال الحكماء: «الصحَّة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى»، وأنا مثلاً، شابَّة في العشرينيات، أتمتع بالفتوة والصحَّة وأسير على الأرض لا أهاب أحداً! وإذ بي ذات ليلة تتقطع أمعائي من الألم وترتفع حرارتي للأربعين ويهرعون بي للمشفى بين الحياة

(١) الداء والدواء، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ)، ص: ٨، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، عدد الأجزاء: ١، مشروع آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (١٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٢).

والموت، ليكتشفوا أن الزائدة الدودية على وشك الانفجار، ولا بدّ من دخولي غرفة العمليات بشكلٍ عاجل، لأظلَّ بعدها لأكثر من أربعة أيام تحت الملاحظة، فيا سبحان الله! كيف بين ليلة وضحاها تغيَّر الحال! وقد رأيت في المشفى من المرضى مَن هم أشدُّ حالاً مني، وشعرت بالآهات والصرخات، فلُمتُ نفسي كثيراً، كيف غفلتُ عن شكر نعمة الصحَّة؟! وكيف أنني مررت مئات المرات أمام المستشفيات ولم أحمد الله على نعمته؟! وقلت في نفسي: «لو علم الناس ما يعانيه المُنوَّمين في المستشفيات لخرّوا سجداً».

ولهذا السبب اتخذ الأنبياء من الصحَّة أداة في الدعوة إلى الله، وتذكير أقوامهم بنعمة الله عليهم، قال تعالى عن نبي الله هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فإن استشعارهم نعمة الله عليهم سبيل لحُسن إيمانهم وعملهم.

إن الصحَّة والعافية وقوة البنية وجه من وجوه الخيرية وأداة للتمكين في الأرض، خاصةً إذا تم كمالها بالعلم، ولذلك يقول القرآن الكريم في قصة طالوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٧]،

فلما طلب بنو إسرائيل ملكاً اعترضوا على اختيار طالوت لكونه فقيراً وقالوا: «كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحقُّ بالملك منه؟ ومع هذا، فهو فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظنٍّ فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزمٌ لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدَّمة عليها، فلهذا قال لهم نبيهم: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك؛ لأنه إذا تمَّ رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختلَّ عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرقٌ وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا ينفذه شيء»[1]، وبهذا قالت الحكمة: «العقل السليم في الجسم السليم». وفي الحث على قوة البدن يقول رسول الله ﷺ: «المُؤمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ»[2].

إن المنهج القرآني في التعامل مع صحة الإنسان، وما سنَّه من قواعد وإرشادات للمحافظة عليها، باعتبارها أداةً للاستخلاف في الأرض ونعمة تستوجب الشكر، يفتح باب السعادة للناس للاستمتاع بحياتهم والفوز في آخرتهم، ويؤكد أسبقية القرآن إلى مصلحة الخلق ومدى إعجاز شريعته، وحتمية مصدريته من لدن الله الحكيم الخبير، العليم بأحوال عباده وشؤونهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، ص: ١٠٧، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤).

الفصل التاسع

القرآن والعدل

العدل قِوام الحياة، وبالعدل قامت الأرض والسماوات، وهو الغاية التي من أجلها أُرسِلَ الرسل وأُنزلت الكتب؛ فالله هو الحق، ومنه الحق، وقوله الحق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهو الأمر الإلهي الذي أوجبه الله على عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقد اختار القرآن في بعض مواضعه أن يعبِّر عن القرآن «بالميزان»؛ لأنه الميزان الذي يتساوى أمامه الجميع: الغني والفقير، الشريف والوضيع، العربي والأعجمي، المسلم وغير المسلم. فالكل سواسية أمام ميزان العدل من أجل تحقيق الغاية الكبرى من إقامة الحق وعمارة الأرض.

العدل قيمة مطلقة

العدل قيمة مطلقة، والقيمة المطلقة هي التي لا تتغير ولا تتأثر بأي عامل خارجي، مثلها مثل الأخلاق والمبادئ، وعكسها القيمة النسبية، وهي القابلة للتغيير بتغير الأحوال، أو من الممكن أن نقول بتغير الأهواء. ولذا؛ فكما القول بأن الكلَّ سواسية أمام ميزان العدل الذي لا يغترُّ بمال، ولا يتنازل لمنصب، ولا يخاف سلطة، ولا يحتقر ضعيفاً، ولا يتغير وفق المصلحة والمنفعة، وأنه بعيد تماماً عن كل تلك الأهواء؛ فإن اتباع الهوى مضيعة للحقوق وطريق للظلم

بوضع الشيء في غير موضعه. وإذا استشرى الظلم وحكم «قانون الغاب» فسدت الأرض، وانهارت الأمم، وتجرد الإنسان من أسمى خِصاله الإنسانية، وتحكَّمت (الأنا) فصار عبداً لذاته وما يأمره هواه؛ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

إذن فالعدل كقيمة مطلقة لا يمكن أن يُترَك لأهواء البشر يحددون قواعده حسب مصالحهم، فيزعمون أن هذا حق وذلك باطل، مثلما فعل المشركون من قبلُ في النسيء[1] وغيره: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وكما نُهِبَت أرض إفريقيا وخيراتها وتُرِكَ أهلها للقحط والمجاعات بزعم أنها حق للرجل الأبيض وحْده، وكما وُضِعَ ميزان العدل بيد «حق الفيتو» (وما هو بحق!)؛ يعبث بمصائر الشعوب حسب أهواء الدول الكبرى، كما فعل أسلافُهم من قبلُ، وكما سيفعل الظالمون من بعدهم؛ فإن الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي، وستجده في كل زمان ومكان.

---

(١) النسيء: هو ما فعله المشركون من تقديم أو تأخير للأشهر الحرم، أو الزيادة في شهور السَّنة حسب ما يوافق مصالحهم.
وسبب فعلهم هذا أنهم كانوا ربما أرادوا قِتالاً في شهر حرام فيحلُّونه، ويحرِّمون مكانه شهراً من أشهر الحلِّ؛ قال ابن فارس: وذلك أنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يُغِيرون فيها؛ لأن معاشهم في الغارة، فيحلُّ لهم الكنانيّ المحرَّم. (انظر: نظم الدرر للبقاعي، تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير القرطبي).

ولولا تدافع الحق والباطل لعمَّ في الأرض الفساد ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١ ـ ٢٥٢]. ولا يمكن أن يُترك العدل بيد هؤلاء؛ لأنك قلَّما تجد من البشر من يتجرد من هواه لأجل الحق والعدل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

إن قيمة العدل المطلقة لا يمكن أن تحكمها تقلُّبات الناس وأهواء أنفسهم، بل يحكمها فاعل مطلق، وهو مُصدرها ومُنزِلها، يرسي قواعدها ويحدِّد مسالكها، ألا وهو الله تبارك وتعالى.

إقامة العدل

نفى الله سبحانه عن نفسه الظلم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ، وحرَّمه ﷻ على نفسه وبين عباده، فقال في الحديث القدسي: «يا عِبادِي! إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نَفْسي وجَعَلْتُه حَراماً بَينَكُم، فلا تَظالَمُوا»[1].

ولقد أمر الله تبارك وتعالى في كتابه بإقامة العدل بين الناس، ولو على النفس أو أقرب الأقربين، لا فرق في ذلك بين غني أو فقير، وشريف أو وضيع. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠).

إن القرآن يأمرك أن تقتصَّ لأصحاب الحقوق ولو من نفسك أو حتى من أحب الناس إلى قلبك! وهكذا يكون العدل في القرآن؛ لا تحكمه الأهواء، ولا تثنيه السلطة أو القرابة أو المال.

وقد أوضح رسول الله ﷺ ذلك للناس محذِّراً من مغبَّة الظلم، ومؤكِّداً على سواسية الناس أمام ميزان العدل، فقال: «إنَّما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الحَدَّ، وايْمُ اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا..»(١).

العدل مع المخالفين:

والعدل ليس حِكراً على أحبابك، بل عليك أن تكون عادلاً حتى مع أعدائك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] ـ والشنآن أي: الكراهية ـ، كما أنه أيضاً ليس حِكراً على المسلمين، بل هو يشمل المسلم وغير المسلم.

إن اليهود نعتوا الله بأشنع الأوصاف، والنصارى ادَّعوا له الولد، ومع ذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ـ ١١٤]، إنه العدل القرآني الذي يخلِّصك من ربقة التعميم الظالم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾، ويجعلك منصفاً حتى مع المخالفين.

---

(١)أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٧٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٨٨).

ومهمة الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هو تطبيق هذا العدل بين الناس وإرشادهم إليه؛ وقد عاتب الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ في يهودي اتُّهم زوراً بالسرقة، فقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقصة هذه الآية أن رجلاً من الأنصار يقال له طُعْمَةُ بن أُبَيْرِق، أحدُ بني ظَفَرِ بن الحارثِ سرق درعاً من جارٍ له يقال له قَتَادَةُ بن النُّعْمانِ، وكانت الدِّرعُ في جِرابٍ فيه دقيقٌ، فجعل الدقيقُ ينتثر من خَرْقٍ في الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثرُ الدقيق، ثم خبَّأَها عند رجلٍ من اليهود يقال له زيدُ بن السَّمين، فالتُمِسَتِ الدرعُ عند طُعْمَةَ فلم توجد عنده وحَلَفَ لهم: والله ما أخذها وما لَهُ به من علْم، فقال أصحاب الدرع: بلى والله قد أَدْلَجَ علينا فأخذها وطلبْنا أثرَه حتى دخل دارَه، فرأينا أثرَ الدقيق. فلمَّا أنْ حلف تركوه واتَّبعوا أثَرَ الدقيق حتى انتهوا إلى منزلِ اليهوديِّ فأخذُوه، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بن أُبَيْرِق، وشَهِدَ له أناسٌ من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر وهم قومُ طُعْمَةَ: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فكلَّموهُ في ذلك، فسألوه أن يجادلَ عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعلْ هلكَ صاحبُنا وافتضِحَ وبرِئَ اليهوديُّ، فهمَّ رسولُ الله ﷺ أن يفعلَ، وكان هَواهُ معهم وأن يُعَاقِبَ اليهوديَّ، حتى أنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية كلَّها، وهذا قولُ جماعةٍ من المفسِّرين[1].

إذن فالعدل لا بدّ أن يُطبَّق حتى مع ألدِّ أعداء المسلمين، وانظر إلى هذا العتاب الذي استمرَّ لأكثر من ثمانِ آيات في سورة من أكبر سور القرآن الكريم

(١) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، ص: ١٨١، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح ـ الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

لمجرَّد ميل النبي ﷺ في قرارة نفسه أن يكون المسلم صادقاً وبريئاً، لكن العدل الإسلامي المتجرد عن الأهواء لا يعرف تصنيفاً أو ميلاً؛ ولذلك نزلت الآيات الكريمة بالعتاب.

المطفِّفون:

ولك أن تتخيل أن سورة كاملة من القرآن الكريم قد نزلت من أجل تطفيف بضعة جرامات في الكيل والميزان. يقول الباري ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

إنه لا فرق في القرآن الكريم بين الميزان المادي المستخدم في كيل المشتريات، والميزان المعنوي المستخدم في حفظ حقوق الناس، فكلاهما لا بدّ أن يحكمه «العدل»، والتطفيف في أيٍّ منهما ولو ببضعة جرامات أو بهفوة من الأهواء هو تعدٍّ وظلم وإفساد في الأرض. وقد توعدت السورةُ المطففين بالويل والإهلاك، مثلما توعدت آيات القرآن الظالمين بالعذاب ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

الحدود وإقامة العدل

ومن أجل إقامة العدل وحماية المجتمع المسلم والحفاظ على أمنه شَرَع الله ﷻ الحدود. وقد ادَّعى بعض المبطلين أن الحدود في الإسلام ـ كالقصاص من القاتل، وقطع يد السارق ـ خاليةٌ من الرحمة، ودربٌ من دروب الوحشية.

ونقول: هذا زعمٌ باطل ومخالف للعقول السليمة لعدة أسباب:

أولاً: الله ﷻ هو الرحمن الرحيم، وقد أرسل رسوله ﷺ رحمةً للعالمين؛ ولذلك فإن كتابه ﷻ هو عين الرحمة، وشرعة الرحمة، ولكنها ليست رحمة فاجرة تدلل المجرمين، وتحل الحبل على غاربه للقتلة والمفسدين؛ فالعدل لا يتناقض مع الرحمة، وإنه متى تسامحنا مع هؤلاء ضاع الأمن وحل الخوف وانفرط عقد المجتمع.

ثانياً: نتوجه بالسؤال لأصحاب هذا الزعم: لماذا دافعتم عن السارق وتركتم المسروق؟ ولماذا أخذتكم الرحمة بالقاتل دون المقتول؟! وكم من جريمة قتل ارتكبت بغرض السرقة بالإكراه! ولو قُطِعت يد السارق، وقُتِلَ القاتل بالقتيل لكان في ذلك العبرة للخبيث، والثبات للكريم، والحفاظ على أرواح الناس أجمعين ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثالثاً: أن الغرض من العقوبة هو الردع، ولو تُرِك القاتل دون قصاص واكتفينا بسجنه فقط مثلما يطالب الأوروبيون، فماذا سنستفيد سوى أن القاتل سيُحتجَز في السجن وهو آمنٌ لبعض سنين؟! وقد يخرج بعدها ليقتل آخرين!!... ثم أين حق المقتول؟! ومَن يشعر بحرقةِ أهله وقد علموا أن القاتل يرتع في السجن آمناً مطمئناً؟

كما شددت الشريعة الإسلامية أيضاً في عقوبة الزنا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[النور: ٢]؛ لأنها حريصة على حفظ النسل، وحفظ الأجسام من الأوباء، وحريصة على أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة في دائرة الاجتماع تحت ظل الله وبكلمة الله، وحريصة على أن تكون هذه العلاقة سامية بسمو الإنسان، وحريصة على أن تكون تلك العلاقة

رحمة دائمة بين عنصري الوجود الإنساني. ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]. فشددت في عقوبة الزاني لكيلا يهوي الإنسان بإنسانيته، وينحط إلى دركة الحيوانية، ولكن الأوروبيين ومن سلك مسلكهم استنكروا هذه العقوبة، فأخذتهم الرأفة وما كانوا مؤمنين(١).

رابعاً: أن الحد لا يُقام إلا إذا انتفت كل شبهة؛ لقول النبي ﷺ: «ادْرَؤُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهاتِ»(٢).

فإن لكل حدٍّ شروطاً متى توفرت أُقِيم، وإن لم تتوفرحضرت الشبهة التي تحول دون إقامته. فمثلاً حدُّ الزنا يحتاج إثباته إلى حضور أربعة شهداء. وحد السرقة له مقدار محدد يتعين به، فإن قلَّ عنه فلا حد، وكذلك فلا حد للسرقة في زمن المجاعة كما فعل الفاروق عمر رضي الله عنه وأرضاه حين عطّل حد السرقة في عام الرمادة لحضور الشبهة.

خامساً: فتح باب التوبة قبل القدرة، فالله تعالى رحيم بعباده، وقد فتح باب التوبة للمخطئين وأسقط عنهم الحدود ـ كما يرى بعض أهل العلم ـ ما دام أن أمرهم لم يصل إلى الحاكم ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[المائدة: ٣٤].

وقد ردَّ النبي ﷺ ماعزَ بن مالك الأسلمي أكثر من مرة حين أتاه معترفاً بالزنا؛ لعله يتراجع عن كلامه ويتوب قبل القدرة عليه، وكذلك فعل ﷺ مع المرأة الغامدية.

---

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، د. محمد أبو زهرة، ص: ٨٠ ـ ٨١ (بتصرف واختصار).

(٢) أخرجه ابن حجر في الدراية (٢/ ١٠١)، والزرقاني في مختصر المقاصد.

وهناك فرق بين من يثبت عليه الحد باعترافه من تلقاء نفسه، وبين من يثبت عليه الحد بالبيِّنة. فأما من اعترف من تلقاء نفسه وتاب؛ فإنه يُعطى الفرصة لعله يتراجع قبل القدرة عليه. وأما من أنكر وثبت عليه بالبيِّنة؛ فإنه يكون بين يدي الحاكم، وإذا بلغ الحاكم لم تجُز فيه الشفاعة.

بالإضافة أيضاً إلى قول بعض الفقهاء بأن القصاص لا يسقط بالتوبة، بل عليه إذا تاب أن يسلم نفسه لأولياء القتيل، فإما أن يقتصُّوا منه، وإما أن يعفوا عنه سواء بديةٍ أو بدون.

بين العدل والمساواة

على الرغم من أن المساواة ركن من أركان العدالة القضائية والقانونية والسياسية، وجزء من حقيقتها، وأن القرآن سوّى بين الشريف والضعيف في الأحكام القضائية، واعتبر القضاء الذي يكيل بمكيالين حُكماً جاهلياً؛ إلا أنه ليس من الضروري أن المساواة تعني العدل ـ خصوصاً بمفهومها الغربي الحديث ـ؛ فإن من المساواة ما يكون عدلاً، ومنها ما قد يكون ظلماً. وقد أوضح القرآن وجود فوارق بين بعض الناس، وكان من تمام العدل مراعاة تلك الفوارق، كالفرق بين الفقراء والأغنياء. قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢]، فاستوجب العدل هنا إسقاط بعض الفروض عن الفقراء كالزكاة والحج؛ لأن المساواة بينهما في تلك الحالة ضرب من الظلم.

وكذلك الفوارق الفسيولوجية والنفسية بين الذكور والإناث، مثلما قالت أم مريم عليها السلام: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ فأسقطت الشريعة الإسلامية عن المرأة الإنفاق والجهاد وأوجبت عليها الحجاب، وألزمت الرجل بالكدح وشؤون القتال، وسنتطرَّق إلى ذلك بشيء من التفصيل في فصل لاحق.

إن القرآن يرسِّخ بين البشر قواعد العدل، ويسمو بالإنسانية إلى مصاف الحق، نابذاً الظلم الداعي للبغضاء والقهر، وناشراً المحبة بين الناس؛ فشريعة القرآن تحفظ للناس حقوقهم وأمنهم، وتفتح لهم باباً إلى السعادة لا ينقضي.

❋❋❋

الفصل العاشر

القرآن والعقل

لم تَرِد كلمة العقل هكذا بصيغتها الاسمية في القرآن الكريم، وإنما وردت مشتقاتها الفعلية مثل: (تعقلون)، (عقلوه)، (نعقل). ووردت كذلك كلمات تحمل معانيَ مشابهة، مثل: (يتفكرون)، (يفقهون)، (يذّكرون).

وقد عُبِّر عن العقل في كتاب الله بألفاظ عربية متنوعة، أمثال: (النُّهى)، (الحجر)، (الألباب)، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، والنُّهى جمع نُهيَة؛ وسُمِّي العقل بذلك لأنه ينهى صاحبه عن اقتراف القبائح[١]، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]، وسُمِّي حِجراً لأنه يحجر ـ أي: يمنع ـ صاحبه عن الوقوع في المعصية والجهل[٢].

وأما الألباب فهي جمع لُب، واللب هو: العقل الخالص من الشوائب؛ وسُمِّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه كاللباب واللبِّ من الشيء. وقيل: هو ما زكى من العقل، فكلُّ لبٍّ عقل وليس كل عقل لبّاً[٣].

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أبو العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بـ «السمين الحلبي» (المتوفى: ٧٥٦هـ)، (٤/ ٢٢٦)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٤.

(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٧٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ «الراغب الأصفهاني» (المتوفى: ٥٠٢هـ)، ص: ٧٣٣، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

مظاهر الاحتفاء القرآني بالعقل

ويؤكِّد تنوُّع مصادر كلمة العقل ومشتقاتها في القرآن الكريم، وتكرارها في مواضع عدة من آياته على مدى احتفاء القرآن بالعقل وتكريمه، والحث على إعماله من أجل الوصول للحق.

زمن مظاهر هذا الاحتفاء القرآني:

١ ـ مناط التكليف:

كرّم الله تعالى بني آدم، وميّزهم عن سائر مخلوقاته بالعقل والتفكير ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. وجعل سبحانه العقل مناطاً للتكليف ووسيلة للاهتداء واتباع الحق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤][(١)]. وسبب كون العقل مناطاً للتكليف أنه المانع الناهي للإنسان عن الزلل، ولذلك فإنه رُفِع القلم عن المجنون والنائم والصغير كما ورد بذلك في الحديث الشريف الذي رواه النسائي[(٢)].

«وقد خُلقت الملائكة عقلاً بلا شهوة، فهم يعبدون الله دائماً وأبداً ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وخُلقت الأنعام شهوة بلا عقل، مُذلَّلة لبني آدم ينتفعون بها ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ

(١) وكذلك الآيات في سورتي [النحل: ١٢] و[الروم: ٢٨].

(٢) قال ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبَرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يَفِيقَ» [النسائي: ٣٤٣٢].

أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥ ـ ٨]، وخُلق بنو آدم عقلاً وشهوة، وهذا المزيج يتضح من العلة الغائية لخلق الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن أجل ذلك قامت السماوات والأرض، والجنة والنار؛ فالإنسان كُرِّم بالعقل، وعُرِضَ عليه طريقا الخير والشر، وعليه أن يختار، فإمَّا أن يغلب عقلُه، أو تغلبه شهوته، ولذلك أرسل الله إليه الرسل، وأنزل معهم الكتب؛ ليبيِّن له سبيل الهداية، وتقوم عليه الحجة ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. فمن قدَّم عقلَه على شهوته، ملك نفسه وإرادته، ومن قدَّم شهوته على عقله، سُلِب حريتُه وصار عبداً لها»[1].

٢ ـ ضرورة من الضرورات الخمس:

من أهم مقاصد شريعة الإسلام الحفاظ على العقل؛ إذ هو ضرورة من الضرورات الخمس (الدين، النفس، العقل، النسل، المال)؛ ولهذا فقد حرّم الإسلام كل ما من شأنه تغييب العقل من مسكرات ومخدِّرات وما في حكمهما. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فغياب العقل هو أساس كل الشرور، وأغلب الجرائم تُرتكب تحت تأثير الخمر والمخدِّرات كما هو مُشَاهَد، فإن الشخص إذا تناولها غُطِّي عقلُه، فما الذي سيردعه حينئذ من أن يقتل أو يسرق أو يزني أو يأتي الموبقات والفواحش جميعاً؟! وما الفرق وقتئذٍ بينه وبين البهائم؟ بل إن البهائم ستكون أفضل منه

(١) واصبًا، هند الورداني، ص: ١٧١.

حالاً. فكان في تحريم القرآن للمسكرات حفظاً لضرورة إنسانية جليلة، وإبقاءً للكرامة البشرية.

٣ ـ العيب على مَن أطفؤوا نور عقولهم:

أتى القرآن الكريم ليحرر العقل البشري من ربقة الأهواء والأوهام والشهوات والتقليد الأعمى، وكل ما من شأنه أن يستعبد العقول ويعطِّلها عن أداء وظيفتها. فما الفائدة من أن يمتلك المرء عقلاً لا يعمل به ولا يهديه إلى الحق؟! إنما مثله كمثل شخصٍ في طريق مظلم وأمامه شمعة يحملها دون أن يشعلها، فلا هو انتفع بالشمعة! ولا هو اهتدى للطريق! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ولن ينفع الندم بعد فوات الأوان ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ ـ ١١].

وقد عاب الله تعالى في كتابه على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم؛ إذ أطفؤوا نور عقولهم وعبدوا حجارة صمّاء، لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لأنفسها شيئاً، فضلاً عن أنها لا تملك لغيرها. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وحذَّر القرآن كذلك من اتباع الأهواء، فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى

﴿ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. والهوى هو ميل النفس إلى الشيء ومحبتها إياه، وقد غلب على الميل المذموم.

وقيل: الهوى هو ميل النفس إلى الشهوة. وقيل: سُمِّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية[1]، وهو سبب الفساد وانتشار الظلم والفحشاء، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وكل مَن اتَّبع هواه فقد عطّل عقله واستعبد نفسه، فواعجباً ممن ذاك أمره! يُعرَض عليه الحق فيرفضه وكأنما خُتِمَ على عقله وجوارحه! ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ونعَى القرآن على العقول اتباع الأوهام، ومنها أن المشركين كانوا يعظِّمون الجنَّ ويخافونهم، لدرجة أن بعضهم قد عبدوا الجن خوفاً ورهباً: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وما علم هؤلاء أن الجن مخلوق من مخلوقات الله، لا يعلمون الغيب ولا يملكون النفع والضر. قال الباري ﷻ: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، وقد أقر الجن أنفسهم أنهم عبيد لله فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

---

(١) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي (٤/ ٢٦٧).

فأتى القرآن ليزيل الوهم، ويكشف البأس، ويضيء العقل، ويطالب المخالفين بالدليل، ويعيب على من أطفأ نور عقله عن الهدى واليقين ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، والحمد لله رب العالمين.

٤ ـ الحثُّ على التفكُّر والتأمُّل في آيات الله الكونية:

إن في النظر في آيات الله الكونية اهتداءً لصانعها، واطمئناناً لخالقها، وازدياداً في إيمان المؤمنين، وحجةً على الملحدين. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨]، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ومن رحمة الله بعباده أن هذا النظر لا يحتاج إلى كلفة أو شدِّ رِحال، بل هو مُشاهَد لجميع طبقات الناس في حيواتهم اليومية على تفاوت مداركهم وعقولهم.

٥ ـ الانتفاع بالقصص والمواعظ:

ساق القرآن الكريم في كثير من سوره قصصاً للأنبياء والأمم السابقة، وبيَّن أن الغرض منها ليس التسلية وإنما العبرة والموعظة، وأن الانتفاع بتلك العبر والمواعظ إنما يكون لأصحاب العقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]. «فأخبر جل ثناؤه أن المواعظ غير نافعة إلا أولي الحِجا والحُلُوم، وأن الذكرى غير ناهية إلا أهل النُّهى والعقول»[1]:

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبوجعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، (٥/ ٥٨٠)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٤.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٦ ـ الحثُّ على النظر في الأدلَّة الشرعية واستنباط الأحكام:

تنوَّعت أدلَّة القرآن الكريم ما بين شرعية وكونية، وخبرية وعقلية، وأمرٍ ونهي، وقصص وأمثال، فكان الحث على النظر والاستدلال. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. ومن أحد أهم مقاصد القرآن الكريم التدبرُ طلباً للهداية وقصداً للحق ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أي: «كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات والبركات، وجعلناه كذلك ليتدبروا آياته ويتفكروا فيما اشتملت عليه من أحكام حكيمة، وآداب قويمة، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم..»[(١)].

الأدلة العقلية في القرآن الكريم

على عكس ما ادَّعى المشكِّكون من أن القرآن الكريم يخلو من الأدلة العقلية، ولا يحمل سوى دلائل سمعية لا تقبلها الأفهام؛ فإنه ـ القرآن الكريم ـ يمتلئ بالأدلة العقلية التي تخاطب عقول البشر[(٢)]، وادِّعاؤهم هذا وإن دلّ على شيء؛ فهو يدلُّ على عدم معرفة بخصائص هذا الكتاب المقدَّس، بل أشكُّ أن أحداً

(١) انظر: التفسير الوسيط للطنطاوي، (١٢/ /١٥٦).

(٢) الدليل السمعي أو الدليل النقلي: هو الدليل الذي يأتي عن طريق الخبر، وهو دليل معتبر، ومثاله في حياتنا اليومية: أن يخبرك أحدهم أن فلاناً نجح أو أن فلاناً توفاه الله، ومثاله في الشرع: الإخبار بالسمعيات كالجنة والنار والصراط.
وأما الدليل العقلي: فهو الذي يوصِل إلى المطلوب بالبداهة المنطقية والمقدمات العقلية كالقياس وغيره.

من هؤلاء المدَّعين قد قرأه بالفعل! وإلا فإنه لن يتبقَّى مبررٌ لهذا الزعم سوى أن الإنكار لهم طبعٌ!

وقد تنوعت الأدلة العقلية في القرآن الكريم، ما بين أدلَّة عقلية على وجود اللهﷻ، وأدلة على صدق النبوَّة، ومناظرات ترويها لنا آيات القرآن الكريم، ودلائل عقلية على اليوم الآخر والبعث.

أولاً: الأدلة القرآنية العقلية على وجود اللّه ﷻ

١ ـ دليل الفطرة:

إن فطرة الإنسان السويَّة تميل إلى الإله الواحد الحق، والحاجة إلى الإله الخالق المتمتِّع بصفات الكمال ليست فراغاً عاطفيّاً كما ادَّعى بعض الفلاسفة، أو موروثاً فكريّاً تتوارثه الأجيال، وإنما هي فطرة مركوزة في نفوس البشر، وسجيَّة لكل صاحب فطرة سليمة، يوقن بأنه عبدٌ لله الواحد القهار، بل ويفتخر بذلك؛ يلجأ إليه حال ضعفه، ويشكره حال قوَّته، ويؤمن بيوم يكون فيه لقاؤه.

والفطر الإنسانية قد تعلوها بعض الشوائب التي تعكر صفو نقائها، وذلك لعوامل خارجية مجتمعية كانت أو تربوية أو نفسية، وهؤلاء قد يحتاجون لمزيد بحث واستدلال لتزكية فطرتهم من أجل الوصول لطريق الحق، ولا أفضل دليلٍ من القرآن الكريم ليدلَّهم عليه ـ كما سنشير في عرضنا للمزيد من الأدلة القرآنية العقلية تِباعاً ـ، كزهرةٍ عَلا أوراقَها أتربةُ الهواء حتى أتت قطرات الندى فغسلتها وعادت كما كانت مع بزوغ الفجر ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠].

والعجيب في أمر الفطرة أنك قد تجد الفطرة السليمة لدى أفقر الناس ولا تجدها لدى أغناهم، وقد تجدها لدى أُميّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا تجدها لدى من يحمل أعلى الشهادات. كان أستاذ النحو في الأزهر الشريف دائماً ما يقول لنا: «معظم أساتذة وعلماء الأزهر الشريف من ريف مصر، وأنا شخصياً والدتي كانت لا تجيد القراءة والكتابة، ولكنها كانت صاحبة فطرة نقية، وهكذا حال معظم آبائنا وأمهاتنا في قرى مصر، على الرغم من قلة علمهم إلا أنهم نجحوا في تربية أبنائهم على الأخلاق وحُسن العمل؛ وذلك لأنهم كانوا أصحاب فطر سليمة»[1].

وعلى الرغم من تلك الشوائب التي قد تعلو بعض الفطر الإنسانية إلا أن الشدائد قادرة على إيقاظها من سُباتها في النفوس البشرية مثلما أخبرنا القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ [لقمان: ٣٢]، ويقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢ ـ ٢٣].

---

(١) أنا هنا لا أدافع عن الأمية أو ترك تعليم المرأة، وإنما أدافع عن الفطرة السليمة التي قد يمتلكها فلاح بسيط، ويفتقر إليها أستاذ أكاديمي يحمل أعلى الشهادات من أفخر الجامعات، وسبحان الله! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

إذن في لجوء الإنسان حالَ شدته إلى الله اعترافٌ بوجوده ودليل على تلك الفطرة المركوزة في نفسه، والأمر كما قال المثل الإنجليزي: «لا يوجد ملحدون في الخنادق».

وقد نعى الأنبياء على أقوامهم فساد فطرتهم بجحدهم وجود الله ﷻ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فنجد دليل الفطرة في سؤالهم الإنكاري ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ ثم دليل الخلق في قولهم ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو محل حديثنا في النقطة القادمة بمشيئة الله.

٢ ـ دليل الخلق:

من البدهيات العقلية التي يدركها البشر جميعهم أن كل مصنوع لا بدّ له من صانع، وكل مخلوق لا بدّ له من خالق، وكل حادث لا بدّ له من مُحدِث، وقد دعا القرآن الكريم الناس إلى تأمل المخلوقات والنظر في آيات الله الكونية للاعتبار والاهتداء إلى الخالق ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]. أي: إن في إيجاد السماوات والأرض على هذا النحو البديع، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وبحار وزروع وأشجار، وفي إيجاد الليل والنهار على تلك الحالة المتعاقبة، وفي اختلافهما طولاً وقصراً، وفي كل ذلك لأماراتٍ واضحةً، وأدلة ساطعة لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، وباهر حكمته.

والمراد بأولي الألباب: أصحاب العقول السليمة، والأفكار المستقيمة؛ لأن لبَّ الشيء هو خلاصته وصفوته. ولقد قال الزمخشري في صفة أولي الألباب:

«هم الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم؛ غافلين عما فيها من عجائب الفطرة. وفي الحكَم: املأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجِلْها في جملة هذه العجائب متفكِّراً في قدرة مُقدِّرها، متدبِّراً في حكمة مُدبِّرها قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر»[1].

وقد قالت بعض العرب: «البعرة تدلُّ على البعير، والسير يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فِجاج، أفلا تدلُّ على العليم الخبير؟!»

وقال الشاعر العربي:

فَيا عَجَباً كَيفَ يُعصَى الإلَــه
أَم كَيــفَ يَجْحَـدُهُ الجاحِدُ؟!
ولله فِي كـــــلِّ تَحْـريـكَـةٍ
وَتَسْكِينَةٍ أَبَـــداً شـــاهِـدُ
وَفِي كـــــلِّ شيءٍ لَــه آيَةٌ
تَـــدلُّ على أَنَّـــهُ الواحِـدُ

فإنْ عجز الإنسان عن النظر إلى خلق الله وعظمته، فلينظرْ إلى نفسه ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، كيف أن عينه أدق من أعلى دقةٍ كاميرا رقمية، وأذنه تلتقط مختلف الأصوات، وقلبه يعمل كالمضخة، ويتنفس دونما جهد، وتهضم معدته الطعام ثم يُمتَص لينتفع به سائر جسده، وكيف تنقي كليته الدم، ويفرز كبده الإنزيمات، وكيف يستشعر جلده البرد والحر، ويتكون جسمه من ملايين الخلايا، في نظامٍ دقيق يدلُّ على عظمة الخالق القدير.

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٣/ ٣٧٠).

ثم يتدرج القرآن مع هؤلاء المنكرين، ويخاطبهم خطاباً عقليّاً، مُفنِّداً شبهاتهم بأدلة منطقية، ويُسائلُهم باستنكار: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٦]. أي: فهل خُلِقتم من غير خالق؟! إن هذا لا يستقيم، إذ هو إنكار لضرورة عقلية، فإنك لو نظرت للوحة فنية جميلة لسألتَ من الذي رسمها، فكل مصنوع لا بدّ له من صانع، وكل حادث لا بدّ له من مُحدث.

ثم يتطرَّق لإنكار الاحتمال الثاني: فهل خلقوا أنفسهم؟ بالطبع لا، وحتى فرعون المتجبِّر لم يستطع ادِّعاء ذلك. إذن، فهل خلقوا السماوات والأرض؟ لا، إن شيئاً من ذلك كله لم يحدث، بل هم يعترفون بأنفسهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]. وهكذا بالتدرج المنطقي يصل القرآن إلى النتيجة الوحيدة الصحيحة أن الفاعل الحقيقي والخالق العظيم هو الله رب العالمين.

وكذلك تطرح سورة الواقعة الأسئلة نفسها لتصل إلى الإجابة المنطقية؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٧٤]. فهل هم الذين خلَّقوا نطفهم من

علقة إلى مضغة إلى عظام ولحم؟ أم هل يقدرون على دفع الموت عن أنفسهم إذا حان أجلهم؟! أم هم الذين أنشؤوا الزرع فجعلوا من النبت والبذر شجراً مورقاً؟ هل يستطيعون الذود عنه إذا ذرَته الرياح أو أحرقته الحرارة ـ كحرائق الغابات ـ أو أتت عليه الجراد والديدان؟! بل ذلك الماء الذي يشربونه، هل هم الذين أنزلوه من السحاب؟ أتراه لو كان مالحاً أجاجاً يحتملون شربه؟ وتلك النار التي يوقدونها من أجل منافعهم ومعاشهم، أهم الذين خلقوا شجرها؟ فكانت لهم القدرة على خلق النار من ضدها؟

كلا والله، إن ذلك لم يحدث، ولا يستطيع أحد المكابرة وادِّعاء ذلك لنفسه؛ لكونها مغالطة مفضوحة، ولم يستطع أحد في زمن من الأزمان أن ينسب ذلك لنفسه، فلا يملك صاحب العقل السليم حينئذ إلا التسليم ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

٣ ـ دليل العناية والتسخير:

ادَّعى أصحاب المذهب الربوبي أن الله ﷻ قد خلق الكون حقّاً لكنه تركه بعد ذلك هملاً، فليس له أي يدٍ أو تدخُّل إلهيٍّ في النواميس والأحداث الجارية، وهذا مذهبٌ إلحادي جديد يدلُّ على سوء ظنٍّ بالله ﷻ، والله سبحانه كما له الخلق فله التدبير ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

والقرآن الكريم يردُّ على تلك المغالطات، ويبيِّن مدى عناية الله ﷻ بخلقه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، فالله سبحانه خلق لعباده الشمس والقمر؛ ليكون النهار للسَّعي والعمل، والليل للراحة والسكن ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١]،

وجعل في اختلافهما وتعاقبهما معرفة الأزمان والسنين والحساب، «فبالشمس تُعرَف الأيام، وبسير القمر تُعرَف الشهور والأعوام»[١].

ومن أعظم أدلَّة العناية التسخير، فقد سخَّر ﷻ لخلقه الكون وما فيه لتحصيل منافعهم ومعاشهم. يقول الباري ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: ١٥]، ودعا ﷻ الناس إلى التَّأمُّل في جميل نعمه وكمال حكمته وعظيم قدرته بتسخير ما في السماوات والأرض للإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، وفي ذلك آيات واضحات لكلِّ ذي لبٍّ سليم غرضه الوصول للحق واليقين، فمن جادل بعد ذلك فقد استولى عليه الجهل والعناد، فأنت ترى أن الآية الكريمة المذكورة في سورة لقمان، قد جردت هذا المجادل من أي مستند يستند إليه في جداله، سواء أكان هذا المستند عقليّاً أم نقليّاً، بل أثبتت له الجهالة من كل الجهات، فلا هو استند إلى علم، ولا إلى هدى يهديه ويرشده إلى الحق، ولا إلى كتابٍ مُنيرٍ يضيء عقله وقلبه بالوحي، ويوضح له سبيل الرشاد[٢].

ولا شيء أدلَّ على مظاهر الرعاية الربانية في القرآن الكريم من «سورة النِّعَم»، المعروفة في المصحف الشريف باسم سورة النحل، التي عددت ونوّعت مظاهر نعم الله ومنَّته على عباده. يقول الكريم تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٤/ ٢٤٨)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (١١/ ١٢٥).

ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٥ ـ ١٨].

إِلَهي هُوَ الخالِقُ الواحِدُ
جَبينُ الوجُودِ لَه ساجِدُ
نَهاري عَلى سَعيِهِ شاهِدٌ
وَلَيلي عَلى طُولِهِ عَابِدُ
فَلا أَنا في قَدرةٍ مُنْكِرٌ
ولا أَنا في نِعمةٍ جاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ أَرَى آيَةً
تَدلُّ عَلى أَنَّه الواحِدُ

فيا أيها الناس، مهما حاولتم حصر نِعَم الله لن تحصوها؛ فإنها مما لا ينحصر ولا ينعدّ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها، واللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ من أعمالكم، فمن يقدر على المعاندة بعد ذلك؟!(١)

٤ ـ دليل الإحكام والإتقان:

إن هذا الكون قد خُلِقَ بموازينَ دقيقة، ويتضح هذا لكلِّ ذي عين بصيرة وعقل صريح، وهو أيضاً ما أثبته العلم الحديث، فلو حدث أدنى خلل لتلك الموازين الكونية لضاعت الأرض بمَن عليها، فمثلاً الأوكسجين يمثِّل نسبة (٢١٪) من الغلاف الجوي، ولك أن تتخيل أنه لو زادت تلك النسبة لاحترق كوكب الأرض؛ لأن الأوكسجين يساعد على الاشتعال.

وأما بالنسبة لموضع كوكبنا من الشمس؛ فإن الشمس تبعد عن الأرض حوالي (١٥٠) مليون كيلومتر، فكيف سيكون الحال إذا اقتربت الشمس من الأرض ربع تلك المسافة مثلاً؟ أو إذا تبدَّل موقع كوكب الأرض بكوكب الزهرة في المجموعة الشمسية واتخذ خصائصه؟! إن درجات الحرارة في الزهرة قد ترتفع لأكثر من (٤٧٠) درجة مئوية، بشكل يقضي على كافة مظاهر الحياة! فهل تظنُّ أن تلك المقادير الدقيقة قد خُلِقت عبثاً أو صدفة؟!

إنك لو رأيت هاتفاً محمولاً عالي التقنية جيد الصنع لمدحت ذكاء صانعه، ولو أنك مررت بأرض فلاة فوجدت فيها قصراً جميل المنظر فخم البناء لتساءلت من صانعه، أم هل تظنُّ أن نافذة القصر قد وُضِعَت في الأعلى بنفسها؟ أو أنها جُعِلت

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، (٢/ ٦٠٠).

على تلك المسافة الدقيقة من سطح القصر صدفة؟! وإذا كان الأمر صدفة عبثية فعلاً؛ فلماذا جُعِلَت الأبواب كلها في الأسفل والنوافذ كلها في الأعلى ولم يكن العكس مثلاً؟!

لكن الحقيقة ـ التي يهرب منها الملحدون ـ أن ذلك القصر الشامخ يدلُّ على ذكاء صانعه، كما يدلُّ هذا الكون الفسيح على إتقان الصانع ووحدانية الخالق جل وعلا، الذي يدبِّر أمر هذا الكون، «ولو تولاه آلهة شتى غير الواحد لفسدت السماوات والأرض، ولانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدّ به، ولرأيتم ملْكَ كل واحد منهم متميزاً عن ملك الآخرين، ولغلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا، ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إلهٌ واحد بيده ملكوت كل شيء»[1] ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢].

والقرآن الكريم يدعو أصحاب العقول السليمة إلى النظر في إحكام الخلق وصنعة الكون، ويتحدى كلَّ معاند أن يجد في بديع صنع الله خللاً أو عيباً ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المُلك: ٣ ـ ٤]. فهو ـ سبحانه ـ الذي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، مع تناسقها، وإتقان تكوينها، وإحكام صنعها، بحيث لا ترى ـ أيها العاقل ـ في الخلق شيئاً من الاختلاف، أو الاضطراب، أو عدم التناسب.. بل كله محكم، جارٍ على مقتضى نهاية النظام والإبداع.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري، (٣/ ٢٠٠).

ثم ساق ﷻ بأسلوب فيه ما فيه من التحدي؛ ما يدلُّ على أن خلقه خال من التفاوت والخلل فقال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾[1] أي: إنَّكَ لَوْ كَرَّرْتَ الْبَصَرَ أيها الناظر مَهْمَا كَرَّرْتَ، لَرَجَعَ إِلَيْكَ الْبَصَرُ «خَاسِئاً» عَنْ أَنْ يَرَى عَيْباً أَوْ خَلَلاً، وَهُوَ كَلِيلٌ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ الْإِعْيَاءِ مِنْ كَثْرَةِ التَّكَرُّرِ، ولا يَرَى نَقْصاً.

ولَمَّا نفَى عن السماء في خَلْقِها النَّقصَ بيَّن كمالها وزينتها فقال: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[2]. إنه لا يسعك إلا التقرير بإبداع الصانع وعظمة الخالق ﷻ: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨].

ثم ترى في سياق حديث القرآن الكريم عن بديع خلق الإنسان أن الله تعالى خلقه في أحسن صورة وأجمل هيئة، فجعله معتدل القامة، دقيق التركيب، ومنحه البيان الفصيح، والعقل الصريح، والعلم الواسع، والإرادة والقدرة على تحقيق ما يبتغيه في هذه الحياة بإذن الله ومشيئته؛ ولذلك أتى القسَم في سورة التين للتأكيد على إحكام خلق الإنسان وعظمة الإتقان، ودعوةً للعقل السليم إلى التسليم والتصديق: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ١ ـ ٤]، ثم خُتمت السورة باستفهامين، الأول: للإنكار، والثاني: للتقرير ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أي: فأي شيء يحملك ـ أيها الإنسان ـ على التكذيب بالدين وبالبعث وبالجزاء، بعد أن خلقناك في أحسن تقويم، وبعد أن أقمنا لك الأدلة على صدق الإسلام وصدق رسوله ﷺ؟! ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؟ بلى يا رب أنت أحكم الحاكمين، وأنا على ذلك من الشاهدين.

---

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (١٥/ ١١).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٨/ ١٧٧).

إن الذي فعل ذلك كله هو أحكم الحاكمين خلقاً وإيجاداً، وصنعاً وتدبيراً، وقضاءً وتقديراً، فيجب على كل عاقل أن يخْلص له العبادة والطاعة، وأن يتبع رسوله ﷺ[١].

ثانياً: الأدلة القرآنية العقلية على النبوَّة

أ ـ من جنسكم:

تعاهد المعاندون من قديم الأزل اعتراضاً عجيباً ضد النبوَّة، فقد أنكروا نبوة الأنبياء على مر العصور لكونهم من البشر، وأعلنوا صراحةً أنهم يبغون أنبياء من الملائكة حتى يؤمنوا ويصدِّقوا! والحق أن طلبهم هذا ينم عن حسد وخفَّة عقل، وهو حجة عليهم لا لهم!

وقد ردَّ القرآن على هذا الاعتراض ردّاً عقليّاً يقيم الحجة على المعاندين من خلال ثلاثة أوجه منطقية، وهي:

١ ـ تفنيد دوافع الاعتراض من خلال عرض حقيقة النبوَّة.

٢ ـ بيان الحكمة من إرسال رسل من البشر.

٣ ـ بيان نتائج هذا الاعتراض من خلال التنازل مع الخصم وموافقته على مقدِّمته الفاسدة.

١ - تفنيد دوافع الاعتراض من خلال بيان حقيقة النبوَّة:

الله ﷻ يصطفي رسلاً ممن يشاء من عباده؛ فالنبوة محض اصطفاء، وليست وظيفة يتم فتح باب الترشح لها أو مهارة يكتسبها المرء بماله وجاهه أو تطوير ذاته، وذلك الاصطفاء مقتضى كمال علم الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فهو

(١) انظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (١٥/ ٤٤٩).

أعلم ـ سبحانه ـ بالأصلح للقيام بتلك المهمة العليَّة، فيضعها فيمن يشاء من عباده ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، لكن المكابرين والمعاندين أبَوا إلا العناد، فقد أكل الحسد قلوبهم، واستكثروا تلك النعمة على أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، فأسرعوا في كيل الاتهامات والاعتراضات ضد المرسلين، فتارةً يقولون: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣١]، وتارة يقولون: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وتارة يتعجبون ـ حيث لا محل للعجب ـ: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، وتارةً يطالبون برسول من الملائكة قائلين: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٧].

ومن خلال تضارب أقوالهم المختلفة يتبيَّن لنا أن الدافع الحقيقي وراء هذا الاعتراض هو الحسد والقدح في حكمة الله في اصطفائه لأنبيائه. لكن رسل الله تبنَّوا ردّاً واضحاً وصريحاً على كل تلك الأقوال: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١ ـ ١٢].

٢- بيان الحكمة من إرسال رسلٍ من البشر:

إن من رحمة الله تعالى بعباده أن أرسل إليهم رسلاً من جنسهم، يعلمون أخلاقهم ومكانتهم، ويفهمون عنهم ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

■ **رحمةً ولطفاً:**

وقد أنكر القرآن الكريم على المشركين طلبهم رسلاً من الملائكة، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥]، أي: «قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الجاهلين: لو ثبت ووجد ملائكة في الأرض، يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس، ويعيشون فوقها مُطْمَئِنِّينَ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من السماء ملكاً رسولاً، يكون من جنسهم، ويتكلم بلسانهم، وبذلك يتمكَّنون من مخاطبته، ومن الأخذ عنه، ومن التفاهم معه؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل، والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان المرسل إليهم ملائكة، لكان الرسول إليهم ملكاً مثلهم، ولو كان المرسل إليهم من البشر، لكان الرسول إليهم بشراً مثلهم»[1].

فمن رحمة الله تعالى بخلقه أن أرسل لكل صنفٍ من الخلائق رسلاً منهم؛ ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكِّن بعضهم من أن ينتفع ببعض من خلال السؤال والمخاطبة. وقد سبق لطف الله تعالى بعباده؛ إذ إنهم لا يطيقون النظر إلى الملائكة المخلوقة من نور، ولو رأوها لصعقوا من عظم خلقها.

■ **تسهيل الاقتداء والاتِّباع:**

ومن الحِكَم الربانية في إرسال رسل من البشر أن يسهل على الناس اتباعهم والاقتداء بهم، «فمقتضى البشرية التي يتصف بها الرسل مؤهلة لتبليغ الرسالة،

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٨/ ٤٣٣).

فالرسل يتصفون بكل صفات البشر، ويحتاجون لكل اللوازم الإنسانية من مأكل ومشرب وغيرها، ويعترضهم ما يعترض البشر من عللٍ وعوارضَ وابتلاءات، واشتغال بالأعمال، وليس لهم شيء من خصائص الألوهية، ولا شيء من نسبتهم إلى الملائكية؛ لأن كونهم بشراً أقدر وأيسر على اتباع القوم لهم، وحتى لا يلتبس الأمر على الناس»[(١)]. ولو أتاهم رسول من الملائكة وكلفهم باتباعه في أفعاله لأعلنوا عصيانهم؛ لعجزهم عن الإتيان بإمكانات الملائكة، ولقالوا: «هَذَا فِعْلُكَ فَعَلْتَهُ بِاخْتِيَارِكَ وَقُدْرَتِكَ، وَلَوْ حَصَلَ لَنَا مِثْلُ ما حَصَلَ لَكَ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْعِلْمِ لَفَعَلْنَا مِثْلَ ما فَعَلْتَهُ أَنْتَ»[(٢)]، فكان التكذيب من نصيبهم!

وفي استنكار الكافرين بشرية الرسل دليلٌ على أنهم لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله تعالى، وذلك بسبب انطماس بصائرهم، وكثرة جهلهم، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة، وجهلهم بالمؤهلات التي منحها الله تعالى للإنسان ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][(٣)].

٣ ـ بيان نتائج هذا الاعتراض من خلال التنازل مع الخصم وموافقته على مقدِّمته الفاسدة:

من خلال استقراء آيات القرآن الكريم نرى تنوُّع الاستدلالات العقلية التي تم استخدامها في النقاش مع الخصوم، فقد راعى القرآن التدرج في المجادلة،

(١) منهج القرآن الكريم في دحض شبهات الملحدين، أفنان بنت حمد بن محمد الغمّاس، ص: ١٢٩، مركز دلائل، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، (١٢/ ٤٨٧).

(٣) انظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٨/ ٤٣٣). ومنهج القرآن الكريم في دحض شبهات الملحدين، ص: ١٢٨.

حتى وصل إلى التنازل مع الخصم وإظهار الموافقة على اعتراضاته لبيان فساد نتائجها، ومن ثَمَّ فساد مقدِّمات الادِّعاء وإفحام الخصم.

ومن هنا قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨ ـ ٩]. فبيّن ﷺ أنه لو استجاب لطلب هؤلاء المعاندين بإرسال رسول من الملائكة إليهم لوقعت إحدى نتيجتين:

الأولى: أنهم ربما لم يؤمنوا بعد بإنزال المَلَك وأعلنوا العصيان، وحينها لا بدّ من استئصالهم بالعذاب، مثلما طلب من قبلهم من الأقوام ـ كعاد وثمود وغيرهم ـ الآيات المعجزات فكفروا بها، وهي نتيجة متوقعة، فقد طُلِب منهم الإيمان بما هو أيسر من ذلك فأبَوا الإيمان بنبوة بشر من الرسل، فكيف سيؤمنون بما هو أكبر وهو جنس الملائكة؟! وقد مضت سنة الله في الأمم المعاندة أن يغشاهم العذاب بالهلاك بعد جحودهم الآيات الباهرات التي اقترحوها؛ لكن الله سبحانه لم يحقق لهم مرادهم بإنزال رسول من الملائكة لإمهالهم عسى أن يتوبوا؛ رحمةً بهم وإكراماً لنبيهم ﷺ وترفُّعاً عن عناد أولئك المستكبرين.

وأما النتيجة الثانية: فإنه لو أُنزِل مَلَكاً لأتاهم على هيئة رجل ليتمكَّنوا من رؤيته والأخذ عنه، وذلك مقتضى الحكمة الإلهية، «وفي هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم في صورة بشر: لست ملَكاً؛ لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثَّل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً»[1].

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٥/ ٤٣).

وقد ورد في السنة النبوية أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ والصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ في هيئة البشر ليعلِّمهم أمور دينهم، مثلما ورد في حديث الإسلام والإيمان والإحسان الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وأحياناً أخرى كان يتمثل عليه السلام في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه .

وقد أتى الملائكة الكرام الأنبياء عليهم السلام في صورة البشر، كضيوف أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، والخصم الذين تسوَّروا المحراب على نبي الله داود عليه السلام، وكما تمثَّل روح القدس جبريل عليه السلام بشراً للسيدة مريم العذراء في بشارتها بنبيِّ الله عيسى عليه السلام.

وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن الكريم قد دحض شبهات أولئك الجاحدين، وبيَّن أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩](١).

ب ـ المحاجَّة العقلية دأب الأنبياء

إنما أتى القرآن ليجادل الباطل بالحجة والبرهان، يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وذلك سبيل الأنبياء ودأب الصالحين؛ الدفاع عن الحق بسلطان ودليل ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٥/ ٤٣).

فيجادل أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الباطل ويدفعه، ويرشد أباه وقومه إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرِّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئاً من تلك الأصنام والشمس والقمر والكواكب التي يعبدونها لا يصح أن يكون إلهاً؛ لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدِثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبِّراً دبَّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها[1]. قال الباري عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩].

واستخدامه عليه السلام (الأفول) في محاجَّة قومه لتنبيههم إلى خطئهم في دينهم؛ لأن الآلهة ما ينبغي لها أن تغيب عن عابديها وتتركهم، ولا أن ينسب لها النقص، ومن نُسِبَ له النقص كحال آلهتهم تلك؛ فإنه لا يستحق العبادة بحالٍ من الأحوال، بل المستحق للعبادة هو الإله الواحد الخالق، فاطر السماوات والأرض على غير مثال سابق، المنسوب إليه كل كمال، ولا يعتريه النقص أو النسيان ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٤٠).

كما يدلُّ قوله عليه السلام (هذا ربي) عن الشمس والقمر والكواكب إلى استخدامه أسلوب التماشي مع الخصم وإظهاره القبول بمقدمته لبيان فساد النتائج، ومن ثَمَّ إفحامه، فكانت تلك الحجج الدامغة مما منّ الله على النبي إبراهيم، وسبحان الله العليم وتعالى عما يشركون ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

▪مناظرات يرويها القرآن:

يروي لنا القرآن مجموعة من المناظرات التي وقعت بين الأنبياء والجبابرة المعاندين من أقوامهم، وكيف يدور السِّجال ويُبسَط الدليل، وكيف أن الحق دائماً صاحب الحجة البالغة والبرهان المنير، وأن الباطل لا يستند إلا على التلبيس والعناد والترهيب.

موسى عليه السلام وفرعون:

واجه موسى عليه السلام واحداً من أعتى الجبابرة على مر العصور، وهو فرعون مِصْرَ الطاغيةُ مدَّعي الألوهية، وقد وقعت بينهما مناظرات وتحديات وردت في قصص القرآن، حاول من خلالها موسى عليه السلام أن يرشد فرعون إلى الحق المبين، مستخدماً كافة السبل من محاجة عقلية وأدلة مادية تبهر العقول، وأن يستنقذ بني إسرائيل المقهورين من عذاب فرعون المهين، لكن فرعون أبى إلا العناد، فاستحق هو ومن معه الهلاك.

تُصوِّر لنا سورةُ الشعراء طرفاً من الجدال الذي دار بين موسى بصحبة أخيه هارون عليهما السلام من جهة، وبين فرعون وحاشيته من الجهة الأخرى؛ قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ

فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ٢٩].

وبتدبر الآيات نجد أن موسى عليه السلام قد استخدم هنا دليلين عقليين، وهما: دليل الخلق ودليل الإتقان، ففي دليل الخلق دعاهم النبي موسى إلى النظر في خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم ليستدلوا على وجود الخالق جل وعلا، لكن لم يكن نصيب فرعون وملئه من هذا الدليل إلا الاستهزاء.

ثم في دليل الإتقان حثَّهم عليه السلام على النظر في اختلاف الليل والنهار وتعاقب المغيب والإشراق ليدركوا عظمة الواحد القهار.

أما على الجهة الأخرى فنجد أن فرعون لم يستخدم دليلاً عقليّاً واحداً للردِّ على موسى عليه السلام، وإنما اتخذ أسلوباً مترادفاً من السخرية والاستهزاء، بدأه بالتشكيك في نوايا موسى حين عيَّره بذنبه القديم من قتل القبطي بالخطأ، ثم استطرد ليقذفه بالجنون، فلما قامت عليه الحجة وغُلب؛ لجأ إلى العنف، واستخدم سلاح التهديد والوعيد ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾، كعادة المستكبرين في كل زمان ومكان، وتلك حجة من لا حجة له!

وتبيِّن لنا سورة طه أن موسى عليه السلام لم يقتصر على هذين الدليلين فقط، بل استخدم أيضاً دليل الفطرة في محاورته مع فرعون، ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا

﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، وفي قوله ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: أرشدهم إلى وجوده، وهداهم إلى طريق الانتفاع بما أعطاه لهم من نِعَم، وعرَّفهم كيف يتوصلون إلى بقائهم وكمالهم من خلال ما أودعه ﷻ في نفوسهم من فطرٍ سليمة.

فهو سبحانه الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى الْخَلَائِقِ بِمَا بِهِ قَوَامُهُمْ مِنَ الْمَطْعُومِ وَالْمَشْرُوبِ وَالْمَلْبُوسِ وَالْمَنْكُوحِ، ثُمَّ هَدَاهُمْ إِلَى كَيْفِيَّةِ الِانْتِفَاعِ بِهَا، وَيَسْتَخْرِجُونَ الْحَدِيدَ مِنَ الْجِبَالِ واللآلئ مِنَ الْبِحَارِ وَيُرَكِّبُونَ الْأَدْوِيَةَ وَالدِّرْيَاقَاتِ النَّافِعَةَ، وَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ فَيَسْتَخْرِجُونَ لَذَّاتِ الْأَطْعِمَةِ، فَثَبَتَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ ثُمَّ أَعْطَاهُمُ الْعُقُولَ الَّتِي بِهَا يَتَوَصَّلُونَ إِلَى كَيْفِيَّةِ الِانْتِفَاعِ بِهَا، وَهَذَا غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِالْإِنْسَانِ بَلْ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ.

وأنت إِذَا نَظَرْتَ إِلَى عَجَائِبِ النَّحْلِ فِي تَرْكِيبِ الْبُيُوتِ الْمُسَدَّسَةِ وَعَجَائِبِ أَحْوَالِ الْبَقِّ وَالْبَعُوضِ فِي اهْتِدَائِهَا إِلَى مَصَالِحِ أَنْفُسِهَا؛ لَعَرَفْتَ أَنَّ ذَلِكَ لا يُمْكِنُ إِلَّا بِإِلْهَامِ مُدَبِّرٍ عَالِمٍ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ[1].

وكذلك نجد في سورة طه من الإرشاد إلى آداب المناظرة، وضرورة التحلِّي بالأخلاق الحميدة مع الخصم حتى وإن كان من أعتى الطُّغاة. قال تعالى عن فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]؛ فإن الحق لا يحتاج إلى رفع صوت أو سبٍّ وقذف، وإنما يحتاج إلى كلمة طيبةٍ ولين، وبيان بحجةٍ ودليل، وأن يقوم على خدمته رجال ذوو خلقٍ مخلصون.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، فخر الرازي، (٢٢/ ٨٥).

إبراهيم عليه السلام والنمرود:

ثم ننتقل إلى مناظرة أخرى ترويها لنا سورة البقرة بين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام والنمرود[١]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. والنمرود هو أحد الملوك الجبابرة، حمله ملكُه وطول مكثه فيه على الغرور والبطر بدلاً من شكر نعم الله، فادَّعى لنفسه الربوبيَّة، ومضى يجادل إبراهيم عليه السلام في الله سبحانه وتعالى، وطالبه النبي إبراهيم بالدليل الذي يثبت ادِّعاءَه من خلال مقارنة إمكاناته البشرية الضعيفة بكمالات الله عز وجل، فقدَّم له دليلَ الخلق، بأن الله وحده هو الذي يملك الإحياء والإماتة، لكن النمرود اعترض بأنه هو أيضاً يملك الإحياء والإماتة، فيقتل من يشاء ويعفو عمَّن يشاء قتله، وقول النمرود في الحقيقة هو ردٌّ سخيف لا تقبله العقول.

«ولقد كان في استطاعة إبراهيم عليه السلام أن يبطل قوله، بأن يبيِّن له بأن ما يدَّعيه ليس من الإحياء والإماتة المقصودَين بالاحتجاج؛ لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، لكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة هي غاية في الإفحام»[٢]، فتماشى مع ادِّعائه وقال: لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملكها الله تعالى، وهذا يعني أنك مشارك له في ربوبيته ولك قدرته نفسها، ولكي نسلِّم لك ولصحَّة ادِّعائك فأثبتْ لنا قدرتك، فإن الله يأتي بالشمس من جهة المشرق فأتِ بها أنت عند شروقها من جهة المغرب!

---

(١) هو نمرود بن كنعان ملك بابل.

(٢) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (١ / ٥٩٤).

فبُهِتَ النمرود وانقطعت حجتُه ولم يستطع أن يتكلم؛ إذ أفحمه إبراهيم عليه السلام بالحجة الدامغة!

ثالثاً: الأدلة القرآنية العقلية على اليوم الآخر والبعث

شغلت قضية البعث واليوم الآخر حيِّزاً كبيراً من الأدلة العقلية في القرآن الكريم، وقد شهدت تنوُّعاً في أساليب الدلالة عليها نظراً لأهمية تلك القضية الإيمانية الكبرى.

ومن ضمن الأدلة المستخدمة في الدلالة عليها:

أ ـ قياس الأَوْلَى:

وهو قياسُ أمر على أمر آخر بينهما علةٌ مشتركة، بحيث يكون الفرع المُقاس أولَى بالحكم من الأصل المُقَاس عليه لقوة العلة فيه. وبالمثال يتضح المقال، ففي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] فبما أنه معلوم من الآية تحريم أذية الوالدين بالكلمة وإن كانت (أف)، فمن الأولَى بالضرورة تحريم ضرب الوالدين لأنه أعظم جرماً وأَولَى بالمنع، وهذا هو قياس الأَوْلَى.

ويسري الأمر نفسه في الدلالة على قضية البعث والنشور، ويتم من خلال قياسين: النشأة الأُولَى، والقياس على ما هو أعظم من خلق الإنسان (خلق السماوات والأرض).

١ ـ القياس على النشأة الأُولَى:

من المعلوم أن الصانع الماهر إذا بنى بيتاً أو صنع شيئاً ثم بَلِيَ أو هُدِم بعوامل الزمن أو لأي سبب كان؛ فإنه من السهل عليه إعادة بنائه وصنعه مرة أخرى، بل إن العقل يتفق في أن إعادة البناء والترميم أسهل من الإنشاء، فكذلك الخلق. يقول الباري ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]. فبما أن الله القدير قد أوجد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وسوّاه في أجمل هيئة وأحسن صورة، فمن الأَولى أنه قادر سبحانه على بعثه يوم الدين، وإعادة خلقه وإحيائه أهون عليه وأيسر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ويدعو الله عباده إلى التَّأمُّل في تلك الحقيقة والنظر في عواقبها ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٠ ـ ٢٢]، أي: فسيحوا في الأرض أيها الناس وتأمَّلوا خلق الله، من النباتات وأنواعها، والحيوانات وتركيبها، ومن الآدميين واختلاف أطوارهم وألوانهم وطبائعهم، ومن هبوب الرياح وسير السحاب، واختلاف الليل والنهار؛ لتعلموا أن الكون كله في حالة تجدُّد مستمر، وبدء وعَود، والله لا يعجزه إعادة إنشائكم، وهو القدير على بعثكم؛ لتجزى كل نفسٍ بما كسبت، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٢ ـ القياس على ما هو أعظم (خلق السماوات والأرض):

إذا تأمَّل المرء جميل خلق السماوات والأرض لأدرك عظمة الخلّاق ﷻ؛ فالأرض تتكون من عدة طبقات، وتحوي في باطنها مختلف الخيرات، ويختلف سطحها بين جبال وهضاب، ويابسة ومحيطات وأنهار، وتربتها قد تكون زراعية أو صحراء. كما يبيِّن لنا العلم الحديث في باب الفلك والأجرام من الحقائق ما يدهش العقول؛ إذ هناك العديد من المجرّات والكواكب السيّارات، ومجرَّتنا وحدها تحتوي على مليارات النجوم، فما بالك بغيرها؟! ولكل نجم موقع ومكان، ولكل كوكب قمر ومدار، فأين أنت أيها الإنسان من تلك الأجرام العظيمات؟! وسبحان الله الواحد القهار ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

إن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون، فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث، دلالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وهذا استدلال منه سبحانه على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يكترث بذلك ولم يعيَ بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو على

(١) تفسير السعدي، ص: ٨١٨.

كل شيء قديرٍ؟[1] ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ ـ ٨٣].

ب ـ ضرب الأمثال

من رحمة الله تعالى بعباده وتودُّده إليهم أن ضرب لهم الأمثال؛ وذلك ليبين لهم معاني كتابه ويسهل عليهم فهم مراده، وضرب الأمثال هو أيسر طرق القياس العقلي وأقربه للأفهام. وقد ذكر ابن القيم في «إعلام الموقعين» من أغراض ضرب الأمثال أنها: «لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثَّل به؛ فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره؛ فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنسَ التام؛ وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير». وقد ورد ضرب الأمثال فيما يخصُّ قضية البعث والنشور في القرآن الكريم على وجهين: إحياء الأرض الميتة، والنوم.

١ ـ إحياء الأرض الميتة:

بينما كنتُ في عملي في يوم من أيام شهر أغسطس، خرجت من مكتبي كعادتي لأتأمل حديقة المبنى الرئيسي المطلة على البحر، تلك الحديقة لطالما أحببتها وتنعمت برائحة زهورها الزكية، ولَكَم هالني المنظر حين رأيتها جدباء لا حياة فيها، ولا أثر لأي زهرة! بل لم يبقَ سوى الشقوق التي ملأت جنباتها من شدة الجفاف؛ فقد أحرقت شمس الصيف كل ما فيها حتى العشب الأخضر، فشعرت حينها بالحزن. ثم تأملت مليّاً... أليس إذا جاء الشتاء ونزل الماء رُدَّت إليها الحياة وعادت الأرض الجدباء حديقةً غنّاء؟ بلى! إن الذي يحيي تلك الأرض

(١) تفسير السعدي، ص: ٨٧١.

الميتة برحمته لهو القادر على إحياء الموتى برحمته. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، فانظر كيف مثّل ﷻ لأمر غيبي غير مُشَاهَد وهو البعث والنشور بأمر مادي مُشاهَد وهو إحياء الأرض بعد موتها، وفي هذا دليل عقلي معتبَر لا ينكره إلا جاحد.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨ ـ ٥٠]، لفت سبحانه أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة، فانظر ـ أيها العاقل ـ نظرة تعقُّل واتِّعاظ واستبصار، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر، وكيف أن نزوله حوّل النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة.

إن ذلك الإله العظيم الذي أحيى الأرض بعد موتها، لقادر على إحياء الموتى؛ إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التي لا يعجزها شيء. وَهُوَ ـ سبحانه ـ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ... وهكذا يسوق القرآن الكريم الأدلة على البعث، بأسلوب منطقي، منتزع من واقع الناس، ومن المشاهد التي يرونها في حياتهم[1].

٢ ـ النوم:

النوم هو الموتة الصغرى، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (١١/ ٩٨).

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، «فالله ﷻ يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ عَنِ التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت»[١]، ولهذا كان النبي ﷺ يقول عند نومه: «اللَّهمَّ باسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيا». وإذا استيقظ قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذي أَحْيانا بَعْدَما أَماتَنا، وَإِلَيْهِ النُّشورُ»[٢].

ولذلك فإن في وجه الشبه بين النوم والإيقاظ، وبين الموت والنشور من انقطاع الإدراك والعمل ثم العودة إلى الحياة؛ ما يدعو إلى التَّأمُّل واليقين بالبعث. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]، «فالآية الكريمة تسوق للناس مظهراً من مظاهر قدرة الله، وتبرهن لهم على صحة البعث، والحساب يوم القيامة؛ لأن النشأة الثانية ـ كما يقول القرطبي ـ منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن مَن قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى»[٣].

جـ ـ مقتضى الكمال الإلهي

الله تعالى هو المستحق للعبادة، وله ﷻ كل كمال مطلق، ويُمتنَع في حقه سبحانه النقص، ومن ثَمَّ فإنه من المستحيل عقلاً وشرعاً أن يُخلَق هذا الكون عبثاً؛ لما له سبحانه من الحكمة المطلقة، بل لا بدّ من بعث وحساب ثم جزاء. قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى

(١) مفاتيح الغيب، فخر الرازي، (١٣/ ١٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢)، وأبو داود في سننه (٥٠٤٩)، والترمذي (٣٤١٧).
(٣) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٥/ ٩١ ـ ٩٢).

عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٤٢].

فإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بَعْثٌ وَجَزَاءٌ لَكَانَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا عَبَثاً، وهو ما يستحيل في حق الله ﷻ، وَلكنه خَلَق ذَلِكَ كُلَّهُ بِالْحَقِّ، أَيْ بِالْحِكْمَةِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ إِتْقَانُ نِظَامِ الْمَوْجُودَاتِ، فَلَا جَرَمَ اقْتَضَى خَلْقُ ذَلِكَ أَنْ يُجَازَى كُلُّ فَاعِلٍ عَلَى فِعْلِهِ وَأَنْ لا يُضَاعَ ذَلِكَ، وَلَمَّا كَانَ الْمُشَاهَدُ أَنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَقْضِي حَيَاتَهُ ولا يَرَى لِنَفْسِهِ جَزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِ تَعَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَخَّرَ جَزَاءَهُمْ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى[1].

د ـ مقتضى العدل الإلهي

حرّم الله سبحانه الظلم على نفسه، وجعله حراماً بين عباده، فيستحيل أن يساوي ﷻ بين المفسدين والمصلحين، أو بين المؤمنين والكافرين، أو بين الطيِّب والخبيث. قال الحق تبارك وتعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، إن مثل هذا التَّعدي لا يصحُّ في حقِّ قاضٍ من قضاة الأرض، فكيف يصح في حق قاضي السماء جل وعلا؟! ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وفي إنكار المبطلين للبعث واليوم الآخر إنكارٌ للعدل الإلهي المقتضي الحساب والجزاء على الأعمال، وبذلك هم ينسبون لله الظلم بادِّعائهم المساواة بين المصلحين والمفسدين ـ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً ـ، «وقد كان صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ يَرَوْنَ وُفُورَ حَظِّهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَقِلَّةَ حُظُوظِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا، فَإِذَا سَمِعُوا

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (٢٥/ ٣١٠).

بِحَدِيثِ الْآخِرَةِ وَمَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: إِنْ صَحَّ أَنَّا نُبْعَثُ كَمَا يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ وَمَنْ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ حَالُنَا وَحَالُهُمْ إِلَّا مِثْلَ ما هِيَ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَّا لَمْ يَزِيدُوا عَلَيْنَا وَلَمْ يَفْضُلُونَا، وَأَقْصَى أَمْرِهِمْ أَنْ يُسَاوُونَا»[١]. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٤١].

فيطالبهم ﷻ بدليل على ادِّعائهم هذا، ويقول: أَفَنُسَاوي بَيْنَ المسلمينَ والمجرمينَ في الْجَزَاءِ؟ كَلَّا وَرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ؛ فكَيْفَ تَظُنُّونَ ذَلِكَ؟! أَفَبِأَيْدِيكُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ تَدْرُسُونَهُ وَتَحْفَظُونَهُ وَتَتَدَاوَلُونَهُ بِنَقْلِ الْخَلَفِ عَنِ السَّلَفِ، مُتضمن حُكْماً مُؤَكَّداً كَمَا تَدَّعُونَهُ؟ أَم مَعَكُمْ عُهُودٌ مِن الله وَمَوَاثِيقُ مُؤَكَّدَةٌ أَنَّهُ سَيَحْصُلُ لَكُمْ ما تُرِيدُونَ وَتَشْتَهُونَ، فإن كانت لديكم فأظهروها للناس، ثم اسألهم يا محمد: مَنْ هُوَ الْمُتَضَمِّنُ الْمُتَكَفِّلُ بِهَذَا الزعم أمام الله يوم القيامة؟ أم لهم شركاء يوافقونهم على هذا الحكم الباطل، فإن كان عندهم ذلك فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين في زعمهم التسوية بين المتَّقين والمجرمين. فلما نفى سبحانه جميع ما يمكن أن يتعلَّقوا به في تحقيق دعواهم ظهر بطلان ادِّعائهم[٢].

إن العدل الإلهي يقتضي أنه لا بدّ من يوم يُحاسَب فيه كلُّ امرئ بما فعل؛ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب الظالمين، ونحن نرى أن بعض الطُّغاة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي (توفي: ٦٧١هـ)، (١٨/ ٢٤٦)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٨/ ١٩٨). والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (١٥/ ٥٤).

قد يمتدُّ ظلمهم وبغيهم حتى انقضاء الأجل، فهل يُعقَل أن هؤلاء قد أفلتوا بفعلهم وأن الموت نهاية مطافهم؟! حاشاه سبحانه أن يترك عباده هملاً أو أن يرضى ظلماً ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، بل لا بدّ من يوم تجتمع فيه الخصوم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣]، حينئذ توضع الموازين العادلة، وتُرَدُّ الحقوق، وتُطرَح صحائف الأعمال فلا تغادر صغيرة أو كبيرة ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فمن يُقدَّم على الآخر؟!

وهنا يأتي سؤالٌ في نهاية المطاف: مَن علينا أن نقدِّم أولاً... القرآن أم العقل؟ وللإجابة عن هذا السؤال دعونا نتفق أولاً أن العقل الصريح لا يمكن أن يتعارض مع النقل الصحيح، أي أن الحكم العقلي السليم لا يمكن أن يتعارض بشكلٍ من الأشكال مع النَّص الصحيح، وأنت قد رأيت بنفسك في هذا الفصل مظاهر احتفاء القرآن بالعقل، فكيف يُتَصوَّر حدوث تعارضٍ بينهما؟! وبفرض حدوث التعارض؛ فإن تقديم الحاكمية يكون بحسب الثُّبوت من القطعية والظنية[١]، وبما أن القرآن الكريم قطعيُّ الثُّبوت بلا خلاف[٢]؛ فإنه لا بدّ أن يُقدَّم على العقل.

---

(١) الدليل القطعي: هو الذي نقطع بصحته، أو هو الذي لا يحتمل أكثر من معنى، والدليل الظني: هو الذي لا نستطيع الجزم بصحته أو قد يحتمل أكثر من معنى.

(٢) القرآن الكريم كله قطعي الثُّبوت، فنحن نجزم أنه كلام رب العالمين بلا شكٍّ أو تحريف أو تبديل، ولكن دلالته منها ما هو ظنيٌّ وما هو قطعي، والدلالات الظنية في الآيات التي قد تحتمل أكثر من معنى هي التي تفتح باب الاجتهاد بين العلماء في استنباط الأحكام.

وقد يُقدَّم العقل على أنواع أخرى من النصوص بخلاف القرآن الكريم كالأحاديث الضعيفة والموضوعة أو ما دون الصحيحة؛ لكونها ظنيَّة الثُّبوت وتحمل في ظاهرها التعارض مع العقل الصريح، وحينئذ لا بدّ من تحقيقها وتقديم القطعي منهما دون الظني.

❋❋❋

الفصل الحادي عشر

القرآن والحرية

لم يرد لفظ الحرية صراحةً في القرآن الكريم؛ نظراً لكونه لفظاً مستحدثاً بصيغته الحالية، فلم يستخدم مصطلح الحرية المتعارف عليه قبل القرن الثالث عشر الميلادي، إلّا أنّ حديث القرآن الكريم يزخر بمعاني الحرية ومضامينها، والعبرة بالمعاني لا المباني.

مفهوم الحرية:

إن الإسلام يتعامل مع الحرية على أنها منحة ربانية وضرورة إنسانية، فقد وهب الإنسان العقل ومنحه الإرادة الحرة، وميَّزه بذلك على سائر المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. وبيّن لبني آدم طريقي الخير والشر وعاقبتهما، وأرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب ثم ترك لهم حرية الاختيار. قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣]، وقال أيضاً: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

الإيمان ليس جبراً:

ولم يكن الإيمان في يوم من الأيام جبراً، وهذا المبدأ يشمل رسالات الأنبياء جميعاً من نوح حتى محمد ـ عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ؛ إذ يقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]، ويقول تبارك وتعالى

لنبيه محمد ﷺ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]. وبذلك فإن ما زعمه المشركون على مرِّ الأزمان من الاحتجاج لكفرهم بالقضاء والقدر وادِّعاء أنهم مسلوبو الإرادة شيء لا يقبله المنطق والعقل ولا يقبله الشرع. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. إن علم الله الأزلي الذي وسع كل شيء ينكشف فيه اختيار العبد للخير أو الشر، وتوافق اختيار العبد مع علم الله لا يحمل أي معنى من الإلزام أو القهر؛ فالله سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو لا يمنع عن الإنسان حرية الاختيار بما منحه الله من العقل والتي ينبني عليها التكليف والثواب والعقاب.

ولو شاء الله لأنزل آية تزلزلهم وتضطرهم إلى الإيمان اضطراراً وقهراً، ولكنه بيّن سبحانه إنما أراد منهم الإيمان الاختياري، قال ﷻ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]. وكذلك لا ينفع المشركين إيمانُهم يوم القيامة بعد الفصل والقضاء ومعاينة عرصات هذا اليوم الشديد؛ لأن الإيمان المقبول يكون في الدنيا مشروطاً بالاختيار الحر، والآخرة دار جزاء ليست دار عمل ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ولو شاء الله لخلق الإنسان بطبيعة الخير لا يعرف شراً، أو بطبيعة الشر لا يعرف خيراً، وعندئذٍ لا يكون الخليفة المختار في الأرض لإقامة الدين والشرائع، فمن لا يملك تصرفاته لا يمكن أن يكون جديراً بالاستخلاف بأي حال من الأحوال، والله ﷻ يقول: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] أيّ: أيها الناس اختاروا ما شئتم من خير أو شر، لكن عليكم أن تكونوا على قدر المسؤولية وتتحملوا عاقبة اختياركم، فالله بصير لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

الفرق بين الاتجاه الإسلامي والغربي:

إذن فالقرآن يعتبر الحرية مناطاً تكليفيّاً وهبة إلهية، على عكس الاتجاه الغربي الذي أعلن حريته في التمرُّد على الله، وأن الحرية حق طبيعي لا علاقة له بالإله، واتَّجه إلى البدائل الإنسانية بتأليه الإنسان الحر، وقد تبنى الغرب هذا الاتجاه منذ القرن السابع عشر حين ثار على رجال الكنيسة وأيَّد فكرة الانقطاع عن الله، فانقلبت حريته على الوحي الإلهي وتعاليمه، وتمحورت حول الحرية المادية الذاتية للفرد، وأهملت كل ما سواها من جوانب الحرية العامة والحرية الروحية، وأعطت الضوء الأخضر ليفعل مَن يشاء ما يشاء متى يشاء! فحازوا على الداء من حيث أرادوا الدواء، وأصبحوا عبيداً من حيث أرادوا الحرية!

إن الإسلام حينما كفل للإنسان الحرية لم يكتفِ فقط بجانبها المادي كما فعل الغرب، ولكنه اهتم أيضاً بجوانبها الروحية، وكيف يكون البدن حرّاً والروح مأسورة؟! إن الإنسان الذي تتحكَّم فيه شهواته وملذَّاته هو فاقد للحرية بلا شك! ولذلك يقول النبي ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ

الْخَمِيصَةِ»[١]. فقد سعى الإسلام لتحقيق حرية الإنسان الظاهرة والباطنة، حرية بدنه وروحه، حرية عقله وقلبه، حرية تشمل الدين والدنيا، وأحسب أن إنسان هذا العصر قد فقد الكثير من كبريائه بعبادته للماديات!

والتقيد بالوحي الإلهي في الحرية الإسلامية ليس درباً من التضييق أو فرضاً للأغلال، وإنما هو حالة من السمو بالإنسان لتحقيق أهدافه الكبرى، وأما المجتمعات التي أباحت الزنا واللواط والسحاق والإجهاض تحت ستار الحرية، فقد استخدمت الحرية كأداة للانحطاط بالبشر من درجات الإنسانية إلى دركات البهائم!

يقول اللورد سنيل[٢] متألماً على حال قومه: «لقد بنينا بناءً متناسقاً باعتبار مظهره الخارجي، لكن أهملنا المطلب الجوهري لعنصر فطري في حياتنا، لقد صمَّمنا وزيَّنَّا الكأس من الخارج، لكن داخله ملآن بالعفن... إننا نستخدم معارفنا المتزايدة في رفاهة الجسد، لكن تركنا الروح في فقرٍ وهزال».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

احترام الحرية الفردية في المجتمع المسلم لا يعني ترك التناصح فيما بينهم، أو الجهر بالمعصية ودعوة الناس إليها، بل لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلّا عمّهم الله جميعاً بالعذاب. قال تعالى ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٨٧). والخميصة: نوع من الأقمشة.
(٢) اللورد هاري سنيل: ناشط اجتماعي وسياسي بريطاني، (توفي عام ١٩٤٤م).

فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب من أسباب خيرية أمة محمدﷺ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وله آداب يتأدَّب بها القائمون عليه، ويرعاها أولو الأمر كلٌّ في موقعه. والفرد المسلم في نصحه لأخيه لا يجبره على شيء، بل هو حريص عليه حرصه على نفسه، فهو يؤدي إليه النصيحة مبتغياً وجه الله، ويعلم أنه مثاب في الحالتين، إن قبِلَها أخوه فبها وأحسن، وإن لم يقبلها فلا يحزن، فقد أدى واجبه وبرّأ ذمته، وعليه حينئذ بخاصة نفسه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥][1].

ومما سبق جميعاً نستخلص تعريفاً للحرية في الإسلام فنقول: الحرية هي أن تعبد الله وحده «باختيارك» دون كل ما سواه من شهوات أو أهواء أو شركاء، مالكاً لتصرفاتك، مستغنياً عن الناس، ما لم تؤذِ أحداً أو تدعُ إلى معصية.

هل انتشر القرآن بحدِّ السيف؟

قد يقول قائل: أنتِ تحدِّثيننا عن الحرية على الرّغم من أنّ القرآن انتشر بحدِّ السيف، لكن ... هل حقّاً انتشر القرآن بحد السيف؟

---

(١) وقد فهم كثير من الناس تلك الآية بشكل خاطئ، ونظروا إليها على أنها دعوة للسلبية وروَّجوا لهذا رواجاً واسعاً، والدين بريء من ذلك، بل هي وثيقة الصلة بالتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها تمثل آداب التعامل حال عدم قبول النصيحة.

بالطبع هذا زعمٌ باطل، نحن لا ننكر أن هناك قتالاً في الإسلام، لكنه قتال ليس غرضه الطمع والتجبّر على الخلق، وإنما هدفه تحقيق الحريّة وإعلاء كلمة الحق. والتاريخ يشهد بفخر لرقي الفتوحات الإسلامية؛ فهي فتوحات مغايرة تماماً لمختلف الحروب التي شهدتها الإنسانية على مرِّ عصورها، فلم يدخل الإسلام أمةٌ من الأمم إلا وانصبغت به انصباغاً تامّاً بين عشيَّة وضحاها، كأنَّ له مفعول السِّحر، وليس ذلك بالطبع بسبب السيف ولكن بسبب صفاء عقيدته وتماشيه مع فطرة الإنسان.

إن القرآن له إيمان يباشر القلوب، ومنطق يخاطب العقول، وصوت يشنف الآذان، وشريعة تحرر الإنسان، ولا ريب أن وجدتْ فيه الشعوب المقهورة عزَّتها، فاستجابت لنداء القرآن بطوع إرادتها ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]... والآن دعنا نبدأ القصة من أولها...

إن محمدَ بن عبد الله ﷺ يتحمَّل ومن معه أذى قومه في صبر وثبات، لن يثنيهم شيءٌ عن عقيدتهم وحرية عبادتهم، إلا أنَّ المشركين تمادَوا في الأذى وأذاقوا ضعفاءَهم سوء العذاب حتى اضطر هؤلاء المسلمون إلى ترك ديارهم وأموالهم والفرار بدينهم. فلو كان محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم متعطشين للدماء كما ادَّعى المبطلون، فلماذا لم يفرضوا دينهم على قريش بحدِّ السيف على الرغم من أنّ عددهم يزداد يوماً بعد يوم، وتنتشر أخبارهم في العرب انتشار النار في الهشيم حتى سمعت سائر الجزيرة بأمرهم؟! ما الذي دفعهم إلى تحمُّل الأذى طيلة عشر سنوات منذ بداية الجهر بالدعوة يذوقون فيها أصناف العذاب؟! بل إنه كان من السهل أن يضع محمدٌ يدَه في يد أيِّ قبيلة تنصب العداء لقريش

ليفتكوا بهم ويتقاسم معهم غنائم مكة ـ وقد كان طبع العرب العيش على الغارات والسلب ـ ولكنه لم يكن ليفعل ذلك وحاشاه ﷺ، لا بد أن له غايةً أسمى وهدفاً أغلى يجعله يتحمَّل هو وأصحابه كل تلك المشاقِّ، وهو في ذلك لم يحمل لقومه رغم أذاهم إلّا الرحمة والإشفاق حتى خرج من مكة فراراً بدعوته مبتغياً وجه الله، وصدق فيه قول ربه تبارك وتعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإن قال قائل: إن محمداً كان موقفه ضعيفاً في مكة لم يقدر فيه على قتال، وهذا هو السبب في عدم إجباره قريشاً بحدِّ السيف، فنقول له: إنه على الرغم من الخطأ في زعمك وسنفترض صحته، إلّا أننا سنطرح عليك سؤالاً: لماذا لم يُجبِر النبي محمدٌ اليهودَ في المدينة على دينه بالرغم من أنه أصبح الآن في عزَّة ومنعة والأنصار رهن إشارته؟! إن الرسول ﷺ حين وصل المدينة أقرّ اليهود على دينهم وعقد معهم معاهدة، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم.

يقول ابن إسحاق: «وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهودَ وعاهدهم، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم»[(١)]. وترك عقد الصحيفة لليهود أن يباشروا عقائدهم الدينية اليهودية بحريّة مطلقة، على بعد عدة أمتار من المسجد النبوي[(٢)]. فإن قال قائل: إنّ هذا الأمر كان في بداية الدعوة، قلنا: لا، كذلك فعل النبي ﷺ مع نصارى نجران في العام التاسع من الهجرة أي بعد فتح مكة وقد كانت الجزيرة العربية كلها تقريباً تحت سلطان المسلمين، فقد عقد معهم صلحاً جاء فيه: «ولنجران وحاشيتها

(١) السيرة النبوية لابن هشام، طبعة دار العقيدة، مصر، (١/ ٢٩١).

(٢) انظر: حقوق غير المسلمين في المنظور الإسلامي، إعداد اللجنة العلمية بمجمع البحوث الإسلامية، سلسلة مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، مصر، السنة الخمسون ١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م.

جوارُ الله، وذمة محمدٍ النبي على أنفسهم، وملَّتِهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وبيعهم، وألَّا يغيِّر مما كانوا عليه، ولا يغير حقّاً من حقوقهم ولا ملَّتَهم، ولا يغير أُسقفاً عن أُسقفيته، ولا راهباً من رهبانيته». بل وتذكر لنا بعض كتب السيرة أنّ النبي ﷺ قد ترك وفد نصارى نجران يؤدُّون صلاتهم داخل المسجد النبوي الشريف(١).

أمّا قريش التي طالما تفنَّنت في إيذاء النبي ﷺ، فقد كان جزاؤها عفواً شاملاً حين دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً دون قتال، إنَّه لم ينتقم لنفسه ﷺ، ولا لأصحابه، ولم يعمل فيهم السيف جزاءً وِفاقاً، بل خلَّى سبيلهم، وتركهم أحراراً.

فقل لي بالله عليك: هل تلك أخلاق لسافكِ دماءٍ، أو متعصّب متجبِّر على الناس؟! اللَّهمَّ لا...ولم يكن النبي ﷺ ليفرض الإسلام كأيديولوجية موحدة على الناس. إن هذا مستحيل؛ لأن الاختلاف سُنة كونية، والقرآن يقرّ في مُحكمه تلك الحقيقة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]. كما أن شريعة القرآن الغراء لا تحتاج لشيء من هذا القبيل، فما على الرسول ﷺ إلا أن يسعى لإيصال صوت الحق وإعلاء كلمته، ثم يترك للناس شأنهم وحرية اختيارهم ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٩٩].

إن عقيدة الإسلام الخالية من التعقيد، وخطابه القرآني الذي يلامس الفطرة ويأخذ بشغاف القلوب لا يحتاج إلى فرضٍ أو قهر أو محاكم تفتيش تبحث في

(١) انظر: السيرة النبوية للصلابي، ص: ٨١٨، طبعة مؤسسة اقرأ، مصر، ٢٠١٣م. وفقه السيرة لمحمد الغزالي، ص: ٣٢٩، دار الشروق، مصر، ط ٩، ٢٠١٧م.

بواطن الناس[١]. وكم عانى المسلمون واليهود من ويلات تلك المحاكم بعد سقوط الأندلس! وأريقت دماء البروتستانت بعد اتِّهامهم بالهرطقة! وارتكبت الحملات الصليبية المذابح في حق أطفال ونساء المسلمين. لذلك أقولها بملء فمي: لقد حُقَّ للمسلمين أن يفخروا بتاريخهم المشرِّف وفتوحاتهم ناصعة البياض؛ إذ يقول القرآن الكريم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

القتال في الإسلام

لقد رفعت فتوحات الإسلام شعار ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، فلم يكن همُّها ثروات البلاد أو قهر العباد، وإنما جلُّ همِّها إعلاءُ كلمة الله، وإيصال الحق للناس بتحرير الشعوب المقهورة؛ كي يختاروا لأنفسهم على بيِّنة.

وقد بان لكلِّ متأمل أن تشريع القتال في الإسلام قد مرَّ بعدَّة مراحل، فلم يُفرَض القتال على المسلمين إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر عاماً من بدء الدعوة، قاسى خلالها المسلمون لظى الاضطهاد، واضطروا لترك الديار والأموال. وهذه المراحل أتت كالتالي:

١- المرحلة الأولى: الحظر:

وذلك طوال المرحلة المكِّية؛ إذ كان المسلمون يطلبون من رسول الله ﷺ الإذن بالقتال فيجيبهم: «أن اصبروا فإني لم اؤمر بقتال».

---

(١) محاكم التفتيش (Inquisitio Haereticae Pravitatis): محكمة كاثوليكية اشتهرت باسم «محاكم التفتيش الإسبانية»، أسسها الملوك الكاثوليك فرناندو الثاني وإيزابيلا الأولى عام ١٤٧٨م بموافقة البابا سيكتوس الرابع، كانت مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم، وقد ارتكبت فظائع ومذابح يشهد لها تاريخ الإنسانية.

٢- المرحلة الثانية: الإذن بالقتال من غير وجوب:

قال تعالى في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

٣- المرحلة الثالثة: القتال الدفاعي:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وذلك بوجوب قتال من قاتل المسلمين.

٤- المرحلة الرابعة: القتال الوقائي:

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، وذلك بحسب ما تقتضيه مصلحة الدولة الإسلامية ويحدده الحاكم، بوجوب قتال من لا يُؤمَن غدرهم وخيانتهم للمسلمين.

أغراض القتال في الإسلام:

للقتال في الإسلام أغراض سامية، منها:

١- **تحقيق الحرية وإيصال صوت الحق:** وذلك بإزالة أي معوقات تحول دون عرض دعوة الإسلام على الناس وانتشاره في الأرض، وتعرّض الناس للفتنة بحرمانهم من حرية الاختيار.

٢- **الذود عن المسلمين المستضعفين:** قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]، وذلك بالتدخل لرفع المعاناة عن كواهل ضعفاء المسلمين المضطهدين في بلاد الكفر.

٣- **رفع الظلم عن المظلومين**: بإزالة أنظمة الطواغيت، وجعل الناس تحت سلطان عدالة الإسلام، يتمتَّعون بكامل حقوقهم وحرية معتقداتهم.

٤- **الدفاع عن الكيان الإسلامي**: نصب الفاسدون العداء للإسلام منذ لحظة ميلاده الأولى؛ إذ يتربَّصون به الدوائر، ويعدُّون لأهله المصائد والكمائن، ولا يرقبون إلّاً ولا ذمَّة في إراقة دمائهم وقتل أطفالهم متى حانت لهم الفرص؛ إذ كيف يتجرأ هذا الدين على منع الفساد ورد الحقوق إلى الضعفاء، وما أشد حسدهم! فأتْباعُه كل يوم في ازدياد. وإن رحمة الإسلام لتحتِّم الحفاظ على كيانه ضد هؤلاء المتربصين به ليلاً ونهاراً، ولا همَّ لهم سوى القضاء على كيان الإسلام الذي ينغِّص عليهم حياتهم، ويكشف فسادهم وظلمهم.

ولما كانت أغراض القتال في الإسلام سامية، كان لا بدّ للشارع من وضع ضوابط صارمة تعمل على تحقيق غاياته، وتميز تلك الفتوحات النبيلة عن سائر أنواع الصراعات التي شهدها تاريخ الإنسانية. فمن ضمن هذه الضوابط:

١- **أنهم ليسوا البادئين**:

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾؛ لأن المسلمين ليسوا البادئين، وإنما يتحدد رد فعلهم حسب موقف الخصم، ولهذا قال تعالى أيضاً: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةً﴾، إذن هو رد الفعل وليس منشؤه.

٢- **عرض الإسلام أولاً**:

وقد أوجبت الشريعة دعوة الأعداء إلى الإسلام قبل بدء القتال ـ على قول أكثر أهل العلم ـ. قال ابن عباس ﷺ: «ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً قطُّ إلا دعاهم»[1].

(١) رواه أحمد.

فليس الغرض من القتال التعطُّش للدماء أو البطش بالمخالفين، وإنما غرض الفتوحات الإسلامية الدعوة لدين الله ﷻ، فإما أن يقبلوا دعوة الإسلام، وإما أن يحتفظوا بدينهم وعقائدهم تحت سلطان المسلمين مع دفع الجزية، وإما أن يختاروا القتال. وقد ورد في حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي ﷺ، الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أَمَّر أميراً على جيش قال: «إذا لَقيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إلى ثَلاثِ خِصالٍ أو خِلالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ ما أَجابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وكُفَّ عَنْهُم، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلام»[1]. أما ما ندر من استثناءات بالمباغتة في قتال الكفار، فقد كان وفق ما تقتضيه المصلحةُ، والعبرة بالأصل لا الاستثناء.

٣- قتالٌ موجَّهٌ إلى الأنظمة لا الناس:

من الأغراض الأساسية للقتال في الإسلام ـ كما ذكرنا ـ إزالةُ العوائق التي تحول دون وصول دعوة الإسلام للناس أو تمنع عنهم حرية اختيار معتقداتهم؛ ولذلك فإنَّنا نجد أن الجهاد في الإسلام موجَّهٌ للأنظمة الطاغية دون الشعوب، وبمثل هذا كانت وصية رسول الله ﷺ للجيوش بتقوى الله، وألا يقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأةً.

٤- ليست حرباً مقدّسة:

الفتوحات الإسلامية ليست حروباً مقدّسة، ولو صدق هذا الزعم لكانت أسهم المسلمين وسيوفهم موجَّهة نحو رجال الدين، ولكنها كانت مقتصرة فقط على المحاربين، بل وبذلت سيوف المسلمين كلَّ وسعِها للذَّبِّ عن دُور العبادة ورجال الدين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣١).

وروى لنا التاريخ مفاخر فتوحات أهل الإسلام، مثلما حدث في فتح بيت المقدس على عهد الفاروق عمر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وكما أعطى عمرو بن العاص ﷺ الأمان للبابا بنيامين في فتح مصر، فعاد إلى كرسيِّه عزيز الجانب موفور الكرامة، بعد أن ظلَّ قرابةَ ثلاثة عشر عاماً مختفياً في أحد أديرة الصعيد؛ هرباً من اضطهاد هيرقل وحكمه.

٥- الإخطار بنبذ العهود:

وذلك حال التعامل مع المعاهدين؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي: «إن خفت ـ أيها الرسول ـ من قوم عاهدتَهم غشّاً ونقضاً للعهد بأمارةٍ تظهر لك فأعلمْهم بطرح عهدهم؛ حتى يستووا معك في العلم بذلك، ولا تباغتْهم قبل إعلامهم؛ فإنَّ مباغتتهم قبل إعلامهم من الخيانة، والله لا يحب الخائنين، بل يمقتُهم»[(١)].

وإن مِن عَدِّ الشارعِ تركَ إخطارِ الخصوم بنبذ العهود درباً من الخيانة لدليلٌ على عِظم وسماحة هذا الدين، الذي يحترم الكلمة، ويثمِّن العهد، ويسمو بالقتال من أغراضه الدنيوية الخسيسة إلى معالي الأمور ومراقي السماء.

٦- منع الاعتداء بكافة أشكاله:

ومن ذلك ما أوصى به النبي ﷺ من النهي عن المثلة[(٢)]، وقطع الأشجار ـ إلا ما كان في غزوة بني النضير فإنها كانت استثناءً بأمر من الله ـ، والنهي عن قتل المستضعفين وغير المحاربين، وقد ورد في القرآن الكريم تحريم الاعتداء بكافة

(١) تفسير السعدي، ص: ٣٢٤.
(٢) المثلة: التمثيل بالجثث.

أنواعه؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

لا إكراه في الدين

كفل القرآن الكريم لغير المسلمين الحق في حرية العقيدة، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾: «لا تُكْرِهُوا أَحَداً عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ دَلَائِلُهُ وَبَرَاهِينُهُ لا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ»[(١)]. وروى ابن أبي حاتم بسنده عن غلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اسمه أُسَق، قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانيّاً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليَّ الإسلام فآبى؛ فيقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، ويقول: «يا أُسَق، لو أسلمتَ لاستعنَّا بك على بعض أمور المسلمين». وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت ابن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: «أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق. قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إليّ قريب! فقال عمر: اللَّهمَّ اشهد، وتلا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾»[(٢)].

ويشهد لتلك السماحة الإسلامية العديد من غير أهل الإسلام. قال المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون: «القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربَ المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغةً له، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٦٨٢).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، (٣/ ٢٨٠). وانظر: حقوق غير المسلمين في المنظور الإسلامي، اللجنة العلمية بمجمع البحوث الإسلامية، ص: ٥٨.

من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهدٌ بمثله، ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى»[(١)].

ويقول المؤرخ الأمريكي المعاصر «وول ديورانت» عن التسامح الإسلامي مع أهل الأديان: «لقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون واليهود، والصابئون، يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم»[(٢)].

إذن لا مكان للإكراه في شريعة القرآن، فالإسلام يعترف بالعقائد الأخرى ولكن لا يقرّها ولا يأمر بإكراه أهلها، وكما أنه لا إكراه في الإيمان، فإنه لا إكراه في الكفر، فلا يعتد الشرع بإيمان أو كفر المكره. قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولم تقتصر سماحة القرآن على كفالة حرية العقيدة فقط، ولكن أوصت بأهل الذمة خيراً، وحضّت على البر بهم والإحسان إليهم: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣م. وانظر: فضاءات الحرية، سلطان بن عبد الرحمن العميري، ص: ٢٥٣، المركز العربي للدراسات الإنسانية، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م.

(٢) انظر: قصة الحضارة، وول ديورانت، (١٣/ ١٣٠)، تقديم: الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨هـ. وانظر: حقوق غير المسلمين في المنظور الإسلامي، اللجنة العلمية بمجمع البحوث الإسلامية، ص: ٦٠ ـ ٦١.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩]، وأقامت جسوراً من التواصل بين المسلمين وأصحاب العقائد الأخرى وصولاً إلى تكوين الأسر، فأحلّت زواج الكتابيات وأحلت طعام أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وانظر إلى تشديد النبي ﷺ في الوعيد لمن تعرّض للمعاهدين لتعرف مدى عدالة هذا الدين ورقيّه؛ إذ يقول: «أَلَا مَنْ قَتَلَ نَفْساً مُعاهدَةً لَهُ ذمَّةُ الله وَذمةُ رَسولِه، فَقَد أَخفرَ بذمَّةِ اللهِ فَلا يرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيْحَها ليُوْجَدُ مِنْ مَسيْرَةِ سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً»(١).

الجزية

قد يقول قائلٌ: «تحاولين إقناعَنا بأنَّ القرآن كفلَ لغير المسلمين حرية العقيدة وصان حقوقهم، فكيف ذلك وقد ضرب عليهم الجزية كعقوبة؟»

والردُّ:

أولاً: الجزية ليست عقوبة مثلما ادَّعى قائلنا.

ثانياً: عليك أن تتعرَّف قبل كل شيء على ماهية الجزية، ومقدارها، وحيثيات فرضها على غير المسلمين؛ لتعلم أنها ركنٌ أساسي من مبدأ المواطنة.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٠٣)، وابن ماجه (٢٦٨٧). (والإخفار: هو نقض العهد).

أولاً: ليست عقوبة:

تجتمع تحت راية الدولة الإسلامية مختلف العقائد، مكفولةً لأهلها الحرية الدينية، ونظراً لأن شريعة الإسلام لا تسمح لأهله بالاستعانة بغير المسلمين في القتال، فقد قامت الشريعة السمحة بفرض مبلغ زهيد على غير المسلمين؛ ترسيخاً لمبدأ المواطنة، فإن كان أبناء الوطن من غير المسلمين لم يشاركوا في قتال الأعداء، فلْيساهموا باليسير من أموالهم لحماية أنفسهم وأوطانهم.

وأما في حالات الاستثناءات التي يقع فيها الاستعانة بغير المسلمين في القتال؛ فإنه تسقط عنهم الجزية، مثلما صنع أبو عبيدة ﷺ مع الجراجمة، ومثلما أسقط معاوية ﷺ الجزية عن الأرمن حين تعهدوا بقتال الروم، وأما أهل جرجان، فقد نقل الطبري: أن سويد بن مقرن رفع عمَّن يقوم بحمايتها منهم، وكتب لهم بذلك كتاباً جاء فيه: «إن لكم الذمة، وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء (أي: الجزية) في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حالم، ومن استعنَّا به منكم فله جزاؤه (جزيته) في معونته عوضة من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومِللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم؛ ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقروا المسلمين، ولم يبد منهم سيل ولا غل»[1].

ماهية الجزية ومقدارها:

ولذلك فإن الجزية فُرِضَت فقط على المقاتلين (أي الرجال المطيقين للقتال) دون غيرهم من النساء والأطفال والشيوخ.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٣٨)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.

قال القرطبي: «قال علماؤنا: الذي دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من المقاتلين، وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجمَ لرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يقاتلون، دون النساء، والذرية، والعبيد، والمجانين المغلوبين على عقولهم، والشيخ الفاني»[١].

وقال مالك: «مضت النية أن لا جزية على نساء أهل الكتاب ولا على صبيانهم، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الذين قد بلغوا الحلم، وليس على أهل الذمة ولا على المجوس في نخيلهم ولا كرومهم ولا زروعهم ولا مواشيهم صدقة؛ لأن الصدقة إنما وُضِعَت على المسلمين»[٢].

وقد كتب عمر بذلك إلى أمراء الأجناد: «لا تضربوا الجزية على النساء والصبيان، ولا تضربوها إلا على من جرت عليه المواسي»[٣].

ويشهد المستشرق الألماني آدم متز بسماحة المسلمين والتزامهم في جمع الجزية، فيقول: «فكان لا يدفعها إلا الرجل القادرعلى حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار»[٤].

وأما عن مقدار الجزية فهو مبلغ يسير، يسهل على كل امرئ دفعه، فلم تتجاوز جزية الفرد على عهد النبي ﷺ الدينار الواحد في السنة. ثم صارت أربعة دنانير على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي (٨/ ١١٢).

(٢) الموطأ، الإمام مالك بن أنس، كتاب الزكاة، ص: ١٧٠، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣٣٠٤)، والبيهقي (١٩١٧٠) باختلاف يسير. (والمقصود بمن جرت عليه المواسي أي: بلغ الحُلُم وقدر على حمل السلاح).

(٤) انظر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، (١/ ٩٦)، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الخامسة. وانظر: تنزيهة القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، منقذ بن محمود السقار، ص: ٣٨٨، مركز تكوين، لندن، الطبعة الثانية، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

عهد الفاروق عمر ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وأوجب عمرو بن العاص على أهل مصر دينارين فقط كل سنة. ونلاحظ من الاستقراء لتاريخ الإسلام أن مقدار الجزية تفاوت على مر عصوره، وتركت الشريعة أمر تحديد مقدار الجزية في يد الإمام على حسب وسع أهل كل بلد وظروفهم.

وأما في حالة عجز المرء عن دفع ذلك المبلغ الزهيد فإنها تسقط عنه. قال ابن القيم ﷺ في أحكام أهل الذمة: «وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا لا تَجِبُ عَلَى عَاجِزٍ عَنْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ لا يُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا». وقال أيضاً: «وَلَا جِزْيَةَ عَلَى شَيْخٍ فَانٍ ولا زَمِنٍ ولا أَعْمى ولا مَرِيضٍ لا يُرْجَى بُرْؤُهُ بَلْ قَدْ أُيِسَ مِنْ صِحَّتِهِ وَإِنْ كَانُوا مُوسِرِينَ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَحْمَدَ وَأَصْحَابِهِ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ أَقْوَالِهِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا يَقْتُلُونَ ولا يُقَاتِلُونَ، فَلَا تَجِبُ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ، كَالنِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ»[1].

ثانياً: المشاركة في بناء الدولة:

أمن الأوطان لا يعتمد فقط على قتال الأعداء حال الحروب، وإنما يعتمد أيضاً على بناء الدولة ومرافقها حال السلم لخدمة الشعب؛ ولذلك وجب على كافة أطياف المجتمع المشاركة في بناء الوطن، فكما أنه وجب على المسلمين دفع الصدقات والزكاة، فإنه وجب على غير المسلمين دفع الجزية، بل إن مقدار الجزية ضئيل بشكل لا يحتمل المقارنة مع الزكوات والصدقات التي فُرضت على المسلمين، وكل ذلك جميعاً يُدفَع إلى بيت المال لينفق في مصارف الدولة، ويصل إلى مستحقيه بحسب ما تقتضي المصلحة العامة.

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة، ابن القيم، (١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري ـ شاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادي للنشر ـ الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

ثالثاً: علامة السلم:

والجزية علامة السلم والخضوع لسلطان الإسلام. قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فهي بمثابة تعهد من غير المسلمين على كف أذاهم عن أهل الإسلام والتعايش في المجتمع المسلم.

الرِّق

الرِّق من الموضوعات التي أُثير الكثير حول علاقتها بالقرآن الكريم، وحين نزل القرآن كان الرِّق نظاماً عالمياً متداولاً ومعروفاً، ولكنه يفتقر إلى الكثير من العدل. ونحن وإن كنَّا في زمننا هذا قد تمَّ إيقاف التعامل به ـ ظاهرياً ـ إلا أن الكثير من سكان العالم ما زالوا يعانون من ويلاته في الخفاء أو تحت مسميات أخرى.

ظهر التعامل بالرِّق في أزمنة سحيقة من عصور ما قبل الميلاد، وتعارفت عليه معظم الحضارات، ذاق خلالها العبيد الويلات وتجرعوا غصص العذاب وبخاصة لدى الرومان، الذين تفنَّنوا في إهانة العبيد وإذلالهم، واعتبرهم الدستور الروماني كالمتاع أو لا وجود لهم كالهواء، فتارة يضعونهم في أقفاص ليصارعوا الوحوش، أو يجلبونهم إلى مسارح كبيرة ويقسِّمونهم فِرَقاً يقتل بعضهم بعضاً كي يتمتع السادة الرومان بمشاهدتهم في سباق القتل. وللسيد الحق في قتل عبده أو أمته دون أدنى محاسبة، حتى وإن كان ذلك بطرق بشعة تقشعر منها أبدان الشياطين. واعتبر بعض فلاسفة الإغريق أمثال أفلاطون ومن بعده أرسطو أن العبيد لا قيمة لهم ويجب أن يظلُّوا عبيداً.

أما القرآن الكريم، كتاب الحق والعدل، فكان له شأن آخر مع تلك القضية.

تجفيف المنابع وتوسيع المنافذ:

لم يرد في القرآن نصّاً واحداً يفرض الرِّق، وإنما كان حديث القرآن مفصلاً ومتكرراً حول مسألة تحرير الرقيق، وقد عملت شريعة القرآن على تجفيف منابع الرِّق المتعددة التي عرفتها عصور ما قبل الإسلام؛ إذ كان من الممكن أن يقوم أي هجّام باختطاف سيّارة آمنين والاستيلاء على متاعهم واعتبارهم هم شخصيّاً من الرقيق، وبيعهم.

واستخدمت بعض المجتمعات الرِّق كعقوبة، مثلما فعل الدستور الروماني الذي قضى باسترقاق الأشخاص العاجزين عن سداد ديونهم. واستخدمته فلسطين كعقوبة للسارق كما ورد في قصة يوسف عليه السلام وإخوته: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥].

وعُرِف الرّق أيضاً كأداة تستخدمها الأنظمة المستبدة ضد الفئات المهمشة المستضعفة، ومثال ذلك ما فعله آل فرعون مع بني إسرائيل من قتل لأبنائهم واستبقاء النساء للخدمة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

ثم أتى القرآن الكريم ليجفف تلك المنابع كلها ويحصرها في مصدرٍ واحد، قابل للعفو والتفاوض ألا وهو أسرى الحروب، ولم يجعل ذلك الحكم على الأسرى بالاسترقاق حكماً أبديّاً أو ديكتاتوريّاً، بل حثَّ على العفو عنهم بلا مقابل أو فداء أنفسهم بمقابل مادي من مال أو خدمات، مثلما فعل النبي ﷺ مع أسارى بدر حين طالبهم بتعليم فتيان الأنصار الكتابة ليفتدوا أنفسهم. قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ [محمد: ٤].

ولم يتوقف عمل القرآن على تجفيف المنابع، وإنما وسَّع في منافذ تحرير الرقيق توسيعاً، فجعل تحريرهم من الصدقات والقُرُبات، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٣]، وألزمها كوسيلة من وسائل الكفّارات؛ ككفارة اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكفارة الظهار: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾ [المجادلة: ٣]، وكفارة القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وأقرت شريعة القرآن نظام المكاتبات، وهو أن يفتدي العبد نفسه بمبلغ من المال يحدده سيده، بل وعليه أن يعينه على أدائه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور: ٣٣].

لهم حقوق:

أتى الإسلام لينهي تلك الحالة من التهميش والإذلال، وليدمج الرقيق في المجتمع، ويمنحهم حقوقاً تحفظ لهم كرامتهم على أساس من الأخوة لا السيادة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلا فرق لعربي على أعجمي، ولا أسود على أبيض، ولا أصفر على أحمر إلا بالتقوى.

وقد لعب الموالي دوراً كبيراً في بناء الحضارة الإسلامية على مر عصورها، في إشارة إلى النموذج الإسلامي الفريد في التعامل مع الرقيق، فنجد منهم العلماء كعكرمة مولى ابن عباس، وسالم مولى أبي حذيفة. والسادة الكبراء كسيدنا بلال بن رباح، الذي قال عنه عمر الفاروق: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا ـ أي: بلالاً ـ». ومنهم قادة الجيوش كزيد بن حارثة قائد جيش المسلمين في مؤتة. ومنهم الأمراء كسلمان الفارسي أمير المدائن، رضي الله عنهم وأرضاهم جميعاً، بل إن أكثر أمراء بني العباس كانوا من الموالي. وهذا النموذج الراقي الذي تقدمه لنا الحضارة الإسلامية في التعامل مع العبيد إنما هو وليد شريعة القرآن وسنة النبي ﷺ.

قال المعرور بن سويد ﷺ: لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني سابَبْت رجلاً فعيَّرتُه بأمه، فقال لي النبيﷺ: « يا أبا ذر، أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية . إخوانكم خَوَلُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمْه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

وشجع الإسلام على حُسن معاملة الأسرى، وحملت آيات القرآن الإطراء والثناء على المؤمنين الذين يكرمون الأسرى، بل ويؤثرونهم على أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩]. فكان دأب المسلمين إيثار الأسرى على أنفسهم، واختصاصهم بأفضل ما لديهم.

يقول عزير بن عمير ـ وكان من أسرى بدر ـ: «كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز وأكلوا

(١) متفق عليه. (خَوَلكم: أي الذين يُخوَّلون أموركم، بمعنى يصلحونها).

التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرةٌ من الخبز إلا نفحني بها، قال: فأستحي فأردُّها على أحدهم، فيردُّها عليَّ ما يمسُّها»[1]. وكان الخبز لدى العرب أنفس من التمر؛ لندرة القمح وكثرة التمر، فكانوا يقدِّمونه لهم من باب الحفاوة والإكرام.

هل انتهى الرِّق حقّاً؟

لا، لم ينتهِ الرق في الحقيقة، وإنما انتهى ظاهريّاً فقط، هي مجرد قوانين صورية يتشدق بها أدعياء حقوق الإنسان في مجتمع غربي يكيل بمكيالين، فما زال الرجل الأبيض يرى أنه السيد، وما زال أصحاب «الانتخاب الطبيعي» يرون أن البقاء للأقوى، وما زالت أوروبا تنهش أكثر من ثلث ثروات العالم، بل إن رق عصرنا الحالي أكثر جاهلية من الرق القديم؛ إذ هو يتميز بسرقة الأعضاء، فيسترقُّون الناس أحياءً ويسرقون أعضاءهم وأجسادهم أمواتاً، يقولون قول الملاك ويفعلون فعل الذئب.

والحق أنني لم أتطرَّق إلى الاعتراض الوارد حول الرّق في الإسلام في بداية حديثي؛ لأنني أردتُ أن أشرح الموضوع أولاً بشكلٍ كافٍ ووافٍ في البداية ـ قدر استطاعتي ـ ليتسنَّى فهم الردِّ على الاعتراض.

وأما الاعتراض فيقول: لماذا لم يلغِ الإسلام الرّق بالكلية؟

والرد: إن الإسلام أبقى على الرق لعلة المقاتلة فقط، واستخدمه كخيار من أحد خيارات متعددة لمعاقبة الأعداء المقاتلين للمسلمين، وإلا فإن الأمر بيد الحاكم إن شاء أنفذ الاسترقاق في الأسرى أو لم ينفذه وفق ما تقتضي المصلحة؛

(١) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٨٦). وانظر: السيرة النبوية للصلابي، ص: ٤٠٤.

ولذلك فإنه لا يتعارض إلغاء الرق في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة وفق معاهدات دولية وحسب ما تقتضي مصلحة المسلمين ـ كما في زمننا هذا ـ مع الشريعة، ولكن هذا لا يعني سقوط الرق من الشريعة بالكلية؛ لأن شريعة القرآن صالحة لكلِّ زمان ومكان، وقد تعود تلك العقوبة بالمقاتلة في زمنٍ آخر مستقبلاً! وحينئذ لا بدّ من إنفاذها للمعاملة بالمثل، وأنت ترى بنفسك أنَّ الرّق لم يختفِ في زمننا إلا ظاهريّاً، بينما ترتع ميليشيات وأنظمة في العمل به باطناً وبطرق بشعة وقاسية.

ونؤكِّد مرة أخرى أن الرِّق مجرد خيار في شريعة القرآن، وأن العفو أقرب وأشمل إلا ما استثنته المصلحة، وأن الإسلام أحدث ثورة في التعامل مع العبيد، وحفظ لهم حقوقهم، وجفف منابع الاستعباد الظالمة، وأبقى فقط على منبعه العدل في الحروب كأحد خيارات العقوبة.

الشورى

أما عن الحرية السياسية، فلم يغفل عنها القرآن الكريم، بل تجد أن هناك سورة كاملة من القرآن الكريم تحمل اسم «الشورى»؛ لتمنع استئثار الفرد بالحكم، وتفتح مجال المشاركة في الحياة السياسية لأطياف المجتمع كافة. قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وعلى الرغم من أن محمداً ﷺ نبيٌّ يُوحَى إليه إلا أنه لم يستأثر يوماً وحده بالقرار، ولم يقل: أنا الرسول المعصوم فلا رأي بعد رأيي، بل كان ﷺ يستشير أصحابه في كل ما يخص شؤون الدولة، مثلما حدث في أمر الخروج من المدينة لملاقاة المشركين في غزوة أُحُد، وكما أشار الحباب بن المنذر رضي الله عنه في بدر الكبرى

بالنزول عند ماء بدر، وكذلك نزل النبي ﷺ على رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في غزوة الأحزاب... وغيرها الكثير مما تعدده لنا كتب السيرة.

وصحيح أنه تغير الحال بعد عهد الخلفاء الراشدين، وظهرت فئات استأثرت بالحكم كما وضح لنا التاريخ الإسلامي، إلا أن ذلك ليس سُبة في الإسلام ولا شريعته، وإنما سُبة في حق المنتسبين إليه ممن ابتعدوا عن تطبيق هديه وشرعته، وذلك مصداق ما تنبأ به النبي ﷺ حين قال: «من يعشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»[(١)].

حد الرِّدة

صحيح أنه لم يَرِد الحديث عن حد الردة في القرآن الكريم، إلا أنه محور لا يمكن أن نتغافل عنه أو نسدَّ الآذان حياله فيما يتعلق بقضية القرآن والحرية، والاعتراضات حوله تناوش القرآن الكريم من قريب كانت أو من بعيد، إلا أنني لن أتطرق إلى الاعتراضات إلا بعد أن أبيِّن الموضوع بياناً كاملاً ـ وسع طاقتي البشرية ـ مثلما فعلت في موضوع الرِّق.

ما هي الردة؟

الردة هي أن يكفر الإنسان عزماً بعد دخوله في الإسلام طوعاً. وقد ورد الدليل على حد الردة في السنة النبوية المطهرة، وذلك مثل حديث «مَن بدَّل دينه فاقتلوه»[(٢)]، وكذلك قوله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد في المسند (١٧١٤٢).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠١٧)، وأبو داود في سننه (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، والنسائي (٤٠٦٠)، وابن ماجه (٢٥٣٥)، وأحمد (١٨٧١).

وأَنِّي رَسولُ اللَّه، إلَّا بإحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بالنَّفْسِ، والثَّيِّبُ الزَّانِي، والمارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَماعَةِ»(١).

لماذا حد الردة؟

إنما شُرِّعت الحدود لحفظ الضرورات من الدين والأنفس والأموال والعقول وغيرها... وحد الردة كبقية الحدود، يحافظ على ما من شأنه حفظ الإسلام والمجتمعات، وهو زاجر يمنع الشر عن أمة الإسلام.

١- منع الفتنة عن المسلمين:

لا يمل أعداء الإسلام تشكيك المسلمين في دينهم، فيثيرون الشبهات ويزينون الشهوات، بل ربما قد يدخلون في الإسلام ـ بزعمهم ـ لأجل تحقيق أغراضهم الدنيئة!! وليس هذا كلامي، بل هو وصف القرآن الكريم لحيل بعض أهل الكتاب الذين امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً للإسلام وأهله. قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، «فأنت إذا تأملت في هذه الآيات الكريمة تراها قد حكت عن طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة، هي تظاهرهم بالإسلام لفترة من الوقت ليحسن الظن بهم مَن ليس خبيراً بمكرهم وخداعهم، حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم جاهروا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه، ليوهموا حديثِي العهد بالإسلام أو ضعافَ الإيمان، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة، وأنهم ليس عندهم أي عداء للنبيﷺ، بل إن الذي حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم في الإسلام وجدوه ديناً باطلاً وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر في دين الإسلام.

(١) متفق عليه.

ولا شكَّ أن هذه الطريقة التي سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه تدبيرهم الشيطاني؛ لأن إعلانهم الكفر بعد الإسلام، وبعد إظهارهم الإيمان به، من شأنه أن يدخل الشك في القلوب ويوقع ضعاف الإيمان في حيرة واضطراب، خاصة وأن العرب ـ في مجموعهم ـ قوم أميُّون ومنهم من كان يعتقد أن اليهود أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين. فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على نقص في تعاليمه.

والمتتبع لمراحل التاريخ قديماً وحديثاً يرى أن الدهاة في السياسة والحرب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف أعدائه»[1].

٢- منع التلاعب بالدين:

بعض الناس يتلاعبون بالدين من أجل تحصيل مواريث، أو إتماماً لبعض الزيجات، والبعض قد يغيِّر جلده بين عشية وضحاها من أجل كسب حفنة من المال، وما أكثر هؤلاء في زمننا هذا ممن يستنزف مشاعر أصحاب كل دين طمعاً في أموالهم! فهم يلعبون بالأديان ويتخذونها مطية للسحت والسرقة! والدين ليس لعبة في أيدي هؤلاء ممن لا دين له، فكان لا بدّ لأمثالهم من الردع.

٣- منع انتشار الباطل:

الإسلام دين الحق، ولا خير في حق يناوِئ الباطل ويتركه يرتع في كل مكان، ولذلك فإن المجتمع الإسلامي لا يسمح بالجهر بالباطل من الردة والمعاصي وغيرها؛ فأهل الإسلام يعلمون أنهم متى رضوا بالباطل وارتضوه لأنفسهم استحقوا سخط الله وعقابه العاجل والآجل، وفي عقوبة الردة ردع وزجر لكلِّ

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (٢/ ١٤١ ـ ١٤٢).

من تسوِّل له نفسه إثارة الفتن ونشر الباطل بين أبناء المجتمع.

الاعتراضات

١- محاكم تفتيش موازية:

قد يقول قائل: «إذن يمكننا القول أن حد الردة محكمةُ تفتيشٍ إسلامية».

الرد: لا، لا يمكن القول بذلك؛ لأن البون شاسع بينهما، بل لا وجه للمقارنة بينهما على الإطلاق.

فشريعة القرآن لا تأمر بالتفتيش في بواطن الناس، وإنما تأخذ بالظاهر وتكِل أمر القلوب إلى الله تبارك وتعالى. وفي تلك الحادثة المشهورة عن أسامة بن زيدﷺ لدليل على ما نقول من الكتاب والسنة. قال أسامة بن زيدﷺ: «بَعَثَنا رسول اللهﷺ إلى الحُرَقَةِ مِن جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنا القَوْمَ فَهَزَمْناهُمْ ولَحِقْتُ أنا ورَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ رَجُلاً منهمْ، فَلَمَّا غَشِيناهُ قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عنْه الأنْصاريُّ، وطَعَنْتُهُ برُمْحِي حتَّى قَتَلْتُهُ، قالَ: فَلَمَّا قَدِمْنا بَلَغَ ذلكَ النبيَّﷺ، فقالَ لِي: «يا أُسامَةُ، أقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ؟» قالَ: قُلتُ: يا رسول الله، إنَّما كانَ مُتَعَوِّذاً، قالَ: فقالَ: «أقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قالَ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ؟» قالَ: فَما زالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ حتَّى تَمَنَّيْتُ أنِّي لَمْ أكُنْ أسْلَمْتُ قَبْلَ ذلكَ اليَوم»[1]. وفي تلك الحادثة نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤].

---

(١) متفق عليه.

والنبي ﷺ لم يُبعَث متسلطاً على نوايا الناس ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢]. والمنافقون[١] كانوا في المدينة على عهد رسول الله ﷺ إلا أنه لم يتعرض لهم ولم يقتل منهم أحداً على الرغم من معرفته بأسمائهم فرداً فرداً، والتي لم يُطلع عليها سوى أمين سره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه؛ لأن الأخذ بالظاهر هو خُلُق الإسلام وخُلُق نبيه ﷺ.

ولكن لمّا تغير الحال بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأظهر المنافقون كفرهم الذي لطالما كان مخبوءاً في قلوبهم، فامتنعوا عن أداء الزكاة واتبعوا مسيلمة الكذاب قاتلهم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فيما سُمِّيَ بعد ذلك حروب الرِّدة.

إذن فحد الردة لا يُقَام إلا بعد الجهر بالارتداد عن الإسلام ووصول الأمر للحاكم، وإضافةً إلى ذلك فلا بدّ من الاستتابة للمرتد، فلعل هناك شبهة استعصى عليه حلّها، فلا بدّ حينها من مناظرته وإفهامه، أو لعله مُكرَه، أو أي عذر آخر، المهم أنه لا بدّ من الجلوس معه أكثر من مرة لاستيضاح أمره واستتابته لعله يراجع نفسه.

فإن كنت ما زلت لا تصدق شهادتنا، فاستشهد التاريخ؛ لتعرف رقي العدل الإسلامي ودنو محاكم التفتيش السفّاكة للدماء. والتاريخ يشهد على مذابح محاكم التفتيش وما ارتكبته من قتل وتعذيب ضد الآلاف من المسلمين واليهود، بل وحتى المسيحيين! وكان من اليسير جداً على رجالها ابتزاز الناس لاستنزاف أموالهم، والتلويح فقط بتهمة «الهرطقة»[٢]، وإلا فحياتهم هي المقابل!

---

(١) المنافقون: قوم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

(٢) الهرطقة: هي الإتيان بالبدع المخالفة لأصول الدين.

«ففي عام (١٣٨٠م) عيَّن البابا كليمنت السابع الراهب فرنسيس بورللي كمفتِّش لمحكمة التفتيش، وأناط له البحث عن الهراطقة في وديان بيدمونت (في إيطاليا). وإذ تسلح بورللي بهذا المرسوم البابوي جال في البلاد يقبض على كل من يعثر عليه، حتى أنه في خلال ثلاث عشر سنة حكم على مئة وخمسين ولدانسيا في جرينوبل وثمانين آخرين في فرانسنيير بالموت حرقاً، وقد صار هناك دافعاً مزدوجاً لازدياد حملة الاضطهاد؛ إذ صدر في ذلك الوقت قانون يقضي بذهاب نصف ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام إلى مفتش محكمة التفتيش، والنصف الآخر للأمير المختص. وبهذه الصفة تعاون الجشع والحقد والخرافة ضد الفلاحين العُزّل المساكين، ولكن عمليات الإحراق كانت قليلة ومتباعدة في الزمن، بحيث إنها لم ترو تعطُّش روما لدماء قديسي الله»[1].

وأما عن مذبحة بيزير التي ارتكبها جيش الكنيسة في القرن الثالث عشر الميلادي بفرنسا فيقول أندرو مِيلر: «ووقف القواد عند الأبواب وسألوا رئيس الدير: كيف يمكن للجنود أن يميزوا الكاثوليك من الهراطقة؟ فقال له هذا: اذبحوهم جميعاً. يعلم الرب الذين هم له. وعندئذ ابتدأت المذبحة، فكان السيف يحصد الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز، ونواقيس الكاتدرائية تقرع حتى انتهت المجزرة، وهرعت الجماهير المرتعدة إلى الكنائس لعلها تجد ملجأ داخل الجدران المقدسة، إلا أن هذا لم يغنِهم فتيلاً ولم يفلت من السيف مخلوقٌ بشري واحد، فأصبح سكان بيزير جميعاً أكواماً من الجثث الآدمية مكدسة بعضها فوق بعض، بعد أن كانوا بالأمس يملؤون شوارع المدينة وأسواقها حركة ونشاطاً،

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو مِيلر، ص: ٣٨١، ترجمة: ناشد ساويرس، إنطاكية، مكتبة الإخوة، مصر، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣م.

حتى أنه يقال إن عدد الذين راحوا ضحية هذه المجزرة كان يتراوح بين العشرين والمئة ألف»[١].

«حوالي عام (١٥٦٠م) انتابت البابا بيوس الرابع حمى شديدة من الغيرة القاسية ضد انتشار الهرطقة التي قيل إنها تأصلت بعمق شديد في أنحاء عديدة من إيطاليا، علاوة على وديان بيدمونت. وسرعان ما وضعت سهول الألب جميعها والجهات الموبوة كافة تحت الحرمان البابوي، وانتشر الأذناب ينادون ويبشرون في كل مكان بحرب صليبية جديدة، وقامت الاستعدادات العظيمة على قدم وساق لمحو الهراطقة محواً كاملاً، وانطلق سيف الاضطهاد القاسي يعمل عمله الرهيب في غير شفقة أو رحمة، ولم يعد إلى غمده لما ينيف عن مئة سنة. وبدأت المجزرة وسفك الدماء المرعب، وراحت فرقتان من الجنود بزعامة أعوان البابا تقتل وتحرق وتسلب فلاحي كالابريا العزَّل، حتى كادت عملية الإبادة تكتمل. وصرخت بقيةٌ تسترحم وتستغيث لأجل نسائهم وأطفالهم، واعدين أن يتركوا البلاد ولا يعودوا إليها مرة ثانية، إلا أن الرحمة لم تكن لتجد سبيلاً إلى قلوب المفتشين والرهبان»[٢].

وأما عن سماحة الإسلام فيقول السير توماس أرنولد[٣]: أن «النبيﷺ عقد مع نصارى تغلب معاهدة تسمح لهم باحتفاظهم بدينهم، وأن أمير المؤمنين عمر قد حرَّم استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عندما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم، وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم

(١) مختصر تاريخ الكنيسة، أندرو ميلر، ص: ٣٣٢، ترجمة: ناشد ساويرس، إنطاكية، مكتبة الإخوة، مصر، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣م.
(٢) المصدر السابق، ص: ٣٨٤.
(٣) مؤرخ ومستشرق بريطاني شهير.

الدينية»[١]. ويقول أيضاً: «لم نسمع عن أية محاولة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قُصِدَ منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطَّتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دينَ الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يُعاقب عليه متبِّعوه في فرنسا»[٢].

فيا هذا! كيف تقارن بين السماء والوحل؟! أم هل يمكن للنجوم أن تجاور حصى الأرض؟! ثم بقي أن أهمس لك بشيء: حد الردة موجود في الديانات الأخرى، فلماذا تصوِّب سهامك نحو الإسلام بالذات؟!

٢- هل القرآن يتعارض مع السنة؟

قد يقول قائل: أليس حديث «من بدَّل دينه فاقتلوه» يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾؟

الرد: لا يمكن أن تتعارض النصوص بأي شكل من الأشكال، وكل ما ظاهره التعارض فلا بدّ من فهمه على الوجه الصحيح والجمع بينه، والسنة جاءت مفصِّلة لما أُجمِلَ في القرآن الكريم، وتطبيقاً عملياً لأحكامه من خلال أقوال وأفعال وتقرير النبي ﷺ. والحقيقة أن تلك الشبهة قد عُرِضت عليّ وقرأتها لأول مرة بعد تخرجي في الجامعة قبل عدة سنوات ـ تحديداً عام (٢٠١٤م) ـ، وقد وقفت أمامها مدهوشة، وقد بدا من الكاتب أنه يحاول التشكيك في السنة

(١) الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، ص: ٦٧، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، الناشر: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١م.
(٢) انظر: المصدر السابق، ص: ٩٨.

أو القرآن، لكنني لم أكن أمتلك جواباً وقتها، فكانت تلك الشبهة فاتحة خيرٍ لي؛ لأنها دفعتني للبحث عن الإجابة، وطلب العلم، وقراءة السيرة، وازدياد محبتي لسنة النبي ﷺ، ثم التحقت بعدها ببرنامج صناعة المحاور في نسخته الثالثة، ثم هأنذا أكتب لكم هذا الكتاب ونتحدث سويّاً.

والحق أن الرد على تلك الشبهة بسيط جداً بشكل لم أكن أتخيله حين قرأتها لأول مرة قبل ست سنوات وأنا قليلة العلم ـ وما زلت! ـ؛ لأن الشبهة اعتمدت ببساطة على خلط الأوراق، والتلبيس بين موضوعين لا علاقة لهما ببعضهما؛ فحديث النبي ﷺ موضوعه الرّدة، أي: فيمن جهر بالخروج عن الإسلام بعد دخوله فيه. وأما الآية الكريمة فإنها تتحدث عن الحرية الدينية لغير المسلمين. وقد سبق ووضحنا بالتفصيل كلتا القضيتين؛ ليسهل على كل ذي لبٍّ التفريق بينهما.

بين الطرفين:

وقع خلاف كبير بين العلماء المعاصرين حول حد الردة، والحقيقة أن ذلك الخلاف لم يكن موجوداً بين العلماء المتقدمين، وأعتقد أن الإشارة الغربية المعاصرة الماكرة نحو الإسلام دائماً بأنه دين إرهاب هي التي دفعت البعض إلى محاولة تجميل صورة الإسلام بالتخلي عن بعض الثوابت. والدفاع عن الحق لا بدّ أن يكون بالحق، لا بالتخلي عنه، فبعض علماء العقيدة المعاصرين قد نفوا حد الردة بالكلية، على الرغم من ثبوته بالأحاديث الصحيحة وفعل الخلفاء الراشدين، وبعض علماء الحديث قد أكدوا عليه أشد التأكيد بشكل غير مشروط، وقد وقعت تلك المفارقة أمامي خلال دراستي بالرواق الأزهري، فكان أستاذ العقيدة ينفي حد الردة من أساسه، وكان أستاذ مصطلح الحديث

وعلومه يؤكد عليه بشدة في محاضرات الحديث، إلى أن ألهمنا الله الصواب ـ في رأيي ـ من خلال أستاذ أصول الفقه ـ حفظه الله ـ، وهو الرأي الواقع بين الطرفين، والحق دائماً في الأمور الوسط، فنرى أن حد الردة موجود في الشريعة الإسلامية ولكنه لا يطبق إلا على من جهر بالردة ودعا الناس إليها ووصل أمره إلى الحاكم.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني عشر

القرآن والعلم

الإسلام دين العلم، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أنه لا إسلام بلا علم؛ فإن الله سبحانه لا يُعبَد بالجهل، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩]. وأول آيات نزلت من القرآن الكريم في أمة العرب الأمية نزلت لتمحو عنهم الجهل، وتُعلي من قيمة القلم والعلم. قال ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] فحوَّلتهم من قبائل متناحرة مهمشة لا عيش لها سوى على التنقل والنهب والسلب إلى أمة متعلمة عالمة، تصدِّر العلم ومناراته لمن حولها من الأمم في أقل من قرن من الزمان.

دعوى التعارض

إنه لا تعارض مطلقاً بين الإسلام والعلم، وأي ادعاء بالتعارض هو محض افتراء، وكيف لأمة «اقرأ» أن تحارب العلم؟! إن القرآن يحض على العلم، ويحث على اتباعه وطلبه، ويظهر ذلك جليّاً في مَعرض قصة آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣]. فقد فضَّل الله تعالى آدم على الملائكة بما خصه به من «العلم»، وجعله خليفةً في الأرض، بل وأمر الملائكة بالسجود له احتراماً وتوقيراً لعلمه.

إن ديناً يفرض التعلم والتعليم لا يمكن أن يتعارض مع العلم بأي حالٍ من الأحوال، يقول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[(١)]، وهذا الدين لا يساوي بين العالم والجاهل، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]، بل ويفضل العالم على العابد، ويحث على طلب العلم النافع بكل فروعه؛ لِمَا فيه من إعمار الأرض وإقامة الدين الحق على الهدى والنور والبينات، ويجعل من طريق العلم طريقاً إلى الجنة، يقول رسول الله ﷺ: «مَن سلَك طريقاً يطلُبُ فيه عِلْماً، سلَك اللهُ به طريقاً مِن طُرُقِ الجَنَّة، وإنَّ الملائكةَ لَتضَعُ أجنحتَها رِضاً لطالبِ العِلْم، وإنَّ العالمَ ليستغفِرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، والحِيتانُ في جَوْفِ الماءِ، وإنَّ فَضْلَ العالمِ على العابدِ كفَضْلِ القمَرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلَماءَ ورَثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العِلْمَ، فمَن أخَذه أخَذ بحظٍّ وافرٍ..»[(٢)].

ورثة الأنبياء:

العلماء ورثة الأنبياء، وحملة مشاعل الضياء للناس، رفع الله قدرهم وأعلى منزلتهم. قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٨ ـ ٩)، والألباني في صحيح الجامع (٣٨٠٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) واللفظ له، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧١٥).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]. وهم أهل الفضل والشهادة في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا، فهم شهداء على أعظم مشهود بوحدانية الله تبارك وتعالى. يقول الباري ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] قيل: إن المراد بأولي العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف في خدمة عقيدتهم، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم، وأخلصوا الله في عبادتهم، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم(١). وأما في الآخرة، فهم شهداء على الخلق يوم القيامة. قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وهم أهل الخشية والعمل، العارفون بربهم، الشاهدون بوحدانيته، الواثقون بحكمته، الخاضعون لمشيئته، وأعظمهم بالله علماً أكثرهم لله خشية. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾ [فاطر: ٢٨] فإنما يُعظِّم مقام الله تعالى ويخشاه العالمون به سبحانه؛ لأنهم عرفوا صفاته وشرعه ودلائل قدرته، وإتيان المدح للعلماء في سياق حديث القرآن عن آيات الله الكونية دليل على شمول جميع العلوم الموصلة إلى معرفة الله سبحانه من علوم شرعية وكونية؛ فالعلوم الشرعية بها يُعرَف دين الله وصفاته جل شأنه، وكيفية عبادته كما يحب ويرضى. وبالعلوم الكونية يتفكر الناس في بديع خلقه سبحانه، فيترسخ اليقين بعظمته، وتظهر آثار أسمائه وقدرته ﷻ، ولهذا نجد أن العلم يسير قلباً وقالباً مع الإيمان خطوة بخطوة.

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (٢/ ٥٥).

ولنتأمل كيف حوَّل العلمُ الدكتورَ مصطفى محمود من ملحد إلى داعية، يعلِّم جيلاً كاملاً مبادئ العلم والإيمان في حلقاتٍ ماتعة ينتظرها الكبار والصغار. وكيف انبهر الطبيب الفرنسي موريس بوكاي بالقرآن الكريم فألَّف كتابه (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم). وسنتطرق للحديث عن تجربته لاحقاً في هذا الفصل إن شاء الله. وهذا فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي الذي قرّب معاني القرآن الكريم للعامة، الكبير منهم والصغير، وسطَّر كتابه (الأدلة المادية على وجود الله) الذي تقرر دراسته على طلاب المرحلة الثانوية في مصر إبّان تلك الفترة... وغيرهم الكثير من العلماء العاملين المخلصين الذين انبرت أقلامهم لهداية الناس، وإعلاء كلمة الله، ونشر العلم في كل زمان ومكان ـ غفر الله لنا ولهم ـ.

الحضارة الإسلامية:

كان لإنزال القرآن الأثر الحاسم في تغيير وجه الأرض؛ بما أحدثه من تنوير للعقل البشري وإرساء قواعد العلم في تاريخ الإنسانية؛ فقد كان إشارة البدء لتحويل العلم من خصيصة تتفرد بها بعض الطوائف إلى فريضة تسع كل أتباعه أينما كانوا. يقول الرافعي: «كان العلم عند الأمم التي انطوت قبل الإسلام مما لا يستطيعه إلا طبقات تمتاز به، وتبينها الأمم من نفسها كما تبين سائر الطبقات الإلهية من الملوك والكهنة والأبطال وغيرهم الذين هم آلهة الأمة وأبناء آلهتها أو الواسطة إلى الآلهة، فكانت العلوم من خصائص الكهنة عند المصريين والآشوريين، وفي أبناء الأشراف خاصة عند الغرناطيين والرومان، وفي طائفة وقع عليهم الاختيار عند الهنود واليونان. فكانت الدنيا القديمة على ذلك أو نحوه، لا يصلح العلم فيها إلا أن يكون نظراً وجدالاً بين طائفة تتنافس فيه لا لشيء إلا لأنه عملها وبه وزن أقدارها.

ومتى كانت المنافسة ضيقة محصورة لا يشايع الناس عليها بعلم ولا يصوِّبون فيها ولا يُخطِّئون؛ فهي منافسة أهواء وشهوات ونزغات، يكون فيها العلم سُلَّماً تحطم منها تحت كل قدم ثقيلة درجة، فلما جاء الإسلام حث على طلب العلم وعلى النظر والاعتبار والاستنتاج، وجعل شعار دعوته مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وترادفت أخبار الحث على طلب العلم فيه، فكان هذا سبباً في إطلاق الحرية العلمية للناس جميعاً وخاصةً أهل الأخلاق منهم، الذين هم الطبقة الوسطى في كل أمة والذين بهم قِوام الأمة؛ إذ يحملون ما فوقهم ويمنعون ما تحتهم.

وبذلك نضجت المنافسات العلمية وآتت ثمارها، وأفضى الأمر في العلوم إلى ما وقع من الامتحان ثم الاختراع والاستنتاج. وهذا كله لم يعرفه أساتذة اليوم (الأوروبيون) إلا في القرن السادس عشر للميلاد، وهم قد أخذوه وأخذوا معه كثيراً من الفضائل الاجتماعية عن المسلمين وعلمائهم، لا يكابر في ذلك منصفوهم وذوو الأحلام منهم، وإلى الله ترجع الأمور»[1].

إن العالم كله يدين للقرآن الكريم بالفضل في تغيير مسار العلم ونشره في أرجاء الأرض، وهذا الكلام ليس عاطفة مسترسلة يكتبها أحد أتباعه، وإنما هو حقيقة منصفة سندلل عليها في خضم كلامنا، فمنذ نزول القرآن أشرقت شمس الهداية والعلم، ودخل الناس في دينه أفواجاً، وتحولت الأمة الأمية إلى أمة مستنيرة تحكم نصف بقاع الأرض تقريباً وتقيم الحضارات. والحضارة الإسلامية خير شاهد، فمع نشأة الإسلام تحول العرب إلى طلبة علم؛ وبحلول

(١) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، (ص: ١٦٥ ـ ١٦٦).

القرن الثاني الهجري بدأ التدوين، فكتبوا الأصول وفق قواعد علمية من البحث والاستقراء، وبزغ نجم أئمة الفقه الأربعة، ووصل الفقهاء إلى مستوى عالٍ من الثراء الفكري، لدرجة أنهم افترضوا مسائل فقهية للبحث عنها(١).

وتميزت الأمة الإسلامية بخصيصة علمية تميزها عن سائر الأمم ألا وهي «الإسناد»، حمل لواءه رجال الحديث وأنشؤوا علم الجرح والتعديل؛ تحرياً للصدق وتحملاً لأمانة الرواية. ثم تعدَّى علم الإسناد إلى أغلب العلوم كالأدب العربي والطب والتاريخ، وأهدوه إلى العالم ليكون نموذجاً لهم في منهج النقد العلمي، فمدحه المنصفون وأثنوا عليه، يقول المستشرق مرجليوث: «ليفخر المسلمون ما شاؤوا بعلم حديثهم»(٢). ويقول المؤرخ النصراني أسد رستم في كتابه «مصطلح التاريخ»: «ومما يُذكَر مع فريد الإعجاب والتقدير ما توصل إليه علماء الحديث منذ مئات السنين في هذا الباب، وإليك بعضَ ما جاء في مصنفاتهم نورده بحرفه وحذافيره تنويهاً بتدقيقهم العلمي؛ اعترافاً بفضلهم على التاريخ»(٣).

ثم برع علماء الإسلام في تيسير طلب العلم لمريديه، فألَّفوا المتون والمنظومات العلمية، وهي عبارة عن أبيات شعرية تجمع أصول بعض العلوم وفروعها بطريقة بسيطة يسهل حفظها.

---

(١) المسائل الافتراضية في الفقه الإسلامي (أو الفقه الافتراضي) تدلُّ على الثراء الفكري والترف العلمي وقوة البصيرة لدى فقهاء الإسلام، بافتراضهم مسائل فقهية لم تكن موجودة على أرض الواقع في عصرهم والبحث عن إجاباتها وأحكامها، وبه تميز الأحناف.

(٢) مقالة الإسناد علم فريد وسلاح قاطع، أحمد المنزلاوي، موقع قصة الإسلام:

https: //www.islamstory.com/ar/artical/24030/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%86%D8%A7%D8%AF-%D8%B9%D9%84%D9%85-%D9%81%D8%B1%D9%8A%D8%AF

(٣) المصدر السابق نفسه.

ولم يتوقف الأمر عند حدود العلوم الشرعية، بل كانت الحضارة الإسلامية راعية لكافة فنون العلم النافعة مما يخدم أمة الإسلام ويُعلي شأنها، «وكل علم نافع فهو في الشريعة الإسلامية فرض كفاية، إن لم يوجد في الأمة من يتحقق به أثمت الأمة جميعاً، وإن قام به البعض سقط عن الباقين، ولا يُعرَف مثل هذا الأصل الاجتماعي في غير الإسلام. ولم ترتقِ الأمم الحديثة إلا به؛ فإن لكلِّ علم رجالاً ينقطعون له، يحيون به ويموتون عليه، وهم درجات تُبنى في تاريخ الإنسانية، فالإسلام يفرض على أهله أن يبنوا في هذه الإنسانية»[1].

وقد كان لعلماء المسلمين السبق في تاريخ الإنسانية، والفضل في تأسيس الكثير من العلوم الحديثة قبل أن يتوصل إليها الغرب بمئات السنين، «فخلف بن عباس الزهراوي» الأندلسي (ت: ١٠١٣م) هو «كبير جراحي العالم»؛ قدّم إنجازات طبية عظيمة، واخترع أدوات جراحية ما زال بعضها يُستخدم إلى اليوم! وهو أول من توصل إلى طريقة ناجحة لوقف النزيف، وذلك قبل أطباء أوروبا بستمئة عام! وألف كتابه (التصريف)، وهو موسوعة طبية في ثلاثين مجلداً، ترجمه الأوروبيون وكان المصدر الأساس لأطبائهم وجرَّاحيهم طوال (٥٠٠) عام.

وقد عبّر الجراح بيترو أرغالاتا المتوفى عام (١٤٥٣م) عن شكر أوروبا للزهراوي فقال: «الزهراوي بلا شك هو رئيس كل الجراحين». وكذلك «جابر بن حيّان» أبو الكيمياء ومؤسسها (ت: ٨١٣م)، «والخوارزمي» مؤسس علم الجبر (ت: ٨٥٠م)، «وابن خلدون» مؤسس علم الاجتماع (ت: ١٤٠٦م)، «وأبو ريحان محمد بن أحمد البيروني» مؤسس علم الإنسان ـ ذلك العلم الذي

(١) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، ص: ١٦٨.

يدرس الناس والعادات ـ، وليس هذا فقط، وإنما كان البيروني واحداً من أعظم العلماء في تاريخ العالم، وباحثاً متعدد الاتجاهات، فقد برع في العديد من العلوم كالرياضيات والفلك والصيدلة، وقد أطلقت وكالة الفضاء الأمريكية ناسا اسمه على إحدى فوهات القمر تقديراً لإسهاماته العلمية الجليلة.

وكان للفلكيين المسلمين الفضل الكبير على العالم، أمثال: «مسلمة المجريطي» الأندلسي (ت: ١٠٠٧م)، وابنته فاطمة المجريطية التي ساعدت والدها في تحقيق وتصحيح جداول الخوارزمي الفلكية، ولها كتب ككتاب (تصحيحات فاطمة) وأيضاً (رسالة حول الأسطرلاب) وهو ما زال محفوظاً حتى يومنا هذا في مكتبة الإسكوريال الشهيرة في إسبانيا. وكذلك «ابن الشاطر» الدمشقي (ت: ١٣٧٥م)، الذي سبق كوبرنيكوس في القول بمركزية الشمس بأكثر من (١٥٠) عام، وقد كان حريصاً ﷺ على أن يوجه علمه لخدمة الإسلام والمسلمين، فصنع ساعة سمّاها «صندوق الياقوت» لتحديد مواقيت الصلاة بدقة في المسجد الأموي بدمشق في خلال تلك الحقبة من القرن الثامن الهجري.

«والبتاني» (ت: ٩٢٩م) وهو محمد بن جابر بن سنان المولود في بتّان بالعراق، كان بارعاً في الكثير من العلوم وخصوصاً علم الفلك، وقد حقق مواقع عدد كبير من النجوم، وأجرى أرصاداً دقيقة للكسوف والخسوف، وكان من أوائل الذين اكتشفوا كروية الأرض، وألّف كتاب (الزيج) وهو من أعظم كتب الفلك، وقد ترجمه الأوروبيون إلى عدة لغات، وأطلقوا مؤخراً اسمه على أحد سهول القمر تقديراً لإنجازاته.

كما لم يخلُ علم الفلسفة من إسهامات الفلاسفة المسلمين، الذين استطاعوا أن يُجمِّلوا الفلسفة بصبغة إسلامية، كالكِندي وابن سينا والفارابي وأبي حامد

الغزالي. وزخر كذلك علم التاريخ بالعديد من المؤرخين الذين نقلوا إلينا تاريخ الحضارة الإسلامية أمثال ابن بشكوال الأندلسي، وشمس الدين المقريزي، وابن بطوطة أمير الرَّحالين. وقد ذكرنا أسماء هؤلاء العلماء للمثال لا الحصر، وإلا فهناك الكثير من علماء المسلمين الذين لم نتطرق لذكرهم خشيةَ أن يمل القارئ. ويبقى السؤال: أفبعد كل ما سردناه يُتَّهم القرآن بأنه ضد العلم؟!!!

التوسع الحكمي الزائف:

كان لصراع أوروبا مع الكنيسة تأثير كبير في استمرار ترديد هذا الاتهام الزائف من أن القرآن الكريم ضد العلم! فقد وقعت صراعات مريرة بين العلماء التجريبيين ورجال الكنيسة منذ القرن السابع عشر الميلادي، تم في خلالها محاكمة الكثير من العلماء أمثال كوبرنيكوس وجاليليو؛ بسبب أن مكتشفاتهم العلمية تخالف عقائد الكنيسة. وانتهى الحال بانقلاب شعوب أوروبا على الكنيسة وانتشار التيار العلماني المعادي للأديان، والذي وصل للعالم الإسلامي عبر الاحتلال العسكري إبان ضعف الدولة العثمانية ثم سقوطها بعد ذلك، واستمر طيلة العقود الماضية وحتى الآن من خلال الهيمنة الثقافية للغرب.

يقول الدكتور سلطان العميري: «يعد الادعاء بأن العلم التجريبي معارِض للدين القاعدةَ الصلبة التي ينطلق منها الناقدون للأديان في هذا العصر، ويمثل المرتكز الأساس الذي تتأسس عليه ظاهرة النقد المعاصرة للدين في الفكر الغربي والعربي؛ فلا يكاد يتحدث أولئك القوم عن مواقفهم المعادية للدين إلا ويصرخون بأن العلم التجريبي أثبت خطأ الدين، وانحرافه عن الحقيقة والوجودية والمعرفية»[1].

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، سلطان العميري، (١/ ٤٦٠)، مركز تكوين، المملكة المتحدة ـ لندن، ط ٢، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م، عدد الأجزاء: ٢.

والتوسع الحكمي الزائف بوضع القرآن الكريم ورجال الكنيسة الأوروبية في سلة واحدة هو ظلم بيِّن للقرآن وحضارة الإسلام، وادعاء بلا دليل، بل حينما حاولت الأمة الإسلامية السير خلف النهج العلماني الغربي في محاولة يائسة للحاق بركب التقدم الحضاري بتنحية القرآن الكريم جانباً وتقزيم دوره صارت في ذيل الأمم، فلا أرضاً طالت ولا سماء، فلا علماً وصلت، ولا قرآناً حفظت؛ لأنها نحَّت (البوصلة) التي تحدد لها الاتجاه الصحيح، وهذه البوصلة هي (القرآن)، ومن فقد البوصلة ضلَّ الطريق، ومن ضلَّ الطريق فمن المستحيل أن يصل إلى هدفه ووجهته.

لمن الحاكمية؟

لمن الحاكمية إذن؟ هل هي للقرآن أم للعلم التجريبي؟ لقد ادَّعى أنصار التيار العلماني أن العلم التجريبي يستطيع أن يجيب على كل تساؤلات البشر وأن يهب السعادة للإنسانية، فهل استطاع العلم التجريبي أن يفعل ذلك حقّاً؟ وهل نجح في أن يكون بديلاً للقرآن الذي رُمِيَ زوراً بمحاربة العلم مثلما ادَّعى ملحدو العرب؟!

الإجابة حتماً (لا)، وسنورد تفاصيل ذلك في نِقاط:

(١) العلم التجريبي لا يستطيع الرد على التساؤلات كلها:

ينحصر مجال العلم التجريبي في الأشياء المادية المحسوسة القابلة للخضوع إلى التجارب المعملية، لكنه لا يستطيع مثلاً أن يتطرق إلى موضوعات كالجمال، والمبادئ، والأخلاق، والعلل والغايات، والفنون، وما وراء الطبيعة، وهي بالطبع مجالات لا غنى عنها للحضارة الإنسانية. يقول سير بيتر ميداوار ـ الحائز على جائزة نوبل ـ أن الادعاء بأن العلم يمكنه الجواب على كل الأسئلة

من الأسباب الجالبة للعار، ثم ذكر: «إن وجود حدود للعلم شيء واضح من عجزه عن الإجابة عن أسئلة من مستوى ما يسأله طلاب المراحل الابتدائية مما يتعلق بأول وآخر الأشياء، الأسئلة من نوع: كيف بدأ كل شيء؟ لماذا نحن كلنا هنا؟ ما الغاية من الحياة؟»[١].

ويذكر الفيلسوف وعالم الرياضيات الإنجليزي د. جون لينكس أنه لو كانت دعوى النزعة العلموية صَحيحة؛ فإن ذلك يعني فوراً: «إلغاء كثير من مناهج المدارس والجامعات؛ لأن تقييم الفلسفة والأدب والفن والموسيقا يقع خارج حدود العلم تماماً، كيف يمكن للعلم أن يخبرنا بأن قصيدة ما عبقرية أو مجرد قصيدة سيئة؟ من المؤكد أن هذا لن يتم بقياس طول الكلمات وتواترها في القصائد. وهل يستطيع العلم أن يخبرنا بأن لوحة ما هي قطعة مميزة فنياً أم مجرد خربشات ألوان متداخلة؟ من المؤكد: لن يستطيع بعمل تحليل كيميائي للألوان والقماش الذي رُسِمَ عليه، وكذلك تعليم الأخلاق يقع خارج حدود العلم أيضاً، فالعلم يقول لك: إن أضفت مادة الستركنين إلى شراب أحدهم فستقتله، ولكن العلم لا يخبرك إن كان يصح أخلاقياً أن تدس الستركنين في شاي جدتك كي تستولي على ممتلكاتها؟»[٢]. إذن فالعلم التجريبي عاجز عن الرد عن أسئلة خارج حدود مجاله.

(٢) نظريات تُبنَى وتُهدَم:

إن البناء العلمي لا يسير على وتيرة واحدة، بل إن أي نظرية علمية من نظرياته معرضة للهدم في أي وقت باكتشافٍ جديد، كما حدث في نظرية كوكب فولكان

(١) أقوى براهين جون لينكس، أحمد حسن، ص: ٦٩ نقلاً عن كتاب ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ص: ٤٤٩ (بتصرف).

(٢) أقوى براهين جون لينكس، أحمد حسن، ص: ٦٩ نقلاً عن كتاب ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ص: ٤٥٠ (بتصرف)..

المفترض التي نقضتها نظريات آينشتاين النسبية، وكذلك نظرية الانفجار العظيم التي هدمت نظرية الكون الساكن ...وغيرها، بل ويصرح أصحاب تلك النظريات بأنهم يمكن أن يتخلوا عنها في يوم من الأيام إذا تبين لهم أمر آخر مغاير.

إذن فالنظريات العلمية ليست حقائق ثابتة، بل إن الكثير منها إنما يعد «فرضيات»، أي تخمينات علمية لم تصل إلى درجة الحقيقة، كنظرية التطور التي يأخذها التيار العلماني كإحدى المُسلَّمات على الرغم من كونها تتضمن فروقات ومشكلات كثيرة تجعلها في مأزق حقيقي، كافتقارها للكثير من الأدلة المادية، ومصادمتها للانفجار الكامبري[1]، وعجزها عن تفسير التطور الكبروي ... وغيره. وكذلك فرضية الأكوان المتعددة التي لا تعدو أن تكون مجرد تخمين فيزيائي وليس مستنداً ألبتة على أي معطى تجريبي.

والسؤال الآن: هل يُحاكَم القرآن الثابت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إلى نظريات العلم التجريبي المتغيرة المعرَّضة للهدم في أي لحظة أو مجموعة من الفرضيات التي لا ترقى لمستوى الحقيقة بأي حال؟! هل يُرَد الثابت إلى المتغير؟ أم أن المتغير يُرَد إلى الثابت؟!... هذا سؤال نترك إجابته للعقلاء!

(٣) التعدي إلى المدلولات:

يتخصص العلم في أن يقدم لنا تفسيرات لِما يحدث حولنا، لكن ليس من حقه أن يتعدى إلى إعطاء مدلولات خارج نظرياته، فمثلاً نظرية كنظرية نيوتن في الجاذبية استغلها تيار الإلحاد في إنكار وجود الله، بقولهم: (أن الله لا يمسك

(١) الانفجار الكامبري: هو حقبة زمنية ظهرت فيها مجموعة من الأنواع المعقدة فجأة، وكأنها زُرِعت فيها دون أن تكون متطورة من سلفٍ سابق، وهو اعتراض مشهور.

الكون؛ فالكون متماسك بقوانينه)، وهذا بالطبع خلط متعمد بين النظرية ومدلولها المعرفي وفق أيديولوجيات مسبقة، وإلباس ما ليس علمياً ثوب العلم، فهل أنا مثلاً إذا شرحت لك خطوات تصنيع السيارة يعني أن قوانين الميكانيك الهندسية هي التي قامت بصنعها؟! إذن أحضر أجزاء السيارة ودعها تكون نفسها!!! والبنك يعمل وفق قوانين المحاسبة، فهل هذا يعني أن قوانين المحاسبة هي التي قامت ببناء البنك؟! إن البون شاسع بين أن تسأل (كيف حدث؟) وأن تسأل (مَن المُحدِث؟) أو (مِن أين البداية؟).

يقول الدكتور دِراز: «التفسير الديني للكون يتخطى الإدراك العلمي ويسمو عليه؛ لأنه يوافق الفكرة العلمية ويحتويها، بل يتجاوزها إلى ما لا نهاية. فعندما يقف العلم عند تقدير وملاحظة الأسباب المتتالية ومراحلها الوسيطة، فإن النظرة الميتافيزيقية لا تقف عند هذا الحد، ولا تجد رضاها وإشباعها إلا بالصعود إلى بداية البدايات التي تفسر كل شيء ولا يستطيع شيء أن يفسرها تفسيراً كاملاً. فالمتناهي يحتل ركناً صغيراً من اللا متناهي. فلا ننبهر فوق الحد إذن عند رؤية العمل الإنساني أو ظواهر الطبيعة مهما كانت عظمتها، والسلطان الذي يتصرف بموجبه أيُّ صانع معجزات ـ وهو سلطان محدود بالزمان والمكان وبما يحدثه من أثر ـ لا يعدو أن يكون سلطاناً معاراً وعرضة لأن يسحب من جانب من أعاره ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[1].

إذن فمحاولة فرض هيمنة العلم فيما هو خارج اختصاصه من مدلولات واستنباطات زائفة هي محاولة غير شريفة لتحقيق مكاسب مادية أيديولوجية، مثلما استغلت الفاشية نظرية الانتخاب الطبيعي لدى داروين بأن (البقاء

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ص: ٧٦ ـ ٧٧.

للأصلح والأقوى) في تبرير الحروب وإفناء بعض الأجناس البشرية بزعم أنها عناصر ضعيفة لا بدّ من القضاء عليها كما حدث في الحرب العالمية الأولى. ولم يضيع الماركسيون الفرصة أيضاً في استغلال نظرية التطور لتأييد أيديولوجيتهم بادعاء أنها تدلُّ على أصل الصراع بين الطبقات. كذلك استغل الرأسماليون نظرية الحتمية البيولوجية في تقديس الجنس الأبيض والعنصرية ضد السود، ونتيجة لذلك نشأ ما يُسمى بـ(العلم الموَّجه).

(٤) هل استطاع العلم إسعاد البشرية؟

على الرغم من الثورة المعرفية التي أحدثها العلم والتي يسرت حياة الإنسان بشكلٍ كبير إلا أنه لم يستطع إسعاد البشرية، بل كان أداة ساهمت في تدميرها من خلال الحروب واختراع الأسلحة الفتّاكة، واختلال النظام البيئي بتجريف التربة وقطع الأشجار وتراكم النفايات السامة وعوادم الغازات؛ ما أدى إلى تغيير المناخ وحدوث مشكلات كثقب الأوزون والاحتباس الحراري.

وفي الكشف عن المأزق الذي تسبب العلم في إحداثه في حياة الناس وتخييبه لآمالهم، يقول مؤلفا كتاب (انتحار الغرب): «كان من المعتاد أن يُعتقَد أن العلم سوف يمنح العالم منافع ضخمة، وكان من المعتاد أن يكون قادراً على الوفاء بهذه التوقعات، لكن قبل ذلك هناك تيار مضاد قوي في التقدير العام للعلم، وهو التيار الذي كان قد بدأ في السنوات التي كانت بين الحربين الأولى والثانية... وهو أن العلم ينزع عن الإنسان صفاته الإنسانية، وكان أداة سهلة جداً للمستبدين ومنح الامتيازات للنخبة، وتضاعف الشك في العلم على نحو كبير، وتعمق نتيجة لفظائع هيروشيما. وقد عبر العلماء البارزون عن شكوكهم، وقال آينشتاين بعد هيروشيما: «لو كنت أعرف أنهم يستعملون هذا، لكنت

عملت صانع أحذية»... ومنذ الستينيات بدأت الدلائل تتراكم وتشير إلى أن انتصارات العلم كانت قد بدأت في تسميم ماء الكوكب وهوائه وتربته...»[١].

بالإضافة إلى تقويض العلم للقيم الإنسانية كالأخلاق والمبادئ، والمكونات الحضارية كالفن والأدب، والتفكير في العلل والغايات، والحكم على تلك الأشياء بعدم نفعيتها لكونها غير مادية، أو محاولة صبغها بصبغة تجريبية مشوهة؛ ما أدى إلى إهلاك الإنسان نفسياً بحصره في دائرة ذاته وملذاته، ودفع العالم نحو الانتحار.

يذكر الفيلسوف المعاصر روجيه جارودي حقيقة النزعة العلموية، ويؤكد أن هذه الوضعية الحصرية تستبعد أرفع أبعاد الحياة: «الحب، الإبداع الفني، الإيمان». ثم ذكر آثار ذلك على التفكك القيمي والأخلاقي والمعرفي الذي أُصيب به الفكر الغربي فقال: «إن هذه الأصولية العلموية المنحطة هي في آنٍ أحدُ مشيرات وأحد عوامل هذا التفكيك للثقافة الغربية، التي تغذي روحية تكنوقراطية، فتَوسُّع سلطاتنا وقدراتنا التقنية دون تأمل في الغايات الإنسانية إنما يقود إلى تحطيم الإنسان وكوكبه، وليس إلى تفتحهما الحيوي»[٢].

ويصف ألبرت آينشتاين العلم فيقول: «إنه لم يستخدم حتى اليوم إلا في خلق العبيد، ففي زمن الحرب يستخدم في تسميمنا وتشويهنا، وفي زمن السلم يجعل حياتنا منهوكة مرهقة»[٣].

---

(١) انتحار الغرب، ريتشارد كوك وكريس سميث (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠) نقلاً عن كتاب ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث لسلطان العميري (١/ ٤٦٨).

(٢) الأصوليات المعاصرة، روجيه جارودي، ص: ٢٤ نقلاً عن كتاب ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (١/ ٤٥٩).

(٣) دفاع عن العلم، باييه، ص: ٣٦ نقلاً عن كتاب ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (١/ ٤٦٨).

(٥) اعتراض خاطئ:

ادَّعى الملحدون أن العلم التجريبي هو البديل عن القرآن الكريم؛ لكون الأخير لم يستطع أن يقدم تفسيرات علمية تجريبية للقضايا الكونية وغيرها. ونردُّ عليهم بأن هذا الاعتراض خاطئ في ذاته؛ لأن المقارنة بين الطرفين غير صحيحة؛ لكونهما غير متساويين، وهي مبنية على سوء تصور لحقيقة دين الإسلام ولهدفه الأول.

يقول الدكتور سلطان العميري: «إن الهدف الأوّلي من دين الإسلام ليس شرح القضايا الفلكية، ولا إعطاء صورة مفصّلة عن مكوناتها، وإنما هو في الأساس دين لإرشاد الناس إلى عبادة الله، وتنبيههم على آياته في الكون الدالة على عظمته وجبروته وجلاله، وكذلك ليس من هدف القرآن الإرشاد إلى كل الآيات الموجودة في الكون، وإنما هدفه الأساس إرشادهم إلى الدلالات الظاهرة البينة للناس، التي يدركونها بأبصارهم. ولأجل هذا اقتصر على الآيات الظاهرة، كالسماء والأرض والجبال والسحب والمس والقمر ونحوها... فعدم حديث القرآن إذن عن تفاصيل القضايا الفلكية ليس عيباً ولا نقصاً. فعدم الحديث عن الشيء لكونه غير داخل في المقصود ليس مما يُعاب عليه ثم يُدَّعى فيه النقص، ولا يكون ذلك كذلك إلا إذا التزم القرآن بأن من أهدافه توضيح كل التفاصيل الفلكية وبيانها، ولكنه لم يلتزم ذلك لنفسه ولم يجعله من أهدافه وأغراضه، فكيف يصح أن ندعي بأن عدم ذكره لذلك نقص فيه؟!

وهذا الأمر ليس خاصاً بالقضايا الفلكية فقط، بل هو شامل لكلِّ القضايا الكونية والتجريبية والجغرافية والطبيعية والطبية وغيرها، فحديث الإسلام عن هذه الأمور إنما هو عن طريق العرض وليس عن طريق القصد والهدف؛ أي: إنه

إنما يتحدث عنها لمصلحة تتعلق بإرشاد الناس إلى دينهم، ولا يتحدث عنها على أنها مقصودة له بالقصد المباشر»[١].

ومع ذلك فإنه لم يخلُ القرآن الكريم من الدلائل العلمية التي يسميها البعض بـ «الإعجاز العلمي»، وذلك باكتشافات علمية مبهرة سبقت العلم التجريبي بأكثر من ألف سنة، وكانت سبباً في إسلام البعض.

❋ ❋ ❋

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، سلطان العميري، (٢/ ٤٦٨ ـ ٤٨٥).

الإعجاز العلمي
في القرآن الكريم

«كنت أحسب أن القرآن صاحبي، وأنه ائتمنني على أسراره، ولمّا قرأت عن إعجاز القرآن أدركت مدى جهلي ومدى تقصيري في حق الصحبة... القرآن مليء بالأسرار والأنوار، كالذهب في باطن الأرض واللآلئ في الأصداف... تحتاج إلى من يفهمها ويستخرجها... اليوم فقط أدركت مدى جهلي أستاذي»... كانت تلك جزءاً من رسالة كتبتُها قبل عام إلى أستاذي الدكتور عبد الواحد أبو حطب المدرِّس بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف، ولا أدري لماذا تذكرتُ تلك الرسالة الآن بالذات؟! قد يكون لأن الناس قد حصروا إعجاز القرآن الكريم في عصرنا الحديث في جانب واحد فقط وهو الإعجاز العلمي، وغالوا فيه تاركين بقية الجوانب!. ربما!...

لكن الذي أعلمه جيداً وأردت إخبارك به عزيزي القارئ أن القرآن الكريم كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد خزائنه من جميع جوانبه، سواء الجانب اللغوي أو العلمي أو الجانب الإصلاحي الاجتماعي، بيد أن الإعجاز اللغوي هو الأساس؛ لأنه الجهة التي وقع بها التحدي للعرب وغيرهم جملةً وتفصيلاً ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ: «من إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخي

المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عالياً يفوت طاقة الدارسين»[١].

ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيَّر به وجه التاريخ، أو تلك النواحي مجتمعة، على أن يكون له الخيرة بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية. وسواء علينا أيضاً أن يُنظَر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصاً خيالياً تجمعت فيه مرانات الأدباء، وسلطات الزعماء، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله: هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب، وتتضاءل دونها قوة كل عالم، وكل زعيم، وكل شاعر وكاتب، ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب، بل قد تنقضي الدنيا كلها ولمّا يُحط الناس بتأويل كل ما فيه ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣][٢].

إنه لن يملك صاحب كل عقل منصف يتأمل آيات وسور القرآن الكريم إلا الإقرار بأنه من لدن الله العظيم، وأنه لا يحتمل بأي حال من الأحوال أن يكون عمل بشر ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبما أن موضوعنا عن القرآن والعلم فسنتطرق إلى الحديث عن جانب الإعجاز العلمي.

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، بنت الشاطئ، ص: ١٥.

(٢) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص: ٧١.

قَبول لكن بشروط!

اختلف العلماء حول قبول الإعجاز العلمي من عدمه، وهل هو يعتبر فعلاً «إعجازاً» أم مجرد «دلائل علمية» على صدق القرآن؟ وقد وقع هذا الخلاف نتيجة للمبالغة في تعاطي التفسيرات العلمية للقرآن في عصرنا الحديث من أجل إرضاء التيار العلماني السائد، وقد يكون هذا بحُسن نية من أصحابه من أجل إظهار محاسن القرآن.

لكنّ الإسراف يوقع في المحذور؛ لأن معاني القرآن ليست قالباً يتشكل بحسب كل تيار جديد؛ ولذلك يقول الدكتور دِراز: «لكن الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن، بحيث أصبحت خطراً على الإيمان ذاته؛ لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النَّص باستنطاقه ما لا تحتمله ألفاظه وجمله، وإما أن تعول أكثر مما يجب على آراء العلماء وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يصعب التحقق من صحتها»[(١)].

وبعيداً عن هذا الخلاف، وأيّاً كان التعامل مع المكتشفات العلمية في القرآن الكريم من جهة كونها معجزات أو دلائل، فإننا لا نوافق من أسرف في الإعجاز العلمي في القرآن، فكان كحاطب ليل ينجرف خلف أي نظرية مستحدثة، عابثاً بمعاني كتاب الله ﷻ. وكذلك لا نوافق من أغلق بابه بالكلية ورفض الاعتراف بالإعجاز العلمي.

بيد أننا نتفق مع أصحاب المذهب الوسط، الذي أقرَّ بقبول الإعجاز العلمي (أو التفسير العلمي) في القرآن الكريم لكن بشروط من شأنها أن

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، ص: ١٦٢، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ـ مصر، ٢٠١٤م.

تحفظ النصوص من ليّ العنق تحت وطأة المكتشفات العلمية غير الموثوقة. وعليه؛ فقد حدد العلماء بعض الشروط لقبول التفسير العلمي، منها:

(١) أن يكون الاكتشافُ العلمي المفسَّر به حقيقةً علمية ثابتة؛ حتى لا يتم العبث بمعاني النَّص القرآني من خلال نظريات محتملة معرَّضة للهدم.

(٢) أن تحتمل الآية هذا القول العلمي الحادث، على ألا يتم الاقتصار عليه دون الأقوال التفسيرية الأخرى.

(٣) ألا يضاد هذا التفسير العلمي الحادث قول جمهور السلف.

وغيرها من الشروط التي حددها علماء علوم القرآن من أجل الحفاظ على قدسية كتاب الله.

بعض صور الإعجاز العلمي

(١) مراحل خلق الإنسان:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، ويقول عز من قائل في سورة نوح: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

ـ وسلالة من طين مقصود بها خلق أبي البشر آدم عليه السلام.

ـ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، أي: ثم خلقنا ذريته متناسلين من نطفة ممزوجة من ماءَي الرجل والمرأة تستقر في الرحم إلى حين الولادة. قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ـ ثم بيَّن تعالى مراحل تخليق الإنسان في الرحم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

أي: فخلّقنا النطفة المستقرة في الرحم إلى علقة حمراء من دم متجمد، ثم إلى قطعة لحم قدر ما يُمضَغ فخلقنا قطعة اللحم تلك عِظاماً متصلّبة فألبسنا تلك العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه وإخراجه للحياة، فتبارك الله أحسن الخالقين[1].

وكان الناس يعتقدون أن الإنسان يُخلَق كقزم كامل من دم الحيض أو داخل البويضة أو في رأس الحيوان المنوي ـ بعد اكتشافهما في القرن السابع عشر ـ، إلى أن ظهر بطلان ذلك على يد العالم سبالا نزالي في نهاية القرن الثامن عشر عام (١٧٧٥م)، ليبطل كل هذه النظريات ويثبت أن الإنسان يُخلَق من كل من الحيوان المنوي والبويضة، وذلك عين ما أخبر به القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان.

(٢) الجلد مصدر الإحساس:

كان الاعتقاد السائد قبل عصر الكشوف العلمية أن الجسم كله حسّاس للألم، حتى بيّن العلم أن هناك نهايات عصبية في الجلد متخصصة في نقل الإحساس بالحرارة والألم إلى المخ كي يستنفر الجسم بدوره للابتعاد عنها. وأثبت العلماء أن المصاب باحتراق كامل للجلد لا يشعر بالألم كثيراً؛ نتيجة تلك الناقلات العصبية، بخلاف الحرق الأقل درجة، حيث يكون الألم على أشده نتيجة إثارة

(١) انظر: المختصر في التفسير، سورة المؤمنون.

تلك النهايات العصبية المكشوفة[١]. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]، وذلك في سياق الحديث عن عذاب أهل النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ وأنهم حينما تنضج جلودهم ويتلاشى إحساسهم بالألم يبدَّلون بجلودٍ جديدة ليستمر العذاب.

وقد كانت تلك الآية سبباً في إسلام مواطن بريطاني يدعى «دارين مايت» ـ واسمه بعد الإسلام «حمزة» ـ، يقول: «نشأت في جنوب ويلز في بيت أبي وزوجته، وكان المكان الذي أسكن فيه عبارة عن مقاطعة للبِيض، وقانون البقاء للأقوى هو القانون الأساس السائد! فانتهى بي الحال إلى مصاحبة الغوغاء. فكنت أسافر لمتابعة مباريات كرة القدم وأدخل في عراك مع أيٍّ كان، ثم صرت فرداً من عصابة يسرقون المتاجر، بمعنى أني لم أكن قدوة حسنة في المجتمع! وذات يوم وقعت في مشكلة فاضطررت للاتصال بأمي أستنجدها ـ وكانت تعيش في مانشستر ـ، فأخبرتني أن آتي إليها للعيش معها، وحاولت أمي أن تجد لي عملاً كبائع في محل ملابس، حتى وجدنا صاحب محل مسلم فأقنعته أمي بعملي عنده فوافق».

ثم يستطرد قائلاً: «سمعت القرآن لأول مرة في حياتي عندما جاءت أخت صاحب المحل لزيارته وحاولت أن تدعوني إلى الإسلام، فلم أكترث بمحاولتها؛ فقد كنت مغروراً وأحاول ادعاء الحذق والذكاء، فقلت لها: اسمعي... أنتِ تعتقدين أني سوف أذهب إلى النار إذا لم أصبح مسلماً... أليس كذلك؟ قالت:

(١) انظر: هذا هو القرآن العظيم، محمد بن موسى الشريف، ص: ٨٨، سلسة الإصدارات القرآنية لقناة الفجر الفضائية (٥)، ط ١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

نعم، قلت لها: وماذا في ذلك؟ عندما تذهبين إلى النار ويحترق جلدك يصبح الجلد مخدراً وفاقداً للإحساس، إذاً سوف أحس بالنار مرة واحدة وبعدها لن أحس بها، فقالت: يقول الله أنه عندما تحترق وتظن أنك لن تحترق أكثر سيُبدل جلدكم بجلدٍ جديد... فوقع ذلك في قلبي.

ثم بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدأت أقرأ عن الإسلام؛ لأني كنت مقتنعاً أن المسلمين ليسوا إرهابيين كما يصورهم الإعلام، فليس هذا تفكيرهم! وبعد قراءتي أدركت أن الإسلام دين عملي، وأنه يناسب القرن الحادي والعشرين أكثر من أي شيء آخر، وبدأت أطبق تعاليمه في معظم أمور حياتي، وتوقفت عن شرب الخمر. كنت أعلم أن الإسلام هو الحق لكني كنت متردداً خوفَ أن أخسر عملي الربويّ وصديقتي ومكان سكني، فماذا أفعل؟ حتى أتى اليوم الذي تعرضت فيه لحادثة غيّرت مسار حياتي، فبينما كنت أقود السيارة على الطريق السريع في ليلةٍ مطيرة، لم ألحظ إشارات الخطر التي تغلق المسار الذي كنت أسلكه، فصدمت إشارات التحذير وبعثرتها في كل مكان، وانزلقت مني السيارة وأنا أحاول عبثاً التوقف! حتى توقفت السيارة أخيراً وجلست أفكر... كان من الممكن أن أموت الآن! وتذكرت حينها الآية التي قالتها أخت صاحب المحل في مانشستر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَـٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦]، وهنا تأكدت أنه لا مبرر للانتظار... أريد أن أصير مسلماً، هذا هو السبب الأساس والحقيقي لاعتناقي الإسلام، وهو أنني لا أريد أن أحترق!! أريد النجاة من عذاب النار»[1].

(١) كان ذلك في لقاء مع الشيخ فهد الكندري ضمن برنامج (بالقرآن اهتديت)
رابط الحلقة على اليوتيوب: https: //youtu.be/zaolGfWBChI.

ادعاء وجود أخطاء علمية

دعونا نتفق أن القرآن الكريم لا يمكن أن يتعارض مع عقل صريح ولا علم يقيني، والمزاعم التي تقول بوجود أخطاء علمية في القرآن الكريم هي كغثاء السيل لا وزن لها، وهي إما ناتجة عن خطأ في فهم معاني القرآن الكريم، أو التسليم لفرضيات علمية لا ثبات لها.

النبي ﷺ يردُّ بنفسه:

كان النبي ﷺ نِعمَ المُبلِّغ والمدافع عن كتاب ربه تبارك وتعالى، وقد تصدى ﷺ بنفسه لرد أي شبهة تزعم وجود خطأ في القرآن الكريم، وقد أثار نصارى نجران إحدى تلك الشبهات في عهده ﷺ، بادعاء وجود خطأ تاريخي في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. ومن المعلوم في علم التاريخ أن مريم عليها السلام كانت بعد هارون بن عمران (أخو نبي الله موسى عليه السلام) بما يربو على الألف سنة!

يقول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: لمّا قدمتُ نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. فلمّا قدمت رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «إنهم كانوا يسمَّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[(١)]. وبهذا البيان النبوي تبين أن هارون أخا البتول مريم ليس بهارون أخي موسى كما توهم نصارى نجران والمبطلون من بعدهم، وأن رد الشبهات عن كتاب الله من هَدي النبي ﷺ.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٣٥).

تهافت الشبهات المزعومة

(١) في عين حمئة:

قال المبطلون: «كيف للشمس أن تغرب في عين حارة من طين مثلما ورد في قصة الملك ذي القرنين في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ [الكهف: ٨٦]؟» وهذا الزعم إنما ينم عن عدم فهم للغة العربية، وأن القائلين به لا يدركون أدنى قواعدها.

إن القرآن الكريم في هذه الآية وصف ما تبدّى لمرأى ذي القرنين ساعة الغروب، وهذا مثل ما يراه الناظر من غروب الشمس في البحر أو سطوع النجم فوق الجبل وغيره، ولهذا قال ﷻ أنه ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ بمرأى نظره، ولم يقل «وجد أنها تغرب في عين حمئة» كحقيقة كونية.

وقد أشار لهذا المعنى جمهور المفسرين من السلف، قال القرطبي ﷺ: قَالَ الْقَفَّالُ: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «لَيْسَ الْمُرَادُ أنه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جرمها ومسَّها؛ لأنها تدور مَعَ السَّمَاءِ حَوْلَ الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تلتصقَ بِالْأَرْضِ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَ فِي عَيْنٍ مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ، بَلْ هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَرْضِ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعِمَارَةِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، فَوَجَدَهَا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ، كَمَا أَنَّا نُشَاهِدُهَا فِي الْأَرْضِ الْمَلْسَاءِ كَأَنَّهَا تَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٠] وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهَا تَطْلُعُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ تُمَاسَّهُمْ وَتُلَاصِقَهُمْ، بَلْ أَرَادَ أَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ تَطْلُعُ عَلَيْهِمْ»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (١١/ ٥٠).

وقال ابن كثير ﷺ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أَيْ: رَأَى الشَّمْسَ فِي مَنْظَرِهِ تَغْرُبُ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنِ انْتَهَى إِلَى سَاحِلِه، يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِيهِ، وَهِيَ لا تُفَارِقُ الْفَلَكَ الرَّابِعَ الَّذِي هِيَ مُثَبَّتَةٌ فِيهِ لا تُفَارِقُه[1].

وقال ابن تيمية ﷺ: قَوْلُهُ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: العين في الأرض، ومعنى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: في رأي الناظر باتفاق المفسرين، وليس المراد أنها تسقط من الفلك فتغرب في تلك العين؛ فإنها لا تنزل من السماء إلى الأرض، ولا تفارق فلكها. والفلك فوق الأرض من جميع أقطارها لا يكون تحت الأرض[2].

وإن تغاضينا عن عدم فهمهم للعربية وأساليبها، فكيف يمكن أن يُنسَب قولهم هذا للقرآن الكريم والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، حيث يقرر القرآن أن لكلِّ جُرم فلكه الخاص الذي لا يحيد عنه ولا يتداخل مع غيره، ومن ثَمَّ يظهر بطلان قول هؤلاء من جميع النواحي.

(٢) كروية الأرض:

ادَّعى بعض المعترضين أن القرآن يقول بعدم كروية الأرض، وأنها إنما مسطحة منبسطة، واستدلوا على كلامهم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ﴾ [الرعد: ٣]، و﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وجوابنا على هذا القول سيكون قريباً من منهجنا في قضية «العين الحمئة» السابقة؛ فإن ادعاءهم هذا يدلُّ على عدم إلمام باللغة العربية، وخطأ في فهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٥/ ١٩١).
(٢) انظر: تفسير ابن تيمية.

النصوص القرآنية؛ فإن القرآن الكريم إنما أراد وصف الحال ورأي العين، فنحن حال عيشنا وسلوكنا في الأرض لا نشعر أننا نسير على جسم مكوّر، وإنما نشعر أن الأرض ممهدة ومبسوطة لنا، وتلك نعمة امتن الله بها على عباده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، أي: جعلناها ممهدة لهم كالفراش؛ ليتمكنوا من أداء مصالحهم من بناء مساكنهم، والحرث والزرع، وسلوك الطرق الموصلة إلى مقاصدهم. وكذلك قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢] أي: مهيأة لأن يقعدوا عليها، ويناموا عليها.

وبما أن الأرض جسم كروي كبير، فإن عين الإنسان الماشي عليها لا تحيط بها، وإنما يراها الناظر كأنها مبسوطة ممهدة. قال الآلوسي في روح المعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩] أي: تتقلبون عليها كالبِساط، وليس فيه دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كُروية كما في البحر وغيره؛ لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطَّحاً.

وبالإضافة إلى عدم الإلمام باللغة العربية، فإن المعترضين أخطؤوا كذلك في فهم النصوص القرآنية؛ لأن القرآن يقر بكروية الأرض في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]. قال العلماء: وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من كور العمامة، وهو إدارتها، وهذا نص على تكوير الأرض[1]. كما ذهب بعض المعاصرين إلى الدَّحو

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم (١/ ٣٤٩). مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٦/ ٥٨٧). مجلة المنار، محمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٨) نقلاً عن كتاب ظاهرة نقد الدين في الفِكر الغربي الحديث (٢/ ٤٦٤).

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] أي بمعنى جعل الأرض كرة، وهذا المعنى له أصل في اللغة يمكن أن يُحمَل عليه.

وبهذين المثالين السابقَين يتضح لنا تهافت أقوال المبطلين فيما يزعمونه من وجود أخطاء علمية في القرآن الكريم، وقِس على ذلك كل شبهاتهم المزعومة.

علماء أسلموا

سنروي الآن قصص بعض علماء الغرب الذين أسلموا بسبب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فقد صُدِموا بعدما وجدوا أن مكتشافاتهم الحديثة قد ذكرها القرآن قبل ألف وأربعمئة عام، فلم يملكوا إلا الإذعان لكلام الله والدخول في دين الإسلام.

موريس بوكاي

الأستاذ الدكتور موريس بوكاي هو طبيب وجرّاح فرنسي شهير، وُلِدَ عام (١٩٢٠م) في مدينة بون ليفيك الفرنسية في أسرة نصرانية كاثوليكية، ولمّا أنهى تعليمه الثانوي التحق بكلية الطب جامعة باريس، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال، حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة، فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته، وغيرت كيانه.

قصة إسلامه:

اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتماماً بالآثار والتراث، وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام (١٩٨١م) طلبت فرنسا من مصر في نهاية الثمانينيات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالَجة.

فتمّ نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته مصر، وهناك ـ وعلى أرض المطار ـ اصطف الرئيس الفرنسي منحنياً هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلَّم الطائرة؛ ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك، وكأنه ما زال حيّاً!!

عندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا، حملت مومياء الفرعون بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية، هو البروفيسور موريس بوكاي.

كان المعالجون مهتمين في ترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم موريس بوكاي مختلفاً عنهم للغاية، كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية. لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً، كما أن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فوراً، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه، لكن ثمة أمراً غريباً ما زال يحيره، وهو كيف بقيت هذه الجثة ـ دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة ـ أكثر سلامة من غيرها، رغم أنها استخرجت من البحر؟!

كان موريس بوكاي يُعِد تقريراً نهائياً عما كان يعتقده اكتشافاً جديداً في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً: لا تتعجل؛ فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء. ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر، واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث، وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، فزاد آخر اندهاشه

بقوله: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه، وعن سلامة جثته بعد الغرق. فازداد ذهولاً، وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلاً إلا في عام (١٨٩٨) ميلادية، أي قبل مئة عام تقريباً، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمئة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا، والبشرية جمعاء ـ وليس المسلمون فقط ـ لم يكونوا يعلمون شيئاً عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟!

جلس بوكاي ليلته محدقاً في جثمان فرعون، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق، بينما كتاب المسيحيين «إنجيل متى ولوقا» يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه ألبتة. وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المُحنَّط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟! وهل يعقل أن يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام، وأنا للتو أعرفه؟!

لم يستطع بوكاي أن ينام ليلته، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في سفر الخروج من التوراة قوله: «فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد»، وبقي موريس حائراً. حتى التوراة لم تتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمها.

أعادت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر، ولكن موريس لم يهنأ له قرار، ولم يهدأ له بال، منذ أن هزَّه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة؛ فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يوجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين. وهناك كان أول حديث تحدثه معهم

عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق، فقام أحدهم وفتح له المصحف، وأخذ يقرأ له قوله تعالى:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]. لقد كان وقع الآية عليه شديداً، جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: «لقد دخلت الإسلام، وآمنت بهذا القرآن».

رجع بوكاي إلى فرنسا بغير الوجه الذي ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثاً مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد في القرآن، لكنه لم يجد! ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وكان من ثمرة هذه السنوات التي قضاها موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هزَّ الدول الغربية قاطبة، ورجّ علماءها رجّاً، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) فماذا فعل هذا الكتاب؟! نفد من أول طبعة له من جميع المكتبات! ثم أعيدت طباعته مئات الآلاف بعد أن ترجم إلى سبع عشرة لغة من بينها العربية، لينتشر بعدها في مكتبات الشرق والغرب.

ولقد حاول بعض علماء اليهود والنصارى أن يردوا على هذا الكتاب، فلم يكتبوا سوى تهريج جدلي، وآخرهم الدكتور وليم كامبل في كتابه المسمى «القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم»، فلقد شرَّق وغرَّب ولم يستطع في

النهاية أن يحرز شيئاً[١]، وقد عقد الدكتور ذاكر نايك مناظرة معه رد فيها على شبهاته، وهي مرفوعة على اليوتيوب[٢].

آرثر أليسون

آرثر أليسون عالم بريطاني وأستاذ جامعي، كان رئيساً لقسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن، ومهتماً كذلك بعلم النفس، أسلم بسبب قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]. وسمّى نفسه «عبد الله أليسون»، وقد أسلم في المؤتمر الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، الذي عُقِد بالقاهرة عام (١٩٨٥م)، أمام الكاميرات ووسط تكبير الحضور.

قصة إسلامه:

يقول الدكتور أليسون: إنه من خلال اهتماماتي بعلم النفس، وعلم ما وراء النفس، حيث كنت رئيساً لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلة؛ أردت أن أتعرف على الأديان، فدرستها كعقائد، ومن تلك العقائد عقيدة الإسلام، الذي وجدته أكثر العقائد تمشياً مع الفطرة التي ينشأ عليها الإنسان ... وأكثر العقائد تمشياً مع العقل، من أن هناك إلهاً واحداً مهيمناً ومسيطراً على هذا الوجود. ثم إن الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية من قبل أربعة عشر قرناً قد أثبتها العلم الحديث الآن، ومن

(١) هذا هو القرآن العظيم، محمد بن موسى الشريف، ص: ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) رابط المناظرة بين الدكتور ذاكر نايك والدكتور وليم كامبل على يوتيوب:

https: //www.youtube.com/playlist?list=PLELbLR56Odyu5Ie83Si_qhQ72-7f-WjrO

ثَم نؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشر على الإطلاق، وأن النبي محمداً ﷺ هو رسول الله.

ثم تناول «عبد الله أليسون» جزئية من بحثه الذي شارك به في أعمال المؤتمر، والتي دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية الكريمة ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴾. فأثبت «أليسون» أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعني الموت وتعني النوم. وأن الموت وفاة غير راجعة، في حين أن النوم وفاة راجعة. وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية والفحوص الإكلنيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلاً عن توقف التنفس الذي يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أو عدم موته في حالة غيبوبته أو نومه.

وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عمليتان متشابهتان، فالنّفسُ تخرج وتعود في حالة النوم ولا تعود في حالة الموت.

ثم قرر العالم البريطاني المسلم البروفيسور «عبد الله أليسون» أن الحقائق العلمية في الإسلام هي أمثل وأفضل أسلوب للدعوة الإسلامية، ولا سيما للذين يحتجون بالعلم والعقل.

ولذلك أعلن البروفيسور «عبد الله» أنه سيقوم بإنشاء معهد للدراسات النفسية الإسلامية في لندن على ضوء القرآن المجيد والسنة النبوية، والاهتمام بدراسات الإعجاز الطبي في الإسلام، وذلك لكي يوصل تلك الحقائق إلى العالم الغربي الذي لا يعرف شيئاً عن الإسلام[1].

(١) نقلاً عن كتاب رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، عبد الرحمن محمود، ص: ٢٣٦ ـ ٢٣٧ (كتاب إلكتروني).

وللدكتور عبد الله أليسون لقاء تليفزيوني مرفوع على اليوتيوب يشرح فيه قصة إسلامه، نضعه بين أيديكم[1].

جاري ميلر

د. جاري ميلر عالِم رياضيات كندي، وقِس ومنصّر سابق، أستاذ الرياضيات والمنطق بجامعة تورنَتو، تأثر بالقرآن الكريم وأسلم، وسمّى نفسه (عمر عبد الأحد).

قصة إسلامه:

كان ميلر من المبشرين الناشطين جداً في الدعوة إلى النصرانية ولديه علم غزير بالكتاب المقدس. وقد عُرِفَ أيضاً بحبه الكبير للرياضيات، وتبعاً لذلك فقد أحب المنطق والتسلسل المنطقي للأمور، وفي أحد الأيام من سنة (١٩٧٨م) أراد أن يقرأ القرآن الكريم بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء التي تعزز موقفه عند دعوته المسلمين للدين النصراني، وكان يتوقع أن يجد القرآن كتاباً قديماً مكتوباً منذ أربعة عشر قرناً، يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك، لكنه ذهل مما وجده فيه، بل واكتشف أن هذا الكتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم.

كان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي محمدﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها أو وفاة بناته وأولاده، لكنه لم يجد شيئاً من ذلك، بل الذي جعله في حيرة من أمره أنه وجد أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم وفيها تشريف لمريم عليها السلام لا يوجد مثيل له في كتب النصارى !!ولم

(1) https: //youtu.be/_M9vbgd5hKM

يجد سورة باسم عائشة أو فاطمة ﵂!! وكذلك وجد أن عيسى ﵇ ذكر بالاسم عشرين مرة في القرآن، في حين أن النبي محمداً ﷺ لم يذكر إلا أربع مرات فقط، فزادت حيرة الرجل.

أخذ يقرأ القرآن الكريم بتمعن أكثر لعله يجد مأخذاً عليه، ولكنه صعق بآية عظيمة وعجيبة ألا وهي الآية رقم (٨٢) في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، ويقول الدكتور ميلر عن هذه الآية: «من المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها Falsification Test، والعجيب أن القرآن الكريم يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا».

ويضيف أيضاً: «لا يوجد مؤلف في العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتاباً ثم يقول هذا الكتاب خال من الأخطاء، ولكن القرآن على العكس تماماً، يقول لك: لا يوجد أخطاء بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد».

أيضا من الآيات التي وقف الدكتور ميلر عندها طويلاً هي الآية رقم (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يقول: «إن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام (١٩٧٣م)، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص على أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب، فالرتق هو الشيء المتماسك، في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك،

فسبحان الله!»[١]. وهكذا كان للحجج المنطقية والعقلية والدلائل العلمية في القرآن الكريم الفضل في إسلام الدكتور جاري ميلر من خلال تدبره لآيات كتاب الله الكريم، فما أطيب ثمار تدبر القرآن! فالقرآن كله بركة وهداية وعلم.

بقي أن أقول لك عزيزي القارئ أنني أكتب إليك تلك الكلمات في لحظة من أقسى اللحظات التي يمر بها تاريخ العالم؛ فقد اجتاح العالم وباء فيروسي، أي بكائن لا يُرى بالعين المجردة! وتخطى ضحايا الوباء الملايين في أوروبا وحدها... أوروبا التي كانت قد أعلنت من قبل استغناءها بالعلم، واليوم فقط سقط إلهها. ومع تفاقم الأزمة وخروجها عن السيطرة بدأت العلمانية تتخلى عن مبادئها تدريجياً، فقد دعا دونالد ترامب، رئيس إحدى أكبر الدول العلمانية (أمريكا) في تغريدة له إلى اعتبار يوم الأحد (١٥ مارس ٢٠٢٠م) يوماً قومياً للصلاة والدعاء[٢]! من الواضح أن العلمانية قد عرفت قدرها جيداً أمام قدرة الله، الذي لطالما أنكرت وجوده وعظمته! لقد تخلّى عنهم العلم في شدتهم، وتركهم لتلك الجائحة تعصف بهم، فلم يجدوا ملجأ لهم إلا الله!

على أنه لم تسلم الأمة الإسلامية أيضاً من تلك الجائحة، فقد نالت نصيبها منها، فتوقف الطواف بالكعبة، وأُلغِيَ الحج، وغلِّقت المساجد، وتوقفت الأشغال والمدارس، وفُرِض حظر التجوال، وانقطعت خطوط الطيران، وانزوت كل دولة على نفسها، وشُلَّت حركة العالم تماماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله. نسأل الله أن يرفع عنا البلاء، إنه سبحانه رؤوف بالعباد.

❋❋❋

(١) هذا هو القرآن العظيم، محمد بن موسى الشريف، ص: ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) رابط التغريدة:
https: //twitter.com/realDonaldTrump/status/1238599369466753026?s=19

الفصل الثالث عشر

مُسلِمَة

حُقَّ لي كامرأة مسلمة أن أفتخر بكتابنا الخاتم «القرآن الكريم»، ذلك الكتاب الذي كرَّمني وكرَّم كل المسلمات بما حوى من هدايات وأحكام تخصنا نحن معشر النساء. ومن الواضح جداً أن سِهام المشككين في الإسلام اتَّجهت منذ القِدَم نحو قضية المرأة، ولا عجب في ذلك، فهؤلاء قد أدركوا أن الحصن الحصين لرسوخ أي مجتمع هو المرأة، فهي «الأم» مربية الأجيال ومصنع الرجال، فمتى أرادوا نقض غزل المجتمع الإسلامي نقضوا عروة المرأة، وادعوا مظلوميتها في الإسلام، وأثاروا الشبهات، ورفعوا الشعارات البرَّاقة؛ ليدسوا السم في العسل، فكم من دعوة كان ظاهرها الحرية وباطنها الانحلال! وكم من مناداة ظاهرها المساواة وباطنها احتقار المرأة وجعلها مجرد متاع مشاع!

لقد تناسى هؤلاء المشككون أن القرآن الكريم قد كفل للمرأة حريتها التامة قبل (١٤٠٠) سنة، في حين أنهم حتى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي كانوا ينظرون للمرأة على أنها مجرد شيطان يجب قتله! تقول كارن ارمسترنج في كتابها (إنجيل المرأة): «لقد كان تعقب المتشيطنات بدعة مسيحية، وكان يُنظَر إليها على أنها واحدة من أخطر أنواع الهرطقات. ومن الصعب الآن معرفة عدد النساء اللائي قتلن خلال الجنون الذي استمر مئتي عام، وإن كان بعض العلماء يؤكد أنه مات في موجات تعقب المتشيطنات بقدر ما مات في جميع الحروب الأوروبية حتى عام (١٩١٤م)... يبدو أن الأعداد كانت كبيرة بدرجة مفزعة»[1]، وحينما أرادت تلك المجتمعات إصلاح خطئها وإعادة الحقوق

(١) انظر: تنزيه القرآن الكريم عن دعاوي المبطلين، د. منقذ السقار، ص: ٣١٠ ـ ٣١١.

للمرأة كرَّمتها أيَّما تكريم!!! فجعلتها متاعاً مشاعاً لإفراغ الشهوات، فقاموا من ضلالٍ إلى ضلال، وتحولوا من قتلة إلى زناة! بل وقاموا ليتبجحوا ويقذفوا القرآن زوراً وبهتاناً بدعوى مظلومية المرأة، ولم يبصروا أنفسهم وحالهم!!

▪ **في المجتمعات السابقة:**

إن القرآن الكريم كفل للمرأة حريتها وصان وجهها وكرّمها بعد أن كان يُنظَر إليها نظرةً دونية، أو تُعَد من ضمن أملاك الرجل يتصرف فيه كيفما شاء، فنجد أن المجتمع اليوناني والروماني لم ينصف المرأة، «فماذا نقول في أفلاطون الفيلسوف الأشهر ومدينته الفاضلة؟ لقد جعل النساء آخر طبقات المجتمع، وتركهنّ كلأً مباحاً على الشيوع بين طبقة الحكام والفرسان!! فإن تكن هذه معالم المدينة الفاضلة فما تكون معالم المدينة السيئة؟ أما الرومان فإن مكانة الأنثى لديهم منحطة بطبيعتها، وليست لها الحقوق المقررة للرجال»[(١)].

كذلك تم اتهام المرأة باتهامات عديدة في الأديان السابقة للإسلام، فنجد وصفها في سِفر الجامعة بأنها أمرّ من الموت، فتقرأ: «فوجدت أمرّ من الموت: المرأة، التي هي شِباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود، الصالح قدام الله ينجو منها، أما الخاطئ فيؤخذ بها» (الجامعة: ٧/ ٢٦). وحمّلت المسيحية المرأة خطيئة آدم، يؤكد يشوع بن سيراخ في سِفر الحكمة على خروج الجنس البشري من الجنة: «من المرأة نشأت الخطيئة، وبسببها نموت أجمعون» (ابن سيراخ: ٢٥/ ٢٤).

وأباح سِفر الخروج (وهو من العهد القديم الذي يؤمن به اليهود والنصارى جميعاً) للأب بيع ابنته، فتقرأ: «وإذا باع الرجل ابنته لا يخرج كما يخرج العبيد»

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، ص: ٦٥، دار الشروق، مصر.

(الخروج: ٢١/ ٧). وطبَّق هذا الحكم بوعز بشرائه راعوث المؤابية امرأة محلون في عهد القضاة، فتقرأ: «وكذا راعوث المؤابية امرأة محلون، قد اشتريتها لي امرأة لأقيم اسم الميت على ميراثه» (راعوث: ٤)، وتبعاً لذلك فإن القانون الإنجليزي قد كفل حتى عام (١٨٠٥م) للرجل الحق أن يبيع امرأته بست بنسات، في حين أن قانون الثورة الفرنسية اعتبر المرأة قاصراً كالصبي والمجنون حتى عام (١٩٣٨م)[١].

أما بالنسبة للمجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام، فقد اعتادت بعض قبائله وأد البنات، ويقول القرآن الكريم في ذم هذه الحال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩]، بينما استمر المجتمع الأوروبي في وأد بناته ـ كما ذكرنا آنفاً ـ حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي بتتبع المتشيطنات وقتلهم! كما تعامل الجاهلي مع المرأة على أنها متاع يورّث، فإذا مات أخوه ورث زوجته ضمن ماله، إن شاء زوّجها وإن شاء أمسكها، فأتت الشريعة الغراء لتعيد للمرأة مكانتها وتفرض لها حرية ذاتها ومالها، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩].

أما الإسلام فقد فتح باب السعادة للنساء على مصراعيه من خلال نور أحكامه وهداياته الساطعة من شمس قرآنه، مدافعاً عن حقوق المرأة في كل زمان ومكان.

---

(١) تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، د. منقذ السقار، ص: ٣١٠.

المساواة

لم ينحَز الإسلام يوماً إلى جنسٍ دون آخر، بل أقام مبدأ المساواة بينهما على نهج من العدل، بحيث لم يغفل عن الاختلافات الفسيولوجية والنفسية بين الذكر والأنثى؛ احتراماً لأصل الفطرة التي ينبني عليها تفاوت الوظائف، «ولا شك أن التفاوت لتفاوت الحاجة عدلٌ، والمساواة بينهما عند تفاوتها ظلم، وهي من المساواة الظالمة لا العادلة»[1].

فنجد أن القرآن الكريم أقرَّ المساواة بينهما في الأصل الإنساني. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك قرر المساواة بينهما في التكاليف الشرعية، يقول الباري ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. وأكد القرآن على المساواة بينهما في الثواب، فلن يأخذ الذكر صك غفران جزاء عمله الصالح، بينما يضيع أجر الأنثى لكونها أنثى. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، محمد أبو زهرة، ص: ٥١.

■ **ليست مساواة فقط بل تكريم:**

لم تكتفِ شريعة القرآن بمبدأ المساواة فقط بين الجنسين، بل وتعدَّته إلى (تكريم المرأة)، فأنا مثلاً لا أستطيع أن أخفي سعادتي بوجود سورة كاملة من القرآن الكريم تتعدى أكثر من الجزء وتحمل اسم «سورة النساء»، إضافةً إلى سورة النساء الصغرى المعروفة بـ «سورة الطلاق»، وكلاهما تأكيد وبرهان على حقوق المرأة في الإسلام.

ولم يتوقف القرآن على مخاطبة الرجال فقط، بل جعل للنساء خطاباً خاصاً، والأصل أن النساء يدخلن في خطاب الرجال على سبيل التغليب، وهذا أسلوب معروف في العربية، كما اتفقت كلمة العلماء على أن كل خطاب موجه للرجال من جهة الشارع الحكيم موجهٌ أيضاً إلى النساء، إلا ما نصَّ فيه على خصوصية الرجال به، أو منع مانع من عمومه للجنسين، واشتهر هذا بين العقلاء حتى صار معلوماً من الدين بالضرورة، لكن أبى القرآن إلا أن يخاطبهن بخطاب مباشر، تكريماً لهنّ ودفاعاً عن حقوقهنّ. قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥].

كذلك كرّم الإسلام المرأة فرفع عن كاهلها الأعباء الاقتصادية في مراحل حياتها جميعها (بنتاً وأختاً وزوجاً وأمّاً) مع كامل التأكيد أن لها ذمة مالية مستقلة. وقد بيّن النبي ﷺ فضل الإنفاق على العيال ولاسيّما البنات، وحثّ على إكرامهنّ، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها روت عن النبي ﷺ: «ليس أحدٌ من أمتي يعول ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، فيُحسِن إليهنّ إلا كنّ له سِتراً من النار»[1].

(١) أخرجه الألباني في صحيح الجامع، والطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان واللفظ له.

وأما الزوجة فقد أوجب نفقتها على الزوج حتى وإن كانت امرأة عاملة أو كانت من أثرى الأثرياء؛ فمالها خاص بها ولها ذمة مالية مستقلة ونفقتها في عنق زوجها. وعلاوة على ذلك فقد فرض الإسلام لها «المهر» عند الزواج كعطية تدلُّ على التقدير والمحبة، وهو عطية مستحقة للزوجة، لا يجوز للزوج أن يأخذ منه شيئاً إلا عن طيب خاطر من الزوجة، يقول تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النساء: ٤]. «وهذه درجة منحها الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرناً، في حين أن النساء في أوروبا لا يتمتعن بهذا الحق الذي تتمتع به المرأة في ظل الإسلام»[(١)].

وكفل القرآن للمرأة حق الطلاق في حال استحالة الحياة مع الزوج، بينما منعته المسيحية وأباحته حال الزنا فقط! وهذا أمر يدعو للاستغراب! فأي قانون هذا الذي يجبر اثنين يبغضان بعضهما على العيش معاً؟! إن الأسر لا تُبنَى على البغض والكراهية، فكوخ صغير يتسع المحبَّين، وقصر فسيح لا يستوعب المتباغضَين. ولهذا المعنى تشير كتب الأدب إلى أن ميسون زوج معاوية بن أبي سفيان كانت أعرابية وشاعرة فصيحة ذات جمال باهر وحُسن عامر، أُعجب بها معاوية وتزوجها، وأقدمها الشام وهيأ لها قصراً مشرفاً على الغوطة بدمشق، وزينه بأنواع الزخارف من الذهب والفضة ما لا يضاهيه، وأسكنها مع وصائف لها، فلبست يوماً أفخر ثيابها وتزينت وتطيبت بما أعد لها من الحلي والجواهر، ثم جلست تتأمل الغوطة وأشجارها، وسمعت تجاوب الطير في أوكارها، وشمت نسيم الرياحين والأزهار، فتذكرت نجداً وحنّت إلى أترابها وأناسها ومسقط

(١) نظرات إسلامية، د. محمود شلتوت (٢/ ٩٣)، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م، عدد الأجزاء: ٣.

رأسها، فبكت وتنهدت، فقالت لها إحدى وصيفاتها: ما يبكيكِ وأنتِ في مُلكٍ يضاهي مُلك بلقيس؟! فأنشدت مشتاقةً إلى حياتها في البادية :

لَبَيتٌ تَخفِقُ الأرواحُ فيـه
أَحَبُّ إليَّ مِن قَصرٍ مُنيفِ
ولُبسُ عَباءَةٍ وتَقَر عينـي
أَحَبُّ إليَّ مِن لبسِ الشُّفوف
وأكلُ كُسَيرَةٍ مِن كَسرِ بيتي
أحبُّ إلي مِن أكلِ الرغيفِ
وأصواتُ الرياحِ بِكُلِّ فَجٍّ
أَحبُّ إليّ مِن نَقرِ الدُّفوفِ
وكَلبٌ يَنبَحُ الطُّراقَ دوني
أحـبُّ إليَّ مِن قِطٍّ أليـفِ
وخَرقٌ مِن بني عمي نَحيفٌ
أحبُّ إليَّ مِن عِلجٍ عَلوفِ
خُشونَةُ عِيشَتي في البدو أشهى
إلى نفسي مِن العيشِ الظريفِ

فلما دخل معاوية عرّفته الوصيفة بما قالت، وقيل إنه سمعها وهي تنشد ذلك، فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني عِلجاً علوفاً؟ هي طالق، فمروها فلتأخذ جميع ما في القصر فهو لها، ثم سيّرها إلى أهلها بنجد، فتركته غير نادمة، وكانت حاملاً بابنه يزيد. لم تطق ميسون العيش مع رجل تبغضه وحياة تبغضها، وما لم يسعه القلب فلن يسعه قصر.

ولذلك كفل القرآن للمرأة حق «الخلع» أيضاً لمجرد بغضها للزوج، وهو أن تطلب المرأة الفراق عن زوجها على أن تفدي نفسها بمال، وهي حال تدلُّ على استحكام التنافر بينهما، فهي تفضل أن ترد إليه ماله على أن تبقى في عصمته، قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وورد في السنة أن امرأة ثابت بن قيس أتت رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خُلُق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام ـ أي أكره عدم الوفاء بحقه لبغضي له ـ، فقال رسول الله ﷺ: تردين عليه حديقته؟ قالت: نعم. قال: اقبلِ الحديقة وطلقها تطليقة»[(١)].

وتشريع القرآن ضمن للزوجة المسلمة ما يحقق سعادتها ويحافظ على كيان أسرتها، فلم يلجأ إلى الطلاق أو الفِراق إلا كحلٍّ أخير، فأحاط الطلاق بسلسلة من الاحتياطات من شأنها التقليل منه، فحث الزوج على التغافل وتحمل هفوات زوجته، والتغافل من شيم الكرام وبه تسير عجلة الحياة، وقديماً قالت العرب: «ما استقصى كريم قط»، فإن رأى من زوجته ما يسوءه، فعليه أن يتذكر أيضاً ما يروقه، ولذلك قال النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»[(٢)]، وبذلك المعنى أتت الآية من سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

وأوجب القرآن ندب حكمَين حال الخلاف في محاولة لإصلاح ذات البين وتوفيق الأوضاع بين الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]، فإن باءت المحاولة بالفشل وتم الطلاق فإن القرآن لم يجعل الطلقة الأولى فاصلة قاطعة، بل أعطى المطلق ثلاث طلقات على ثلاث دفعات: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ومنح الفرصة للزوجين للتراجع والتسامح ولم شمل الأسرة مرة أخرى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

كما أمر القرآن أن تقضي المطلقة عدتها في بيت الزوجية عسى أن تعود المياه لمجاريها ويردها الزوج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]. وانظر إلى تعبير القرآن بوصفه (بيوتهنّ)، فقد نسب بيت الزوجية إلى الزوجة إكراماً لها، وتأكيداً على أنه لا يحق له إخراجها منه حتى تنقضي مدة العدة، فإذا انقضت هذه المدة ولم يتغير الحال، ولم يجدوا السبيل للتراجع دلَّ ذلك على النفور المستحكم ووجب تسريحها بالمعروف وإعطاؤها كامل حقوقها، فقد فرض الله في كتابه للمطلقات نفقة المتعة؛ إكراماً لهنّ وجبراً لخاطرهنّ وتقديراً لإسهاماتهنّ في الواجبات الأسرية طوال فترة الزوجية. قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤١ ـ ٢٤٢]، ونهى القرآن كذلك عن ابتزاز المطلقة بأخذ شيء من مهرها أو مالها عنوة، فقال

العليم الحكيم تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠ ـ ٢١] أي: وكيف تأخذون ما أعطيتموهن من المهر بعد الذي حصل بينكم من علاقة ومودة واستمتاع واطلاع على الأسرار، فإن الطمع بما في أيديهنّ من مال بعد هذا لأمر منكر ومستقبح، وقد أخذن منكم عهداً موثقاً شديداً، وهو استحلالهنّ بكلمة الله وشرعه[1].

بيد أن القرآن يبيِّن لنا أن الطلاق ليس نهاية المطاف، وإنما بداية جديدة لكلٍّ من الطرفين وسعة، قال الرحمن ﷻ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]. إن الطلاق شرعة رحمة، شرعها الله العليم بما يصلح عباده، الحكيم في شرعته وأقواله وأفعاله. أما المجتمعات التي حرمت الطلاق فقد فتحت باب الزنا على مصراعيه؛ وذلك لتخوف المقبلين على الزواج من عدم الاتفاق والانحباس في سجن الزواج الأبدي الذي لا رجعة فيه، فيؤثرون إقامة علاقات غير شرعية (وقد ينجبون أطفالاً أيضاً) حتى يتأكدوا من ديمومة العلاقة قبل الخوض في أسر العلاقة الزوجية، ولا أرى ذلك إلا تحايلاً على شرع الله وتضييقاً لما أحل الله.

ولذلك لجأت معظم المجتمعات الأوروبية إلى فك ذلك القيد بإباحة الطلاق المدني. فسبحان من شرّع لعباده ما يتوافق مع فطرتهم رحمةً بهم وإحقاقاً لحقوقهم.

---

(١) المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: ٨١.

الأم

وكما كرَّم الإسلام المرأة بنتاً وزوجاً وأختاً فقد كرَّمها أمّاً، بل بالغ في تكريمها ورفع قدرها فوق كل قدر، فلم ينسَ القرآن أنها هي التي حملت وربَّت وضحَّت من أجل أبناء الأمة الإسلامية؛ لذلك أوصى بها وجعل برها فرضاً على أبنائها. قال الباري تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وسما بمشاعر أمومتها، فرفعها من خصيصة أنثوية إلى شعيرة عظيمة من شعائر الحج وهو ركن الإسلام الخامس، فجعل هلع هاجر الأم المشفقة على ابنها وسعيها في البحث عن الماء لإنقاذ حياة رضيعها حذواً يحذوه الرجال في شعيرة الحج سعياً بين الصفا والمروة، سبعة أشواط يرملون فيها، وهكذا يأتي الناس من كل حدب وصوب... رجالاً ونساءً يستحضرون مشاعر هاجر الأم الرؤوم، ثم يشربون من ماء زمزم المباركة التي تفجرت بين أصابعها جبراً لخاطرها وشكراً لسعيها. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ولتتحول رحمة الله تعالى بهاجر وابنها إلى رحمةٍ تشمل الناس أجمعين.

بمثل هذا التكريم رفع القرآن قدر الأم المسلمة، هذا التكريم الذي تتمناه كل أم في المجتمعات الغربية وهي لا ترى أبناءها سوى في إجازة الأعياد، أو هي

تستعيد ذكريات تضحياتها من أجل أبنائها وهي ترشف قهوتها في إحدى دور العجزة والمسنين. والغريب أن القوم بعد ذلك يتجرؤون على مهاجمة الإسلام بكل سماجة بدعوى مظلومية الإسلام للمرأة!

وتغنى الشعراء بدور الأم، فقال الشاعر حافظ إبراهيم:

مَنْ لي بتربيةِ النســـــاءِ فإنَّها
في الشرقِ علة ذلك الإخفاقِ
الأمُّ مــدرسةٌ إذا أعددتهــا
أعددت شعباً طيبَ الأعراقِ

■ **تحمل المسؤولية:**

وللمرأة حرية التصرف في الإسلام، ومن ثمَّ فإن هذه الحرية تجعلها متحملة لنتائج وتبعات تصرفاتها تماماً كالرجل، فلن يحمل الرجل وزر أفعالها وهي لن تحمل وزره، بل هي مسؤولة تماماً عن أفعالها، لا يغني عنها صلاح الرجل أو فسقه. قال الله تعالى في وصف امرأتين من النساء في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١١]. قال السعدي رحمه الله في تفسيره: «هذان المثلان اللذان ضربهما

الله للمؤمنين والكافرين؛ ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيده شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه»[1].

كذلك يقول تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فكلٌّ من الذكر والأنثى سواء في تحمل مسؤولية أفعالهما من خيرٍ أو شر أمام الإسلام.

■ **حق الانتخاب:**

وكفل الإسلام للمرأة حق الانتخاب، وهو حق تمتعت به المرأة المسلمة قبل أكثر من (١٤٠٠) عام، حتى قبل أن تسمع عنه أوروبا! يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]. لقد بايع النساء النبي ﷺ، فشاركن في بيعة العقبة الكبرى، وبيعة الرضوان تحت الشجرة، وكذلك عقب فتح مكة، وفي مواضع مختلفة. روت أم عطية أنه حين قدم رسولُ الله ﷺ المدينة جَمَع نساءَ الأنصار في بيت ثم أرسل إليهنّ عمرَ بن الخطاب، فقام على الباب فسلَّم عليهنّ! فرددن السلام، فقال: أنا رسول رسول الله إليكن، فقلن: مرحباً برسول الله، وبرسول رسول الله! فقال عمر: تبايعن على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن أرجلكن، ولا تعصين في معروف؟ قلن: نعم، فمدَّ عمر يده من خارج الباب، ومددن أيديهنّ من داخل، ثم قال: اللَّهمَّ اشهد!

---

(١) تفسير السعدي، ص: ٨٧٤.

ولم يجعل عمر البيعة مصافحة باليد، وهذه هي السنة، تنزيهاً لجو التدين من الشبهات التي عُرِفت في أديانٍ أخرى[١].

وكذلك تواترت المرويات حول مشاركة النساء في اختيار خليفة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عقب استشهاده، فكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ يستشير الناس ويسألهم مدة ثلاثة أيام بلياليها، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة[٢].

وهكذا تعتز شريعة القرآن بأنها أول من كفل للمرأة حق الانتخاب أو المبايعة حسب النظم المتبعة في المجتمع المسلم آنذاك، ذلك الحق الذي لم يتمتع به رجل أوروبا قبل (١٤٠٠) عام في النظم الإمبراطورية، فضلاً عن أن تعرفه المرأة في مجتمعاتهم.

■ **حق التعليم:**

حرص الإسلام على تعليم المرأة كل الحرص، وكيف لا وهي الأم ومربية الأجيال؟! وكيف تسمح شريعة القرآن للجهل أن يستشري إلى أبنائها وبناتها وهي أول من رفع شعار (اقرأ)[٣]؟! فكان لنساء المسلمين القدوة في أمهات المؤمنين ﷺ، يقول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]. قال السعدي ﷺ في

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، ص: ٦٧ (بتصرف).

(٢) انظر البداية والنهاية (٧/ ١٥٩ ـ ١٦١) نقلاً عن الموسوعة العقدية للدرر السنية

https: //dorar.net/aqadia/3819

(٣) أشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

تفسير الآية الكريمة: «ولّما أمرهنّ بالعمل، الذي هو فعل وترك، أمرهنّ بالعلم، وبين لهنّ طريقه، فقال: (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة)»[١]. ولم يكتفِ الأمر في الآية بالتعلم، بل تعداه إلى التعليم فقال تعالى: (واذكرن) أي: تعلمن وعلمن غيركنّ.

«لقد سوَّى الإسلام بين الرجل والمرأة في حق التعلم والثقافة لكلٍّ منهما، فقد أعطى المرأة الحق نفسه الذي أعطاه للرجل في هذه الشؤون، فأباح لها أن تحصل على ما تشاء من علم نافع وأدب رفيع، وثقافة متنوعة، ومعرفة مفيدة، بل إن شريعة الإسلام لتوجب ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها، وحُسن قيامها بوظائفها في هذه الحياة. وقد حث الرسول ﷺ على طلب العلم، وجعله فريضة عليهن في هذه الحدود، فقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أي: على كل فردٍ مسلم رجلاً كان أو امرأة بدون تفرقة بينهما»[٢].

وتاريخ الأمة الإسلامية حافل بنساء حملن لواء العلم والتعلم، فكنَّ وما زلنَ ذخراً لأمتهنّ ونوراً للناس حولهنّ، وعلى رأسهنّ أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنّ، فذكر الإمام ابن سعد في طبقاته[٣] ما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «ما كان أصحاب رسول الله ﷺ يشكّون في شيء إلا سألوا عنه عائشة، فيجدون من ذلك عندها علماً». وعن قبيصة بن ذؤيب قال: «كانت عائشة أعلم الناس، يسألها الأكابر من الصحابة»[٤]. ولم تكن معارف السيدة عائشة رضي الله عنها قاصرة

---

(١) تفسير السعدي، ص: ٦٦٣.

(٢) المرأة في الإسلام، محمد سيد طنطاوي...وآخرين، ص: ٥٧، دار أخبار اليوم، مصر، (لم أقف على رقم الطبعة وسنة النشر).

(٣) (٢/ ٣٧٥).

(٤) نقلًا عن كتاب المرأة في الإسلام، محمد سيد طنطاوي، ص: ٥٨.

على الشؤون الدينية فقط، وإنما كانت شاعرة وعليمة بالأنساب، كوالدها الصدّيق رضي الله عنه، وعلى دراية بالطب، وحين سُئلت من أين لكِ هذا العلم بالطب أجابت: أن «رسول الله ﷺ كثرت أسقامه، فكان أطباء العرب والعجم يبعثون له، فتعلمت ذلك منهم».

وهناك أيضاً المحدّثة الفقيهة «كريمة بنت أحمد المروزية»، من عالمات القرن الخامس الهجري، وهي أول امرأة درّست صحيح البخاري، وبلغت درجة عالية من العلم والفهم والنباهة وحدة الذهن بحيث يرحل إليها أفضل العلماء لتلقي العلم منها، وعُقِدَ لها مجلس بمكة المكرمة تجتمع فيه بالطلبة والأفاضل من رجال كل علم، وكان أكثر ميلها إلى الحديث حتى بلغت فيه حدّاً لم يبلغه غيرها. وقد أشار إلى روايتها ودقة نسختها من صحيح البخاري كبارُ العلماء، قال ابن نقطة: «كانت عالمة تضبط كتابها فيما بلغنا»[١]، وقال الحافظ الذهبي: «كانت إذا روت قابلت بأصلها، ولها فهم ومعرفة مع الخير والتعبد، روت الصحيح مرات كثيرة»[٢]. وسمعت من أبي الهيثم الكشميهني صحيح البخاري، وسمعت من زاهر بن أحمد السرخسي، وعبد الله بن يوسف الأصبهاني، وحدثت كثيراً، وروى عنها الجلة[٣].

ولم يخلُ تاريخنا الحديث من منارات العلم، فنجد «إيمان فاليريا بوروخوفا» الأديبة والمترجمة الروسية المسلمة، صاحبة أبلغ وأدق ترجمة تفسيرية للقرآن الكريم باللغة الروسية بشهادة الوسائط والإدارات الإسلامية جميعها، والتي

(١) انظر: التقييد، (١/ ٤٩٩)، ترجمة: ٦٨٣.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء: (١٨/ ٢٣٣)، ترجمة: ١١٠.
(٣) نقلاً عن مقال (أم الكرام المروزية ونسختها من صحيح البخاري) لرقية أيت الدوش
https: //www.maghress.com/almithaq/5235

تُوِّجت بموافقة الأزهر الشريف على طباعتها ونشرها عام (١٩٩٧م) بعد مراجعة استمرت عدة سنوات.

ويزخر العلم التجريبي أيضاً بمشاركة العالمات المسلمات المتميزة، أمثال فاطمة المجريطية ابنة العالم الجليل أبي القاسم المجريطي، وإحدى عالمات الأندلس، والتي قال عنها «مانويلا مارين»: (إنها إحدى ألمع الناس الأندلسيات اللاتي أسهمن في صناعة التاريخ). ونجد في العصر الحديث الطبيبة المتميزة الدكتورة سامية مينمي، التي ساهمت في تطوير جراحات المخ والأعصاب، وسجلت العديد من براءات الاختراع إلى أن تم اغتيالها في أمريكا عام (١٩٩٧م).

وأيضاً الدكتورة منى بكر ﷺ، المتخصصة بمجال النانوتكنولوجي، والمؤسِّسة لأول شركة مصرية عربية في ذلك المجال، وكانت مثالاً للذكاء والعبقرية والمثابرة، وأول من عمل على تنقية Nano-membrane لتحلية المياه وتنقيتها.

لم يقف الإسلام يوماً عائقاً أمام تعليم المرأة، بل كان محفزاً لها على طلب العلم ونشره، ومحدثتكم التي تكتب لكم هذه الكلمات بفضل الله طبيبة بيطرية وتعمل في مجال البحث العلمي، وتدرس لنيل شهادة الدكتوراه، وأقول: كان القرآن دائماً وأبداً دافعاً لي نحو النجاح، ومشجعاً على طلب المزيد من العلم النافع، ولا شك أني فخورة بكوني مسلمة.

■ **حرية الرأي والتعبير:**

أتاح الإسلام للمرأة حرية الرأي والتعبير، وكان النساء يناقشن النبي ﷺ، ونجد ذلك جليّاً في سورة المجادلة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، جاءت خولة بنت ثعلبة ﵂ إلى النبي ﷺ تشكو

له زوجها وتجادله في أمرها، في حوارٍ شيق تصفه السورة الكريمة، وفي دلالةٍ صريحة على أن المرأة لها كامل الحق في المناقشة وحرية التعبير.

وهناك أيضاً موقف هند بنت عتبة ﵂ في مبايعة النبي ﷺ بعد فتح مكة، وكيف تقبَّل النبي ﷺ اعتراضاتها بصدرٍ رحب. قال الآلوسي: «وممن بايعن الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة: هند بنت عتبة ـ زوجة أبي سفيان ـ وقد دارت بينها وبين الرسول ﷺ محاورة منها: أنه ﷺ لما قرأ ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ قالت: والله إني لأصيب الهنة أي: الشيء القليل من مال أبي سفيان، وما أدري أيحل ذلك أم لا؟ فقال النبي ﷺ: ما أصبتِ من شيء فيما مضى فهو حلال لك. فلما قرأ ﷺ ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: يا رسول الله، أَوَتزني الحرة؟! فلما قرأ: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ قالت: ربيناهم صغاراً وقتلتَهم كباراً ـ تشير إلى قتل ابنها حنظلة يوم بدر ـ. وفي رواية أنها قالت: قتلتَ الآباءَ وتوصينا بالأبناء؟ ـ تشير إلى مقتل أبيها وعمها في غزوة بدر ـ. فلما قرأ: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قالت: إن البهتان ـ أي الكذب ـ لقبيح، والله لا يأمر إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فلما قرأ ﷺ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك»[1].

وهكذا احترم الرسول ﷺ رأي المرأة المسلمة. فانظر كيف امتص النبي ﷺ مقاطعات هند ﵂ واعتراضاتها، وكيف أكرمها ﷺ وتقبل بيعتها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

(١) المرأة في الإسلام، محمد سيد طنطاوي، ص: ٥٤ ـ ٥٥.

وكان للصحابة الكرام رضوان الله عليهم الموقف الإسلامي السامي نفسه تجاه حرية تعبير المرأة واحترامها، بل والنزول على رأيها، رُوِيَ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ خطب يوماً فقال: «لا تزيدوا في مهور النساء»، فقالت امرأة: ما ذاك لك! قال: «ولِمَ؟» قالت: إن الله قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، فقال عمر: «امرأة أصابَت ورجل أخطأ»[1]. وفي هذا الأثر دليل على ترسيخ قواعد الديمقراطية في الإسلام واحترام حق المرأة في التعبير، وكمال فضل عمر ﷺ ودينه وتقواه ورجوعه للحق إذ تبين له.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.

نحو النور

«الرد على بعض الشبهات المثارة حول المرأة»

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات ليس ببدعٍ في الإسلام، بل أتت به الشرائع السابقة، لكن الإسلام كان كعادته وسطاً دائماً، فهو لم يترك أمر التعدد دون تقييد كما فعلت اليهودية، ولم يمنعه تماماً كما فعلت المسيحية. وينسب العهد القديم، الذي يؤمن به اليهود والنصارى جميعاً إلى إبراهيم عليه السلام ثلاث زوجات (سارة وهاجر وقطورة)، وإلى داود عليه السلام سبع زوجات، وذكر الكتاب المقدس في سِفر الملوك أن سليمان عليه السلام كان له ألف من النساء[1]. وعلى الرغم من عدم اقتناعي من صحة ما نُسب لنبي الله سليمان عليه السلام إلا أن هذا يدلُّ بكل تأكيد على أن التعدد كان مشروعاً في التوراة بلا ضوابط أو قيود.

أما المسيحية، فبالرغم من منعها للتعدد إلا أنه لم يرد أي نص في العهد الجديد يمنع مشروعية التعدد، والمسيح عليه السلام يقول: «ما جئت لنقض الناموس أو الأنبياء بل لأكمل» (متى ٥/ ١٧). وقد بقيت قضية تعدد الزوجات صيحة تنادي بها فرقٌ مسيحية شتى مثل «تجديدية العماد» و«الأنابابتيست» في ألمانيا في أواسط القرن السادس عشر للميلاد، وبمثله نادت فرقة المورمون في مطلع القرن التاسع عشر، ولم يتخلّوا عنه إلا بضغط من السلطات المدنية أواخر القرن التاسع عشر[2].

---

(١) انظر سفر الملوك (١) ١١/ ٣.

(٢) انظر تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، د. منقذ السقار، ص: ٣٢١.

وعندما نأتي لعرب الجاهلية نجد أن تعدد الزوجات كان مألوفاً لديهم، حتى رُويَ أن بعضهم كان له عشر زوجات، فأتت شريعة القرآن لتضع حاجزاً دون ذلك الإفراط، وتمنع التعدد لأكثر من أربع، وتضع له ضوابط وشروطاً تهذِّبه، كإقامة العدل والقدرة على الإنفاق، فالتعدد في الإسلام ليس مجرد نزوة وإنما بناء أسرة وتحمل مسؤولية. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣]. والمراد بالعدل هو العدل الظاهر، الذي يستطيعه كل إنسان، وليس المراد العدل في المحبة القلبية، الذي نفى الله استطاعة عبده نفياً مؤبداً في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

■ **عموم الرسالة:**

ولنطرح هنا بعض التساؤلات:

إذا تزوج رجل بامرأة ثم اكتشفا بعد الزواج أنها عاقر لا تنجب، هل التعدد هنا ضدها أو يخلُّ بكرامتها؟! بالطبع لا، بل هو شرعة للحفاظ على بيتها وسعادتها بجوار زوجها (إن أرادت ذلك) مع الإقرار بحقه في الإنجاب. وقِس على ذلك غيره من الأسباب المشابهة.

ونأتي لسؤالٍ آخر: هل التعدد أولى أم الزنا؟! إن كثيراً ممن نادوا بمنع التعدد قد وقعوا في غرام تعدد العشيقات، ويشهد بذلك المجتمع الأوروبي الغارق في وحل العلاقات المحرمة وغياهب الخيانة وما تبعها من الإجهاض والأجنة السِّفاح وانتشار الأوبئة كالإيدز وغيره. فأي مذهب تذهبون؟! وكيف لعقلٍ

منصف أن يقبل ذلك؟! «لقد حرَّم الأوروبيون تعدد الزوجات واستمسكوا به وارتضوه ديناً، ولكنهم فتحوا لأنفسهم باب الحرام على مصراعيه، فكان التضييق في الحلال سبباً في التوسع في الحرام، فانسابوا فيه انسياباً، وكان الوباء على النسل في البلاد عظيماً، وإن العاقل لو خُيِّر بين حلالٍ معيب وحرام لا شكَّ فيه، لاختار الحلال المعيب، ولو خُيِّر بين تعدد فيه رعاية الأولاد وحفظ الأنساب، وبين فسقٍ فيه إهمال الأولاد وضياع الأنساب لاختار الأول بلا شك»[1].

يقول جاك ريسلر: «وفي الحق أن تعدد الزوجات بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة قد حقق بهذا التشريع الإسلامي تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني»[2].

ونطرح سؤالاً ثالثاً: أيهما خيرٌ للمرأة... أن تكون زوجة أم عشيقة؟! بالطبع من الخير لها أن تكون زوجة؛ إن العشيقة علاقة عابرة، لا حقوق لها ولا مسؤوليات تجاهها، وليس لأولادها أب يحميهم، فكيف تقبلون على المرأة هذا الذل والهوان؟!

إن وسطية الإسلام في أمر التعدد، في إقراره مع وضع ضوابط تهذبه؛ إذ لم تمنعْه أو تبحْه مطلقاً قد ناسبت عموم شريعة القرآن التي جاءت هدايةً للناس من كل زمان ومكان، والناس تختلف عاداتهم وبيئاتهم وظروفهم، فلو كانت المرأة الأوروبية ترفض التعدد فستجد امرأة يمنية أو سعودية أو سودانية أو سنغالية أو نيجيرية تقبل التعدد بصدرٍ رحب!

---

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، الشيخ محمد أبو زهرة، ص: ٣٢.

(٢) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص: ٤١٦، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
جاك ريسلر: مستشرق فرنسي معاصر.

والشريعة قد جاءت للجنس الأبيض، والجنس الأحمر، والجنس الأصفر، والجنس الأسود، ومن يسكن البلاد الحارة، ومن يسكن البلاد الباردة، وإن الشريعة التي يكون لها ذلك العموم يكون فيها من المرونة والسعة ما يوافق كل الأمزجة، ولا يشق عليها، وما تعالج به كل الأدواء، ويجب أن تكون قيودها قابلة للسعة والضيق. وإن ذلك المعنى واضح كل الوضوح في تعدد الزوجات، لقد أبيح عدد يجد فيه الزوج القادر على إقامة العدل رغبته، وقيد في الإباحة بقيد لو شدد فيه لكان قريباً من المنع المطلق، ولو أُرخِيَ فيه لكان بين ذلك قواماً، ولو كانت الشريعة لأهل أوروبا فقط ـ وهم الذين تمرست نفوس بعضهم بالزوجة الواحدة ـ لاستساغت نفوسهم في ظاهر الأمر المنع، ولوجدوا في شدة القيد ما ألفوه من أحكام الزواج، ولكن الإسلام خاطب الجميع، ولا يزال في الدنيا ناس لا يعرفون إلا التعدد، وفي الدنيا نساء يفرحن عند دخول ضرة جديدة عليهنّ؛ لأنها تخفف عنها أثقال الخدمة، وتكون لها الرياسة عليها، فهل يستسيغ هؤلاء المنع المطلق؟!(١)

وكما تختلف البيئات والعادات قد تختلف الظروف؛ فإن التعدد قد يكون علاجاً اجتماعياً في حالات الحروب، عند نقص عدد الرجال عن النساء، ويظهر ذلك جليّاً في ألمانيا بعد الحرب العالمية، بعد أن هددها شبح الفناء، حين قُتِل معظم الذكور في الحرب وصار عدد الإناث الصالحات للزواج أضعاف عدد الذكور، ولذلك أقرت حكومة «بون» عاصمة ألمانيا الغربية التعدد؛ لأنها وجدت فيه حلّاً لتلك المعضلة الاجتماعية وطرداً لخطر انتهاء النسل.

تقول لورافيشيا فاغليري: «إنه لم يقم الدليل حتى الآن بأي طريقة مطلقة على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التقدم...

(١) شريعة القرآن من دلائل إعجازه، محمد أبو زهرة، ص: ٣١ (بتصرف).

وفي استطاعتنا أيضاً أن نصرَّ على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يُقتَل عدد ضخم من الذكور إلى حد استثنائي في الحرب مثلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية، والحق أن الشريعة الإسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حرّاً قبل الإسلام، مطلقاً من كل قيد»[١].

وهكذا نجد بما لا يدع مجالاً للشك أن الله تعالى قد شرع لعباده ما يناسب فطرتهم، وينظم حياتهم في كل زمان ومكان. يقول الكاتب جورج برنارد شو: «إن أوروبا لو أخذت بهذا النظام ـ تعدد الزوجات ـ لوفرت على شعوبها كثيراً من أسباب الانحلال والسقوط الخُلُقي والتفكك العائلي»[٢].

ميراث المرأة

كانت المرأة قبل الإسلام مُضَيَّعة الحقوق، ليس لها الحق في الميراث، ولا يُعتَد لها بذمة مالية، فعاملها عرب الجاهلية كالمتاع، يقول عمر بن الخطاب ﷺ: «والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهنّ ما أنزل، وقسم لهنّ ما قسم»[٣]. ولم يختلف الحال في الكتب المقدسة، فالمرأة كانت تُحرَم من الميراث كليةً في حال وجود أشقاء لها، في سِفر العدد (٢٧/ ٨) يقول: «فكلَّم الربُّ موسى قائلاً... أيما رجل مات ليس له ابن، تنقلون ملكه إلى ابنته». ويُفهَم من

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص: ٤١٩.
لورافيشيا فاغليري: مستشرقة إيطالية من أشهر مؤلفاتها كتاب: دفاعاً عن الإسلام.
(٢) جورج برنارد شو: كاتب أيرلندي شهير، وله كتاب عن النبي محمد ﷺ.
(٣) متفق عليه.

السياق التوراتي أن وجود الأبناء الذكور يحرم توريث البنات من الإناث[١]، فجاء القرآن ليزيل هذا الغبن الفاحش، ويعيد للمرأة حقها وكرامتها. يقول جاك سترو: «إن النبي محمداً أعطى للنساء حق الإرث في الممتلكات قبل أن تفعل ذلك الحكومة البريطانية بثلاثة عشر قرناً»[٢].

ونتناول الآن الزعم الذي يقول: «إن القرآن ظلم المرأة حين جعل لها نصف نصيب الذكر»، وقبل الرد على هذا الزعم لا بدّ من ترسيخ بعض المبادئ والنقاط الرئيسية لنصل إلى نور الحقيقة. ولنتساءل: ما هي القواعد التي يقوم عليها نظام الميراث في الإسلام؟

أولاً: التوزيع وعدم التجميع:

لمنع استبداد فرد واحد بالميراث دون الآخرين؛ وفي ذلك ترسيخ لصلات الأرحام، وتجميع شمل العائلات، وجبر خاطر أقارب الميت.

ثانياً: القرابة:

فالأَولَى في الميراث هو الأقرب للميت، فمثلاً الأبناء أولى في الميراث من الأشقاء، والأشقاء أولى من أبناء العم.

ثالثاً: التتابع الزمني للأجيال:

ونقصد بذلك أن الأبناء يرثون حِصة أكبر من الآباء؛ لأن الأبناء يكونون في العادة صغاراً يستقبلون الحياة وأعباءها، بينما آباء الميت يستدبرونها ولديهم احتياجات أقل.

---

(١) انظر أيضاً: يشوع (١٧/ ١ ـ ٣).

(٢) جاك سترو: عضو بحزب العمال البريطاني وزير خارجية بريطانيا الأسبق. والمقولة نقلاً عن كتاب قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص: ٦.

رابعاً: الاحتياج والعبء المالي:

فالحِصة الأكبر تكون للأكثر احتياجاً، طبقاً لقاعدة الغُنم بالغُرم، فكلما زادت الأعباء المالية على الشخص زادت حِصته من الميراث، ومثال ذلك ما ذكرنا آنفاً من كون حِصة الأبناء أكبر من حِصة آباء المتوفى لكونهم الأكثر احتياجاً للمال، وكذلك في حال كون الذكر يرث ضِعف الأنثى (وهو محدود في حالات بعينها)؛ لأن الإسلام قد حمّل عبء الاحتياجات الاقتصادية للذكر، أما المرأة فهي مكفولة النفقة أمّاً وبنتاً وزوجاً وأختاً، ولها ذمة مالية مستقلة، فاقتضى العدل الإلهي أن يكون فضل العبء المالي مرتبطاً بفضل المنح الإرثي لدى الرجال، فكيف يساوي الله بينهما في الغُنم وهما لم يتساوا في الغُرم؟!

ثم نأتي لنقطة مهمة جداً، وهي أن الأنثى ترث نصف نصيب الذكر في حالات محدودة لا تتعدى ثلاث حالات، وما عدا ذلك يتساوى نصيب الذكر والأنثى في الميراث، وقد ترث الأنثى أكثر من الذكر. ويعدد الدكتور منقذ السقار هذه الحالات الثلاث كما يلي:

أ ـ أولاد المتوفى:

فالذكور يرثون ضِعف الإناث، لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النساء: ١١].

ب ـ التوارث بين الزوجين:

حيث يرث الزوج ضِعف ما ترثه هي منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ

﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢].

ج ـ يأخذ أبو المتوفى ضعف زوجته «أم المتوفى»:

وذلك إذا لم يكن لابنهما وارث، فيأخذ الأب الثلثين وزوجته الثلث.

وفي مقابل هذه الحالات الثلاث؛ فإن الأنثى ترث مثل الذكر في حالات، كما في مسألة الكلالة[1]: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢].

ومرة أخرى ساوى القرآن الكريم بين الوالدين في إرثهما من ولدهما؛ إذا كان له ولد ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١١].

وهناك أحوال كثيرة ترث الأنثى فيها أكثر من الرجل، فتُقدَّم الابنة مثلاً على الأب والأخ والعم والخال، بل قد ترث هي ولا يرثون!

وهكذا؛ فالتفاوت في قسم الميراث بين الذكور والإناث ليس مطَّرداً، وهو متعلق بمنظومة الإسلام الاجتماعية ومقتضياتها في توزيع المسؤوليات والنفقات، ووفق هذه الالتزامات يتوزع الإرث بين الذكور والإناث[2].

إن شريعة القرآن هي شريعة العدل السامية عن تحكم الأهواء، كفل الله بها الحقوق وحدَّها بحدودٍ متينة، ولذلك قال تعالى في ختام آيات المواريث:

---

(١) الكلالة: من ليس له ولد ولا والد.

(٢) تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، منقذ السقار، ص: ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤] وبيَّنها سبحانه لعباده أتم البيان، فإن حادوا عنها حادوا عن ضلال، ولذلك قال الباري سبحانه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦].

ويشهد لمنظومة الميراث العادلة في الإسلام المستشرق غوستاف لوبون فيقول: «تعد مبادئ المواريث التي نص عليها القرآن بالغة العدل والإنصاف، ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللائي يُزعَم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف، حقوقاً في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا»(١).

ويقول الفيلسوف القبطي نظمي لوقا: «في سور القرآن إشارة إلى أن المساواة عند الله بين الرجل والمرأة بغير تفريق في التكليف والجزاء، وإشارة صريحة إلى مساواة الرجل والمرأة في ثمرات الأعمال والجهود... وفي بعض الأمم القديمة والحديثة كانت المرأة تُحرَم غالباً من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش...»(٢).

شهادة المرأة

زعم البعض مظلومية القرآن للمرأة بدعوى أن شهادتها نصف شهادة الرجل، والحقيقة أن ذلك ليس محل اتهام، فالآية قد عللت ذلك في سياقها،

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص: ٤٣٠.
غوستاف لوبون: طبيب ومؤرخ فرنسي توفي عام ١٩٣١.م، ومن أشهر أعماله كتاب: حضارة العرب.
(٢) المصدر السابق، ص: ٤٣٢.

يقول الله تعالى في آية الدَّين، وهي أطول آيات القرآن الكريم: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فالعلة هنا كما ذكرها الله تبارك وتعالى هي النسيان؛ لأن المرأة تتحكم بها العاطفة، وقد تتأثر لشدة الموقف فتنسى، فاستلزم أن يكون معها امرأة أخرى تُذكِّرها حال نسيت، بالإضافة إلى أن المرأة ليست ذات خبرة بالأمور المالية والتجارية في الأعم الأغلب، فقد يخفى عليها مثلاً فهم مسألة حسابية أو قانونية. يقول ابن القيم رحمه الله: «والمرأة العدل كالرجل العدل في الصدق والأمانة والديانة، إلا أنها لمّا خيف عليها السهو والنسيان قويت بمثلها، وذلك قد يجعلها أقوى من الرجل الواحد أو مثله»[(١)].

وهذا لا يعني أن شهادة المرأة هي نصف شهادة الرجل على الإطلاق، بل هناك حالات كثيرة تتساوى فيها شهادة الرجل والمرأة، وقد لا يؤخذ إلا بشهادتها فقط دون الرجل في حالات أخرى. وأبرز الحالات التي تتساوى فيها شهادتا الرجل والمرأة فتكون على السواء قضيةُ اللعان، فالشهادات الأربع من الزوجة تصد الشهادات الأربع من الزوج. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٦ ـ ١٠].

---

(١) الطرق الحكمية، ابن القيم، ص: ٣٤. نقلاً عن كتاب تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، ص: ٣٢٩.

كذلك تتساوى شهادة الرجل والمرأة في العلوم الدينية والدنيوية كافة، وجميع الأمور التي تعتمد على الحفظ والذكاء، وكم من امرأة سبقت في هذا الميدان كثيراً من الرجال، فتُقبَل روايتها للحديث، وتُقبَل شهادتها ومساهماتها في فروع العلوم المختلفة!

وقد أشرنا أيضاً إلى أن هناك حالات لا يُعتَد فيها إلا بشهادة المرأة فقط، ويتحقق ذلك في الأمور النسوية التي لا يطلع عليها إلا النساء، ولا يدري حالها إلا صاحبة الشأن، كالحيض والولادة والعدة والرضاع وغيره، وهي أمور ليس للرجال إليها سبيل. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ووجبت الإشارة إلى أنه يُبَاح للقاضي أن يأخذ بما يتوفر بين يديه من الأدلة والشهود، عملاً بحديث النبي ﷺ: «البيِّنة على المدَّعي، واليمين على من أنكر»[1]، والبينة قد تكون بشاهدين، أو بشاهد واحد (رجل أو امرأة)ويمين، أو بالقرائن مع الأيمان، أو بالقرينة فقط ـ مثلما حكم سليمان عليه السلام بين المرأتين اللتين تنازعتا على الرضيع ـ، أو بالنكول (الامتناع عن اليمين)، أو باللوث مع الأيمان (في حالات القتل).

يقول الإمام النووي رحمه الله: «إنما كانت البينة على المدعي لأنه يدعي خلاف الظاهر، والأصل براءة الذمة، وإنما كانت اليمين في جانب المدعَى عليه؛ لأنه يدعي ما يوافق الأصل وهو براءة الأمة. ويستثنى مسائل: فيقبل قول المدعي بلا بينة فيما لا يُعلَم إلا من جهته، كدعوى الأب حاجته إلى الإعفاف، ودعوى

(١) رواه البيهقي وغيره، وبعضه في الصحيحين.

السفيه التوقان إلى النكاح مع القرينة، ودعوى الخنثى الأنوثة أو الذكورة، ودعوى المرأة انقضاء العدة بالإقرار أو بوضع الحمل، ودعواها أنها استحلت وطلقت، فإن الأيمان تكون في جانب المدعي مع اللوث، واللعان؛ فإن الزوج يقذف ويلاعن ويسقط عنه الحد»[١].

إن التشريع القرآني الذي جعل شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل في مسائل الدَّين وأمثالها لم يصنعه إجحافاً بحقها أو استهانة بمقامها وإنسانيتها، وإنما هو مراعاةً لقدراتها ومواهبها، وإلا فإن أهليتها كأهلية الرجل تماماً في كثير من المعاملات، كالبيع والشفعة والإجارة والوكالة والشركة والوقف والعتق...[٢]

القوامة

تجد قضية القوامة رواجاً كبيراً لدى المبطلين؛ إذ يزعم البعض ازدراء القرآن للمرأة كونه جعل القوامة من حق الرجل، ويستشهدون لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

ونرد عليهم فنقول: الآية حق، وإنما أردتم الاستشهاد بها لباطل، وهذا يرجع إلى الفهم الخاطئ لمفهوم القوامة (عن سهوٍ منكم أو قصد)؛ فالقوامة ليست استبداداً بأي شكلٍ من الأشكال. إن أي مؤسسة من المؤسسات حول العالم لا بدّ لها من قائد يسوسها أو رئيس يدير شؤونها، فهل سمعت مثلاً عن مدرسة بلا مدير؟! أو شركة بلا رئيس؟! أو دولة بدون قائد؟! إنها بلا شك ستتحول

(١) شرح الأربعين النووية، مجموعة من العلماء، ص: ١٨١ ـ ١٨٢، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط ٢، ١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤م.

(٢) تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، منقذ السقار، ص: ٣٣٠.

الأمور إلى فوضى! فلماذا نقبل مبدأ القوامة في المؤسسات كافة ونأبى أن نقبله في أهم مؤسسة في التاريخ الإنساني، ألا وهي مؤسسة «الأسرة»؟!

ثم إن القوامة في أي مؤسسة من تلك المؤسسات لا بدّ لها من مؤهلات تؤهل صاحبها للاضطلاع بهذا الدور، كأن يكون أكثر خبرة أو شخصية قيادية وصاحب حكمة، والأمر كذلك بالنسبة للبيت؛ فالقوامة لم تُسنَد للرجل عبثاً، بل طبقاً لما اختص به من مؤهلات وواجبات تحتم عليه القيام بذلك الدور؛ فالرجل مطالب بالسعي لتوفير الحياة الكريمة لأسرته، بينما المرأة مكفولة النفقة، وغير مطالبة بالكدح لتوفير أسباب العيش؛ لأنها لم تُخلَق لذلك، وإنما وظيفتها السامية هي «الأمومة» والقيام على رعاية الأبناء. بيد أن الإسلام لم يحرمها حق العمل إن أرادت أو اضطرتها الظروف لذلك. وللتأكيد على أهمية دور كل من الرجل والمرأة في إقامة شأن الأسرة يقول رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولةٌ عن رعيتها»[1].

ليس من حق أي أحد أن ينظر إلى ربة المنزل أو الأم نظرة ازدراء، أو يعاملها على أنها لا دور لها في المجتمع، بل هي تحمل أهم مسؤولية مجتمعية ألا وهي «تربية الأجيال القادمة»؛ ولذلك اتَّجهت الحكومات الأوروبية إلى دعم ربات البيوت، وعلى رأسهم ألمانيا التي توفر دعماً مادياً للأم (تعويض الوالدين) لا يقل عن (٣٠٠) يورو شهرياً، إضافةً إلى توفير الدعم المادي للأبناء أيضاً؛ إيماناً منهم بأهمية دور المرأة في الأسرة وتقديراً للأمومة.

إن الإسلام قد احترم الفروقات الطبيعية بين الرجل والمرأة، وساوى بينهما في النواحي الإنسانية والدينية، وقدّر المرأة وكرّمها، فلم يطالب المرأة بالكدح

(١) متفق عليه.

لتوفير لقمة العيش، وإنما جعله فرضاً على الرجل؛ إذ له من الخصائص الجسمانية والنفسية ما يؤهله لذلك، بينما المرأة لها خصائص أنثوية صانها الإسلام عن العمل المجهد والشقاء مراعاةً لتكوينها الفسيولوجي، فالمرأة مثلاً حال الحيض تتعرض لألوان من الآلام والإجهاد، فتصاب بتسرع ضربات القلب، وانخفاض ضغط الدم، وآلام الظهر والبطن، وتقلبات مزاجية وهرمونية، وهذا في حال الحيض، فما بالك بآلام الولادة والنفاس؟!! فوجهها الإسلام إلى وظيفتها السامية وهي «الأمومة»، وفتح لها أبواب العمل (إن أرادت) بما يناسب طبيعتها، وصانها عن الأعمال الشاقة التي تزدري أنوثتها وجعلها فرضاً على الرجل. إضافةً إلى أن المرأة تتحكم بها العواطف، بينما الرجل يحكمه العقل لا المشاعر، ويتميز برباطة الجأش، والعقل أجدر في غالب الأمور على القيادة من العواطف والمشاعر، وإقراراً لتلك المؤهلات أسند الإسلام القوامة للرجل.

■ **ليست استبداداً:**

القوامة ليست استبداداً، إن الرياسة الصحيحة عبء زائد ومسؤولية أثقل، وهي في البيت الإسلامي تتمة لجملة من الحقوق والواجبات المتبادلة كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وإذن مؤسسة الأسرة تقوم على الشراكة بين الطرفين، وإذا نظرنا إلى قوله تعالى في صفة المسلمين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] نجد أنه نزل في مكة قبل أن تكون هناك شؤون سياسية أو دستورية! وعموم الآية يتناول الأسرة والمجتمع.

يقول الأستاذ أحمد موسى سالم: «إن القوامة للرجل لا تزيد عن أن له بحكم أعبائه الأساسية، وبحكم تفرغه للسعي على أسرته والدفاع عنها ومشاركته في

كل ما يصلحها؛ أن تكون له الكلمة الأخيرة ـ بعد المشورة ـ ما لم يخالف بها شرعاً، أو ينكر بها معروفاً، أو يجحد بها حقّاً، أو يجنح بها إلى سفهٍ أو إسراف. من حق الزوجة إذا انحرف أن تراجعه وألا تأخذ برأيه، وأن تحتكم في اعتراضها عليه بالحق إلى أهلها وأهله أو إلى سلطة المجتمع الذي له وعليه أن يقيم حدود الله»[(١)]. وهذا النهج القويم هو هدي النبيﷺ، الذي لم يكن يستشير زوجاته في شأن الأسرة فقط وإنما في شأن الأمة. فقد كانﷺ يُشْرِك زوجاته في الأمور العظام ويأخذ بمشورتهن، حيث يتجلى دور أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها يوم الحديبية، ورأيها السديد الذي حال دون أزمة كبيرة؛ إذ أمر رسول الله أصحابه رضوان الله عليهم أنْ: «قوموا فانحروا ثم احلقوا، فلم يقوموا، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل إلى أم سلمة رضوان الله عليها فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدنَه ودعَى حالقَه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يُقتل غمّاً[(٢)]»[(٣)].

بقي أن نهمس همسة في أذن المروِّجين لتلك المزاعم ونقول: في كتبكم المقدسة... تُرى لمن القوامة؟ أهي للمرأة أم الرجل؟! وما رأيكم في قول العهد القديم: «إلى رجُلك يكون اشتياقك وهو يسود عليكِ» (التكوين ٣/ ١٦)، وكذلك قول بولس: «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل، لأن الرجل لم يخلق من

(١) انظر: قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، محمد الغزالي، ص: ٥٨، ١٥٥، ١٥٦ (بتصرف).
(٢) رواه البخاري في صحيحه.
(٣) واصباً، هند الورداني، ص: ١٣٧.

أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل» (كورنثوس١ ١١/ ٨ ـ ٩)؟! ثم إن المرأة في أعتى الدول التي تُطالب بإسقاط القوامة لم تحصل سوى على (٣٠٪) فقط من المراكز القيادية كما في الدول الإسكندنافية وألمانيا، فبم تفسرون لنا ذلك؟! فإن كنتم لا تملكون شجاعة الإنصاف فلا تتبجحوا فضلاً بقذف شريعة القرآن بالباطل!

ونستشهد بقول بعض المنصفين، حيث تقول إيفيلين كوبولد: «لما جاء الإسلام رد للمرأة حرياتها، فإذا هي قسيمة الرجل، لها من الحق ما له وعليها ما عليه، ولا فضل له عليها إلا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد واتساع الحيلة، فيلي رياستها، فهو لذلك وليها، يحوطها بقوته ويذود عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك فهما في السراء والبأساء على السواء. ذلك ما أجمله الله بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة، لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحق. وكما قرن الله سبحانه بينهما في شؤون الحياة، قرن بينهما في حُسنِ التوبة وادخار الأجر وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة. وإذا احتمل الرجل مشقات الحياة ومتاعب العمل وتناثرت أوصاله، وتهدم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجه، فليس ذلك بزائد مثقال حبة عن المرأة إذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها وأحسنت القيام في شأن دارها»[1].

(١) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، ص: ٤٢٥.
إيفيلين كوبولد: مستشرقة اسكتلندية، ولدت في أدنبرة في أسرة أرستقراطية، اعتنقت الإسلام وأدَّت فريضة الحج و(توفيت عام ١٩٦٣م).

ضرب الزوجة

قالوا: إن القرآن أهان المرأة حين سمح بضرب الزوجة، فكتابكم يقول: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ [النساء: ٣٤].

وللرد نقول:

أولاً: لا بدّ من دفع الإيهام في ذلك الادعاء الباطل؛ فالقرآن لم يأمر بضرب الزوجات على الإطلاق، وإنما أباح ضرب الزوجة «الناشز» ـ ونضع تحت الناشز ثلاثة خطوط ـ في ضوء سلسلة من العلاجات المتدرجة، فلماذا يتم تجريد الآية عن سياقها؟!

ثانياً: إن الضرب المقصود في الآية للزوج الناشز ـ التي تريد تدمير الأسرة وتشريد الأطفال ـ ليس المقصود به الضرب المبرح أو الطغيان، فالزوجات لسنَ إماء لدى الأزواج، وقد رأينا سابقاً كيف أن الإسلام كرّم المرأة وساوى بينها وبين الرجل، وهديُ النبي ﷺ مع نسائه خير شاهد لدفع هذا الادعاء، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل»[1]، وقد مثّل العلماء للضرب المقصود في الآية بأنه كالضرب بالسواك، وهو عود أراك صغير لا يؤذي حتى الطفل، أما الضرب المبرح فهو حرام قطعاً، ولا يمت لهدي الإسلام بصلة، ولذلك ختمت الآية الكريمة بقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ أي: إن الله عليّ كبير فاحذروا مخالفة أمره، فإن قدرته سبحانه عليكم أعظم من قدرتكم على نسائكم، فالجملة الكريمة تذييل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وابن حبان.

قصد به حث الأزواج على قبول توبة النساء، وتحذيرهم من ظلمهن إذا ما تركن النشوز وعدن إلى طريق الطاعة والإنابة.

قال بعضهم: وذكر هاتين الصفتين ﴿عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ في هذا الموضع في غاية الحسن، وبيانه من وجوه:

الأول: أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النساء. والمعنى: إنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الانتصاف منكم، فالله سبحانه ينتصف لهن منكم لأنه عليّ قاهر كبير.

الثاني: لا تبغوا عليهنّ إذا أطعنكم لعلوِّ أيديكم؛ فإن الله أعلى منكم وأكبر من كل شيء[1].

ولذلك لا بدَّ أن تُفهَم الآية من خلال السياق العام للشريعة الإسلامية؛ فالإسلام إنما أمر بحُسن العِشرة بالمعروف حال الحب والكراهية، يقول رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2].

ثالثاً: لقد راعت شريعة القرآن التدرج في التعامل مع الزوجة الناشز، فلم تلجأ إلى الزجر بالضرب غير المبرح إلا كحلٍّ أخير، فحثت الزوج أولاً على وعظها ونصيحتها بالتي هي أحسن، فإن أبت هجرها في البيت لعلها ترجع عن نشوزها وتحفظ مستقبل الأسرة والأولاد، فإن أبت أيضاً اضطر أن يلجأ إلى الضرب غير المبرح كدواءٍ أخير.

وهذه العقوبات المتدرجة تُراعَى بحسب كل صنف من النساء، فالتي يزجرها الوعظ لا يُستَعمل معها الهجر والضرب، والتي يردعها الهجر لا يوقف معها عند حد القول ولا يسرف فيصل به الحال إلى الضرب.

---

(١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي.
(٢) أخرجه الترمذي.

رابعاً: أن الأصل في التعامل مع الزوجات هو التكريم والإجلال، لكن لكلِّ قاعدة شواذ، فالنساء أمام قوامة الرجال أكثرهن صالحات قانتات عفيفات، وبعضهن غير صالحات متعاليات، وليس من العدل المساواة بين الصنفين، بل يُعامَل كل منهما بما يليق به من أجل الحفاظ على كيان الأسرة؛ لذلك حدد القرآن قواعد للتعامل مع الناشزات سيئات الخُلُق والدين، اللائي يعرضن حياة الأسرة للخطر، فيبدأ الزوج بالنصح أولاً، فإن لم ينفع كان الهجر، فإن لم ينفع كان الضرب الخفيف غير المبرح، فإن استحكم التعالي وتشعبت الفُرقة وعجز الرجل عن العلاج لجأا إلى التحكيم، فإما أن يتصالحا بالمعروف أو يتفرقا بالمعروف.

يقول الإمام الأكبر محمود شلتوت ﷺ: «وهناك صنف من النساء في بعض البيئات لا تؤثر فيه الموعظة ولا يكترث بالهجران ولا يصلحه إلا نوع من التأديب المادي، وقد جعل الله الضرب آخر الوسائل التأديبية، إشارةً إلى أنه لا يُلجَأ إليه إلا عند الضرورة، وقد أساء المتحضرون من أبناء المسلمين أنفسهم فهمَ هذا النوع من التأديب وجعلوه نوعاً من الطغيان الذي لا يتفق وكرامة الزوجة، وهم في الواقع يتملقون عواطف المرأة. ونحن نسائل المرأة العاقلة: أي الأمرين أحفظ لحياة الزوجة؟ أن تُنال بشيء من العقوبة عند نشوزها فيردها لصوابها؟ أم تُترَك لتسترسل في نشوزها فتهدم بيتها وسعادتها وتشرد أطفالها؟»[1].

خامساً: إن علاج مشكلة النشوز لم يستأثر بها للزوج وحده، فالأمر ليس مجرد استبداد من الزوج بتوقيع عقوبة على زوجة ناشز، وإنما هو تشريع للحفاظ على كيان أسري، وقد راعت فيه الشريعة التدرج بحسب ما تقتضيه الأحوال، فوضعت طريقين لحل هذه الأزمة، الأول: بيد الزوج، والثاني: بيد الحكمين.

---

(١) نظرات إسلامية، محمود شلتوت (٣/ ٩٥).

«أما الطريق الثاني فهو (التحكيم) وجاءت آيته بعد آية الطريق الأول للإشارة إلى أنه إنما يكون في حالة عجز الرجل وعند تطور حالة من النشوز إلى الشقاق، وفي حالة ما إذا كان النشوز واقعاً من الزوج نفسه. وقد خاطب الله بهذا العلاج الأخير جماعة المسلمين؛ تركيزاً لما يجب أن يكون بينهم من التكافل على حفظ الأسر والبيوت، وعلى الحكام أن يقوموا بمثل هذا الواجب نيابةً عن جماعة المسلمين»[1].

وقد جمعت آيتا سورة النساء خلاصة هذه القواعد المؤصلة لحماية الأسرة والمجتمع: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٤ ـ ٣٥].

هذه لمحات قدمتُها بصفتي امرأة مسلمة لكلِّ الباحثات عن السعادة، حاولتُ فيها بيان شرف التشريع القرآني وتكريمه للمرأة، والذود عما نُسِبَ إليه من اتهامات باطلة حول هذا الشأن، ونحن لا ننكر أن المرأة ما زالت تعاني الظلم في مجتمعاتنا العربية بسبب تصرفات البعض، فلا تُحاكموا الإسلام ولكن حاكموا المنتسبين إليه، ولا تحاسبوا الشريعة ولكن حاسبوا من فرّطوا فيها، والقرآن مفتوح لكلِّ من أراد التزود من صفحاته البيضاء وشريعته الغراء التي كرمت بني الإنسان ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ ....

والحمد لله على نعمة الإسلام.

---

(١) نظرات إسلامية، محمود شلتوت، ص: ٩٦.

الفصل الرابع عشر
ما أسعد الحفَّاظ!

ما أسعد الحفاظ! هي حقيقة وليست ادعاء، الحفاظ يعيشون جنة الدنيا الغنّاء، لكنها جنة لهم وحدهم دون غيرهم، هم فقط من يستشعرون نعيمها وجمالها، يتجولون فيها برياض القرآن، فيقطفون من زهره الوسنان، ويشربون من نبعه التحنان، ويتضوعون المسك والريحان. هم حملة اللواء في كل زمانٍ ومكان، وعلامة فارقة في تاريخ أمة الإسلام.

علامة فارقة في تاريخ الأمة

لقد حمل القرّاء الأمانة منذ البداية، حيث نشأة الإسلام، فهم يتقدمون الصفوف الأولى دائماً، يقول ﷺ: «يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله»[1]، وليست صفوف الصلاة فقط ولكن أيضاً صفوف الجهاد، اسألوا «بئر معونة» و«اليمامة» بمن استحر القتل في ساحات الجهاد؟ واسألوا «القادسية» من الذي أجج الحماس في قلوب جيش الإسلام؟ إنهم «القراء». وعندما عزم أبو بكرٍ الصدّيق ومن بعده عثمان بن عفان ﷺ على جمع القرآن اشترطا أن يجمع مما في صدور الرجال ومما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ، فكان الحفظة أحد مستودِعي الأمان ـ بإذن ربنا ـ لكتاب الله إلى أن جُمِعَ بين دفتي المصحف. وهم أهل العلم إذ وصفهم الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وسادة علم القراءات وحملة الأسانيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قد شُرِّفوا لوثيق صلتهم بكتاب الله، فصاروا حملة اللواء وأئمة أمة الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٦٧٣.

اقرأ وارتقِ

إن فرحة الحفاظ دائمة، فهم لم يتعلقوا بمتاعٍ زائل، وإنما انشغلوا بكتاب ربهم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففتح لهم باب السعادة على مصراعيه في دنياهم وأخراهم، فاستشعروا نعمة ربهم ولم يبغوا عنها بديلاً ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهم يعلمون أن الرحلة مع القرآن مستمرة حتى أعلى درجات الجنان، فما أطيب معيشتهم! وما ألذ سعادتهم! يقول النبيﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[(١)]، فهم يترنمون في الدنيا، ويتنعمون في الآخرة، فكانوا أهلاً لأن يحسدهم الناس على ما هم فيه من النعم، قال ﷺ: «لا حَسَدَ إلَّا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ له، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فَهو يُهْلِكُهُ في الحَقِّ، فقالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ»[(٢)] ـ والمقصود هنا الغبطة وليس الحسد المذموم ـ.

■ **ورثة الجنة:**

اصطفى الله تعالى أمة محمد ﷺ بهذا الكتاب الخاتم، المهيمن على سائر الكتب، ووعد القائمين على حمل أمانة هذا الكتاب الجنةَ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا

(١) أخرجه أبو داود واللفظ له (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٠٥٦).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ٥٠٢٦.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٢ـ ٣٥] أي: ثم أعطينا الكتاب من اخترناهم من أمة محمد ﷺ: فمنهم ظالم لنفسه بفعل بعض المعاصي، ومنهم مقتصد، وهو المؤدي للواجبات المجتنب للمحرمات، ومنهم سابق للخيرات بإذن الله، أي مسارع مجتهد في الأعمال الصالحة، فرْضها ونفلها، ذلك الإعطاء للكتاب واصطفاء هذه الأمة هو الفضل الكبير(١).

ونحن نرى من الآيات أن الله تعالى قد منّ بفضله وكرمه على الطوائف الثلاثة (الظالم لنفسه، والمقتصد، والمسارع للخيرات بإذن الله) بالجنة، مع مراعاة العدل واختلاف درجاتهم، وهذا لواسع إحسانه سبحانه، ثم وصف ﷻ الجنة ونعيمها، يقول السعدي ﷺ: «ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: جنات مشتملات على الأشجار والظل والظليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفقة والقصور العالية، والمنازل العالية، في أبدٍ لا يزول، وعيش لا ينفد. ولمّا تم نعيمهم وكملت لذتهم قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقصٍ في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم، ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات، ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا

(١) التفسير الميسر، ص: ٤٣٧.

يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أي: لا تعب في الأبدان، ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع»[1]. جعلني الله وإياكم من أهلها.

التجارة الرابحة

خير ما تنفق فيه الأعمار هو «كتاب الله»، وأي مشروع تجاري قد يحتمل الربح والخسارة، وهذا أمر عادي، أما المشروع القرآني فإنه مشروع العمر الذي لا يحتمل الخسارة، إنه التجارة الرابحة! قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠]. قيل إن هذه الآية تسمى بآية «القراء»، فهم يزينون أصواتهم بالقرآن، ويتلونه في الصلاة، وينفقون في كل حال، يرجون التجارة مع الله، تجارة مع الكريم، واسع الإحسان، وليست تجارة مع بشر، فيا ربح البيع! أبشر بتجارةٍ لن تكسد، ما دام أن أساسها الإخلاص، والربح فيها أضعاف مضاعفة؛ فالحسنة بعشر أمثالها.

ومشروع القرآن ربحه عاجل وآجل؛ فإن فيه خيري الدنيا والآخرة، وأتذكر في حلقة القرآن كنتُ كلما بشرت معلمتي بدرجاتي العالية في اختبارات الجامعة، كانت تنظر بفخر وتقول جملتها الشهيرة: «الشاطر في القرآن شاطر في كل حاجة». وكانت جوائز مسابقات القرآن الكريم في جامعتنا ـ جامعة الإسكندرية ـ حِكراً على طلبة كلية الطب، والفوز دائماً لهم عن جدارة في كل عام، ولا يستطيع أحد من الكليات الأخرى أن يجاريهم. وقد كنت أعجب لذلك؛ فإن دراستهم من أصعب الدراسات في العالم، فكيف استطاعوا التوفيق بين دراستهم وبين حفظ القرآن، بل

(١) تفسير السعدي (باختصار).

وتميزهم على أقرانهم؟! إلى أن اكتشفت السرَّ بنفسي... إنه «القرآن»، هو الوقود الذي يحفزك نحو النجاح، سواء في دراستك، أو عملك، أو علاقاتك، أو غيره، وفي اتباعه ومعاهدته نقطة الانطلاق نحو القمة في الدنيا والآخرة، تفوق في الدنيا، وتفوق في الآخرة.

يقول النبي ﷺ: «يجيءُ صاحبُ القرآنِ يومَ القيامةِ فيقولُ: يا ربِّ حلِّه، فيُلبسُ تاجُ الكرامةِ، ثم يقولُ: يا ربِّ زدهُ، فيُلبسُ حُلَّةَ الكرامةِ، ثم يقول: يا ربِّ ارضَ عنهُ، فيقالُ: اقرأْ وارقَ ويزادُ بكلِّ آيةٍ حسنةً»(١). فيا سعد أهل القرآن! ويا حظ من طرق الباب فغنم في دينه ودنياه! ويا حرمان من ترك القرآن! وابتغى النجاح من غير أبوابه! ووالله نصيحة من قلبٍ محب: «اطرق باب القرآن؛ يطرق الربح بابك».

مجالس القرآن

إن مجلساً يُذكَرُ فيه الله هو خير مجالس الدنيا، ومجلسٌ يُتَدارس فيه القرآن خيرٌ من الدنيا وما فيها. هكذا تكون مشاعر أهل القرآن؛ هنا حلقات الذكر، حيث السكينة والرحمة، والطمأنينة والأمن، هنا تُطرَح الهموم جانباً، هنا تُستَجلب البركات والمغفرة، هنا تصدح الحناجر، وتُصغي الآذان، وتهدأ القلوب، وتخشع الأبصار، يقول الرسول الكريم ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٥) واللفظ له، وأحمد (١٠٠٨٧) مختصراً.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأحمد (٧٤٢٧) مطولاً، وأبو داود (١٤٥٥) واللفظ له.

هنا في مجلس القرآن معلمتي الحنون، أرتِّلُ عليها فتصحح خطئي وتعتذر عني، تعاملني كابنتها، أنا غرسُها وأرضها، ومساحتها التي تقابل فيها ربَّها، دعوة معلمتي هي أحب الدعوات لقلبي بعد دعوة أمي، كانت معلمتي تدعو لي وتقول: «اللَّهمَّ اجعل القرآن يجري على لسانها جريان الماء». معلمة القرآن نبراس وقدوة، تدلني على عيوبي لأصلحها، وتعلم موضع الداء، وتنصحني في الله، فإن كان لديك شيخٌ رباني، أو لديكِ معلمة ربانية، فشدوا على يده، فإنه والله من خير الدنيا. تقول إحدى حافظات القرآن الكريم ـ في رسالة أرسلتها لي ـ: «محروم من ليس لديه شيخ يتلو عليه محكم الآيات».

أما عن صحبة مجالس القرآن فإنها صحبة من نوع فريد، وستجد أخي القارئ أن رفيق الحلقة في المسجد يختلف عن رفيق الدراسة أو صحبة العمل، دائماً ما كنت أقول: «صحبة القرآن غير... ودايماً هي اللي بتكسب»، ما تعبت يوماً أو مرضت أو أصابتني رحى الدنيا إلا ووجدتهنَّ بجانبي دونما تأخير، إن فيهنّ شيئاً جذاباً يأخذ بشِغافِ القلب، لا أعلم هل هو التوادُّ والرحمة؟ أم الخُلُق العالي؟ أم التواصي بالحق والصبر؟ إلى أن وجدت الإجابة في حديث رسول الله ﷺ، الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ الناسِ، وإنَّ أَهْلَ القرآنِ أَهْلُ اللهِ وخاصَّتُه»[1]، فعلمت أني بين أهل الله، وأيقنتُ حينها أنها جاذبية مخصوصة لأهل القرآن.

مع صاحبات القرآن، وجدت قلوباً رقيقة ونفوساً سامية، ورأيت عبادات واحتساباً لم أرَه لدى الكثير من الناس، لقد تعلمتُ حقاً من هؤلاء الراقيات، رأيت التي تحتسب «جبر الخواطر» ولا تقول إلا حلو الكلام، فتستمع إلى

(١) أخرجه النسائي في (السنن الكبرى) (٨٠٣١)، وابن ماجه (٢١٥)، وأحمد (١٣٥٤٢) واللفظ له.

مشكلات الناس لتخفف عنهم وتواسيهم وتثبتهم، على الرغم من أنه قد يكون لديها من الهموم أضعاف ما لديهم. ورأيت التي تقرض المحتاج، القريب والغريب؛ لتفكَّ كربتهم وتُنظر المعسرين، تبتغي الأجر والثواب من الله. ورأيت التي تخطت مقام الصبر، فكانت راضية عن الله ﷻ وكل قضائه وقدره. ورأيت العجوز التي تجاوزت الثمانين وهي تجاهد في حلقات حفظ القرآن، على الرغم من ضعفها وشيخوختها بهمة شابة في العشرين، فما أعظمها من صحبة! لا زلت أتعلم منكم يا أهل القرآن.

■ **مجالس الملائكة:**

تتزاحم الملائكة في مجالس القرآن، بل إن هناك ملائكة سيَّاحين في الأرض يلتمسون تلك المجالس ويبحثون عنها لعِظَم بركتها، فتتعدى ببركتُها جلساءَها لتشمل كل من حضرها أو مرَّ بها، انظر إلى هذا الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «إنَّ للَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلَائكَةً سَيَّارَةً، فُضُلاً يَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِساً فيه ذِكْرٌ قَعَدُوا معهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بأَجْنِحَتِهِمْ، حتَّى يَمْلَؤُوا ما بيْنَهُمْ وبيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إلى السَّمَاءِ، قالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ ﷻ، وَهو أَعْلَمُ بهِمْ: مِن أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فيَقولونَ: جِئْنَا مِن عِندِ عِبَادٍ لكَ في الأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ، قالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قالوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قالَ: وَهلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: لَا، أَيْ رَبِّ. قالَ: فَكيفَ لو رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ، قالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قالوا: مِن نَارِكَ يا رَبِّ، قالَ: وَهلْ رَأَوْا نَاري؟ قالوا: لَا، قالَ: فَكيفَ لو رَأَوْا نَاري؟ قالوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ، قالَ: فيَقولُ: قدْ غَفَرْتُ لهمْ فأَعْطَيْتُهُمْ ما سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ ممَّا اسْتَجَارُوا، قالَ: فيَقولونَ: رَبِّ

فيهم فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّما مَرَّ فَجَلَسَ معهُمْ، قالَ: فيَقولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». فيا الله! يا لهذا الكرم الواسع لمجالس القرآن وأهل القرآن! وحتى من مرَّ بمجلسهم!!! أفبعد هذا نفرط فيها؟!

القرآن صديقي

إن في تلاوة القرآن حلاوة وأي حلاوة! وفي تكراره لذة وأي لذة! إنه الجليس الذي لا تمل صحبته، والصديق الذي لا تخشى يوماً خيانته، وكلما أعطيته من وقتك أعطاك من أسراره وطلاوته.

وإنَّ كتابَ اللهِ أوثقُ شافعٍ
وأغنى غناء واهباً مُتَفضِّلا
وخيرُ جليسٍ لا يُمَلُ حديثُهُ
وترداُدُهُ يــزدادُ فيــهِ تَجمُّلا

إن الوِرد هو الوَرد، وهو رئة أهل القرآن الثالثة، ومَروى ظمئهم، واليوم الذي يمر عليهم بدون وِردهم القرآني لهو يومٌ كئيب، وقد كان سلفنا الصالح رحمهم الله يتعاهدون القرآن يومياً، وكان أكثر الصحابة رضوان الله عليهم يختمون القرآن في سبع، وبعضهم في أكثر من ذلك أو أقل، لكنهم كانوا لا يختمونه في أقل من ثلاث حتى يفقهوه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قُلْتُ: يا رسول الله، في كَمْ أَقرأُ القرآنَ؟ قال: اقرأْهُ في كلِّ شهرٍ. قال: قُلْتُ: إنِّي أَقوى على أَكثَرَ مِن ذلكَ، قال: اقرأْهُ في خَمْسٍ وعِشرينَ، قُلْتُ: إنِّي أَقوى على أَكثَرَ مِن ذلكَ، قال: اقرأْهُ في عِشرينَ، قال: قُلْتُ: إنِّي أَقوى على أَكثَرَ مِن ذلكَ، قال: اقرأْهُ في سَبْعٍ، قال:

قُلْتُ: إنِّي أَقوى على أَكثَرَ مِن ذلكَ، قال: لا يَفْقَهُه مَن يَقرؤه في أقلَّ مِن ثلاث[١].

ومن الأمثلة المعاصرة على تعاهد القرآن وحُسن صحبته، عاشق القرآن وعلَّامة الأزهر، فضيلة الدكتور محمد عبد الله دِراز ﷺ، صاحب كتاب (النبأ العظيم)، الذي ذكر في سيرته أنه كان مثابراً على قراءة ستة أجزاء من القرآن دون كللٍ أو ملل، ويقول عنه رفيق رحلته الشيخ محمد أبو زهرة: «كان يؤمنا في صلاة العشاء، ثم يأوي كل منا إلى فراشه، ويأوي هو إلى صلاته وقرآنه، وكنت لا تراه إلا قارئاً للقرآن أو مصلياً، فالقرآن ملك لبَّه وشِغاف قلبه، كان شغله الشاغل، لا يكاد يُرى إلا وهو منكبٌّ على قراءته وتدبره، أو قائم يصلي به. وقد انصبَّ اهتمامه العلمي على القرآن حصراً، فلا يكاد يوجد له عمل علمي إلا والقرآن محوره ولبابه. وكان لا يستطيع كفكفة عشقه لكتاب الله، وتعلقه القلبي به، فهو يتتبع ألفاظ القرآن تتبع الواله، ويصفها بحق أنها (حبات درية)»[٢]. وهناك الكثير من أهل القرآن، ممن اتخذوا من كتاب الله صاحباً وأنيساً، قد لا نعلم أسماءهم وصفتهم، ولكن الله يعلمهم.

فإن كان لك قارئي الكريم وِرد من القرآن فاحمد الله واسأله الثبات، وإن لم يكن لك... فإلى متى الهجران؟ إن النبي ﷺ شكا لربه فقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] أفترضى أن يكون النبي ﷺ خصيمك يوم الدين؟! حاول ولو بأقل القليل، وثابر على الطريق؛ فإن خير الأعمال أدومها وإن قل، والأمر كما قال ذو النورين سيدنا عثمان بن عفان ﷺ: «لو طهرت قلوبنا لَمَا شبعت من كلام ربها».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٣٩٠)، والترمذي (٢٩٤٦)، والنسائي في (السنن الكبرى) (٨٠٦٥)، وأحمد (٦٥٤٦) واللفظ له.

(٢) في سيرة العلامة الدكتور/ محمد عبد الله دراز، د. إبراهيم صلاح الهدهد، من مقدمة كتاب (النبأ العظيم) طبعة مجلة الأزهر.

■ إضـاءة:

يقول الدكتور سعيد حمزة: «كن حازماً، وقل: «لا» بقوة لمن يريد أن يسرق عمرك، ويحجزك عن وِردِك».

فرسان الليل

إن لقيام الليل لذة لا يعلمها إلا المحبون، الذين هجروا النوم حتى يقفوا بين يدي ربهم، يتمتعون بمناجاته، وينهلون من مَعينِ رحماته، دفعهم الحب لترك النوم الهنيء، وآثروا لقاء المحبوب على الفراش الوثير، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧][1].

ما أسعدهم أهل القرآن حيت يتهجدون بين يدي ربهم، ويرتلون عن ظهر قلب في هدوء الليل! إن للقرآن طعماً آخر في الدُّجى، وكأن نسيم السَّحر يزيده حلاوة، ولهذا قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٦ ـ ٧]. إن النهار لا يتوقف فيه الصخب، فمن حركة إلى سعي، ومن سعي إلى عمل، وهكذا حتى يأتي سكون الليل، ويختلي كل حبيبٍ بمحبوبه، فيأوي أهل القرآن إلى ركنهم ومبتغاهم، يتنعمون بمناجاته ويرتلون آياته. كم حمل نسيم السَّحر من أنين المذنبين، وأرسل إلى السماء دعوات المضطرين! وكم كفكف دموع التائبين، واؤتمن على أشواق المحبين! ألا والله ما أحلى ليلهم!

يقول الدكتور إبراهيم السكران: «حادثة حكاها لي مرة أحد الأقارب قبل

(١) وَاصباً، هند الورداني، ص: ٤٦.

زهاء خمس عشرة سنة.. كان يتحدث لي بشكل عَرَضي لم يلقِ هو بالاً وهو يتحدث.. لكن قصته تلك ما زالت تتناوب على ذهني بين فينة وأخرى.. قريبي هذا يسكن قرية حدودية في عالية نجد، ويروي لي أنه في الأيام العليلة من السنة يغلق أجهزة التكييف وينام قريباً من النافذة.. ويعلم بدخول الثلث الأخير من الليل عبر صوت أحد الكهول في القرية يدخل المسجد مع الهزيع الأخير من الليل، وفي فناء المسجد يفترش طرفاً من السجادة الطويلة ويبدأ يرتل القرآن في صلاته بطريقة كبار السن المعهودة.. وهذه عادته كل ليلة..

منذ حكى لي قريبي تلك القصة وأنا أتحين ذلك الكهل لأرى صلاته الروحانية.. يا ليتك تراه وهو يقبض لحيته بين حين وآخر، ثم يسترسل في قراءته. لقد كاد يأخذ بأنحاء قلبي.. قراءته تلك ليست بتجويد مصقول.. ولا حتى بصوت أنيق.. ولكنها ـ وعزة جلال الله ـ فيها صدق ويقين. أحس أن حوله هالة نور وهو يقرأ ويرتل..صحيح أن القرآن بعامة يحمل طاقة تأثيرية تخلب لب المستمع.. ولكن هناك أمرٌ إضافي صرت ألمسه أخيراً.. وهو أن القرآن إذا خيم سكون الليل يكون عالماً آخر.. ثمة قدر إضافي في جلال القرآن لحظة سكون الليل.

ذلك الكهل القرآني توفي قبل سنيات قلائل رحمه الله رحمة واسعة.. ولكن ما الذي بعث قصته من مرقدها في ذهني؟

الحقيقة أن الذي أيقظ هذه القصة القديمة قصة مماثلة مرّت بي وأنا أتصفح صحيح البخاري .. وأنا واثق أنك منذ قرأت هذه القصة في البخاري فلن تخطئ عينك وجه العلاقة.. فقد روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف

منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار» [البخاري: ٤٢٣٢].

لاحظ كيف لم يرَ النبي ﷺ منازلهم بالنهار، ثم استطاع أن يحدد موقعها لما خيم الليل بسبب ما بدأ يتسرب منها من حنين المرتلين.. إنها «منازل الأشعريين»..

النبي ﷺ كان يسمع القرآن بالنهار قطعاً، فلماذا جذبته قراءة الأشعريين وصار يتلفت إلى منازلهم إذن؟ لا أدري.. لكنني أميل إلى أنها أسرار القرآن بالليل.. فآيات القرآن إذا هبطت في المساء صارت تتدفق بروحانية خاصة.. انبعاث صوت القارئ بالقرآن بين أمواج الليل الساكن قصة تنحني لها النفوس.. وقد مرت بي شواهد أخرى لاحظت فيها هذا الحنين النبوي لصوت القرآن بالليل.. ففي صحيح الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال مرة لأبي موسى: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة» [مسلم: ١٨٨٧].

يبدو أن رسول الله ﷺ يشتد اهتمامه لمصدر الصوت حين يسمع قارئاً يقرأ القرآن وسط ظلام الليل.. حتى أنه إذا أصبح أخبر أصحابه بتلك القراءات القرآنية الليلية.. وقوله «لو رأيتني وأنا أستمع» يدلُّ على أن النبي أعار الأمر اهتمامه.. وأخذ ينصت..»[1].

حتى الملائكة تنجذب لتراتيل الليل وتسابيح الأسحار، وإنها لتدنو من أصحابها لتنصت إليهم، ولا عجب في ذلك؛ فإن القرآن قد نزل بالليل، قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ ـ ٣]، وتدارسه النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام في ليالي شهر

(١) الطريق إلى القرآن، إبراهيم السكران، ص: ٢٧ ـ ٣٠ (باختصار)، نسخة رقمية على موقع (طريق الإسلام): https: //books.islamway.net/1/2629/8625.pdf

رمضان المبارك، ولنا المثل في قصة أسيد بن حضير ﷺ، وهو من كبار صحابة رسول الله ﷺ، أثنى عليه النبي ﷺ فقال: «ذاك رجلٌ لا يتوسد القرآن»[١] أي: لا ينام عن وِرده، ويقيم الليل بقرآنه. وذات ليلة، بينما أسيد ﷺ يقرأ سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده؛ إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فلما رأى ذلك وكان ابنه يحيى قريباً من مكان الفرس، خشي إن أكمل القراءة أن تطأ الفرس ابنه وتصيبه فانصرف، ولما رفع بصره إلى السماء رأى مثل «الظلة فيها مصابيح»، فهاله ما رأى، فلما أصبح من يومه أخبر رسول الله ﷺ بما حدث، فقال له ﷺ: «وتدري ما ذاك؟»، قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم»[٢]. فيا الله! إنها الملائكة... تحمل لفرسان الليل السكينة والرحمة، وتأنس بقرب تراتيلهم بالأسحار.

مشاعر حقيقية

نعيش الآن مع مشاعر بعض حافظات القرآن الكريم وكيف غيَّر القرآن حياتهنّ:

■ تقول (ف. م) من مكة المكرمة: «الحمد لله، مع ختم كل سورة أشعر بسعادة، تغيرت صلاتي.. صرت أخشع وأقرأ من حفظي، حتى حياتي تغيرت! صرت أحاول أن أطبق كل آية أحفظها، حتى التزمت بحجابي، وأسأل الله الثبات».

---

(١) أخرجه ابن حجر في الإصابة (٢/ ١٤٧)، والألباني في صحيح النسائي (١٧٨٢)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج المسند (١٥٧٢٤).

(٢) رواه البخاري معلقاً (٥٠١٨)، والبغوي في شرح السنة (٣/ ٢٦).

▪ وتقول إحدى حافظات القرآن الكريم: «يوم ذهابي للحلقة هو يوم فرحة».

▪ وتقول المعلمة (إ. م) مديرة إحدى دور التحفيظ: «حياتي قبل القرآن كانت حياة بلا حياة، تغيرت حياتي وشخصيتي بعد القرآن، كنت منعزلة وضعيفة الشخصية، وبالقرآن أصبحت أقوى وصاحبة حجة، تقوَّم لساني وقويت لغتي... واليوم الذي يمر بدون وِرد أفقد فيه الراحة والطمأنينة ولا أستطيع النوم... يكفي الرسائل القرآنية التي تأتينا دائماً، وكأنها قُرِئت لك (في هذا المكان وهذا الموعد)... ثم البلاغة وجمال القرآن والإعجاز القرآني... أما التدبر فهو متعة ما بعدها متعة! وحقيقي من أراد الدنيا فعليه بالقرآن، ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن... الكلام عن القرآن كثير، والتغيير كبير، ولا يكفيه صفحات، جعلنا الله من أهله وحسن أخلاقنا».

▪ تبدأ (ر. ص) من مصر كلامها بقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وتقول: «والله ما وجدت نعيماً قط في حياتي إلا مع القرآن، وأعظم الفرح وأحلاه هو فرحتي بتلاوة الآيات على معلمتي».

▪ وتقول (د. ع) من السودان: «الحمد لله، والله منذ لازمت كتاب الله لا همّ ولا ضيق، يعني فرق كبير في حياتي قبل أن أحفظ القرآن، وأنصح كل واحدة تريد الفرح أن تلازم كتاب ربها».

▪ وتروي إحدى معلمات القرآن الكريم حكايتها مع القرآن فتقول: «بدأت حفظ القرآن مع معلمة لينة حنون، فأحببت الدار وأحببت القرآن الكريم، ثم

التحقت بعدها في حلقة للختم السريع، وكان تحدياً بالنسبة لي أن أحفظ عشر صفحات في الأسبوع ولديَّ طفلان أحدهما رضيع والآخر لا يتجاوز الثلاث سنوات، بالإضافة إلى عملي في الجامعة، ولذلك كنت أجتهد في الحفظ والمراجعة بالليل، بعد أن ينام أطفالي وزوجي؛ لأنه الوقت الوحيد المتاح لي بعيداً عن أعباء المنزل والعمل.. وكان الدعاء مطيتي، كنت أبتهل لله باسمه (الشكور)، وأثمن إحساسي الدائم بالافتقار لله، وأني بدون عونه ضعيفة لا أقدر على شيء، فأنعم عليّ سبحانه بسرعة الحفظ والبديهة فكنت أحفظ في يوم ما يحفظه غيري في أسبوع... ومع مرور الوقت مع القرآن أحسست بطعم جديد في صلاتي وعباداتي، حتى معاملتي مع زوجي وأولادي تغيرت، وصارت معاملاتي مع الناس كلها بالاحتساب... وكان جُلّ فرحي حين أسمع صوت الشيخ الحصري في تسجيلات إذاعة القرآن الكريم، فيطير قلبي مع صوته كالعصفور المُحلِّق في الفضاء الرحيب... كما أحببت صاحباتي في الحلقة؛ فصحبة القرآن دائماً ما تكون مختلفة وبها شيء جذّاب، وعندما وصلت لنصف القرآن بدأت في تحفيظ الأطفال، ثم منَّ الله تعالى عليَّ بختم كتابه، وصرت معلمة ولي حلقات كثيرة، وأنا الآن مشرفة في دار تحفيظ للنساء.

لقد منَّ الله عليَّ بتحقيق دعوتي التي كنت أدعوها في بداية طريقي: «اللَّهمَّ استعملني لخدمة كتابك ولا تستبدلني، اللَّهمَّ لا تحرمني خير ما عندك بسوء ما عندي»... باختصار حتى لا أطيل عليكِ أكثر من ذلك سأقول لكِ مقولة زوجي التي يحكيها عني دائماً ـ والذي لا أنكر فضله الدائم على تشجيعي لسلوك طريق القرآن ـ: بدون القرآن والدار والحلقات لا أستطيع التنفس».

التحقْ بالركب

سأل سهل بن عبد الله أحد طلابه فقال: «أتحفظ القرآن؟ قال: لا، فقال: واغوثاه لمؤمن لا يحفظ القرآن! فبم يترنم؟ فبم يتنعم؟ فبم يناجي ربه؟»

أخي الكريم... ما زالت الفرصة أمامك، لا تقلق! فلم يفتِ الوقت بعد، تستطيع أن تسعد برياض القرآن، وتترنم مع أهل القرآن، فقط التحق بالركب، وأقبل على كتاب ربك، والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

❋❋❋

الفصل الخامس عشر

ليالي رمضان

لليالي رمضان فرحة في قلب كل مؤمن، وكم ينتظرها المسلمون من عام إلى عام ليُحْيُوا تلك الليالي المباركات... بل إنها هي التي تُحييهم... فكم أرهق النفس الانكباب على الدنيا والسعي في مطالبها وتَجرُّع كدرها أحد عشر شهراً! أما آن الأوان لبعض الراحة؟ ألا إن الروح تتلهف لطرح هموم العام والتخلص من ثِقل الحياة، والتنعم ببرد السكينة والرحمات... آهٍ يا رمضان! ما ألذ التراويح! وما أعذب القرآن الكريم في كل ليلة من ليالي الشهر الفضيل!

رمضان والقرآن:

إن للقرآن في رمضان عطراً فريداً كأنما يزداد جمالاً إلى جماله، وبهاءً إلى بهائه، ورقةً إلى رِقته... نعم القرآن جميل في كل أحواله لكن له طبع خاص في رمضان، كأنما ينساب من الفم عذباً رقراقاً لينطلق مباشرةً إلى شِغاف قلبك، ولن تستطيع حينها أن تملك زمام نفسك، والله إن النفس لتهيم مع كل آية... فإذا سمعتْ حديث الجنة تشوّقت، وإذا سمعت حديث النار ارتعدت وتعوّذت، وإذا مرّت بآيات الرحمة طمعت واستكانت، وإن مرّت بآيات العذاب وجِلت وخافت... كأن القرآن قد أخذ تأشيرة مرور إلى القلب مباشرةً في رمضان بلا استئذان.

وهذه العلاقة بين القرآن وليالي رمضان ليست غريبة؛ فرمضان هو شهر القرآن، بل إن شرف الشهر بشرف النازل فيه. يقول تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾

[البقرة: ١٨٥]، والليل أشد صلةً بالقلوب ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل: ٦]. وقد ابتدأ نزول أعظم كتاب شهدته تاريخ الإنسانية، وتغير به وجه البشرية في ليلة من ليالي شهر فضيل، فبُوركت الليلة، وبُورك الشهر، وبُورك النازل به، وبُورك المُنزل عليه ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الدخان: ١ ـ ٦]. فكانت ليلة القدر... ليلة تزينت بزينة القرآن، وتشرفت بنزول كلام الرحمن، ليلة تتغير فيها الأقدار، وتتضاعف فيها الأجور، وتتنزل فيها الرحمات، ويعم فيها السكينة والسلام ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [سورة القدر].

قال السعدي رحمه الله: «سميت ليلة القدر؛ لعِظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الأجل والأرزاق والمقادير القدرية»[1]. فكانت تلك الصلة الوثيقة بين رمضان والقرآن .

مدرسة رمضان القرآنية:

لقد كان أول لقاء بين محمد ﷺ وجبريل عليه السلام في رمضان، واستمر عهد اللقاء بينهما في ليالي الشهر المعظَّم حتى وفاة النبي ﷺ... نعم لقد تعددت لقاءاتهم في مختلف الشهور والأزمان ... لكن رمضان كان بمثابة مدرسة قرآنية للنبي ﷺ؛ إذ ينزل جبريل عليه السلام في كل ليلة من ليالي رمضان، فيعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فلما كان العام الذي مات فيه ﷺ عرض على جبريل الأمين القرآن

(١) تفسير السعدي، ص: ٩٣١.

مرتين. فما أعظمها من مدارسة بين رسولين كريمين: أمين الوحي جبريل عليه السلام وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، مدارسة خير... وتجود بالخير... وتبارك ما حولها... ويصبح النبي ﷺ من ليلته أجود من الريح المرسلة.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من ليالي رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[1].

واستمرت مدرسة رمضان القرآنية تبعث في نفوس المسلمين السعادة والسرور، وتحيي لياليها رياحين الأمل، وتضمد آلام المجروحين، وتسكن بجودها أوجاع الفقراء والمحتاجين، وتُمتِّع الصائمين القائمين بلذة الطاعات، وتنير القلوب بتلاوة القرآن. فكان استقبال المسلمين لليالي شهر القرآن كاستقبال ليالي العيد، فمنذ أول ليلة من لياليه تُضاء الفوانيس، وتُسرج المصابيح، وتعلق الزينات، وتُهيَّأ المساجد بالمسك والعطور لاستقبال الصائمين القائمين، ترتل حناجرهم آيات الذكر الحكيم، وتتدبر أفهامهم جمال معانيه، ويستمعون إليه عذباً في صلاة التراويح، ويلامس أمانيهم الدعاء في الأسحار، ويرجون الفوز بآمالهم في ليلة الأقدار.

يرتقب المؤمنون ليلة القدر كارتقاب عودة الحبيب الغائب من سفر طويل، ويتجهزون لليلة نزول القرآن أتم التجهيز. قال حماد بن سلمة: «كان ثابت البناني، وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان، ويطيبان المسجد بالنضوح والدخْنة في الليلة التي يرجى فيها ليلة القدر». وقال ثابت: «كان لتميم الداري

(١) أخرجه البخاري (٦) واللفظ له، ومسلم (٢٣٠٨)، والنسائي (٢٠٩٥).

حلة اشتراها بألف درهم، كان يلبسها في الليلة التي يرجى فيها ليلة القدر». قال ابن رجب ﷺ: «ليلة القدر عند المحبين ليلة الحظوة بأنس مولاهم وقربه، وإنما يفرون من ليالي البعد والهجر»[١].

دأب الصالحون من المسلمين على الإقبال على القرآن إقبالاً شديداً في رمضان، فقد كان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع، منهم قتادة. وبعضهم في كل عشر: منهم أبو رجاء العطاردي. وقال ابن الحكم: «كان مالك إذا دخل رمضان نفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف». وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: «إنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام». وقال سفيان: «كان زبيد اليامي إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع أصحابه»[٢].

واستمر الحال بالصالحين على هذا المنوال حتى يومنا هذا، فتُعقَد المدارسات القرآنية في المساجد وعبر الإنترنت في ليالي الشهر الفضيل، لتجمع المشاركين المسلمين المقبلين على كتاب ربهم من كافة أنحاء العالم كما في مجلس الاستشارات القرآنية التابع لمركز تفسير[٣]، ومجلس مركز تدبر عبر منصة تويتر[٤]، وكذلك المسابقات القرآنية المبثوثة في كافة وسائل التواصل الاجتماعي، إضافةً للمقارئ وحلقات عرض القرآن على مدار الليل والنهار عبر الغرف الصوتية الإلكترونية.

---

(١) لطائف المعارف، ابن رجب، ص: ٣٣٧ ، ٣٣٩، تحقيق: طارق بن عوض الله. المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(3) https: //twitter.com/ConsQuran?s=09

(4) https: //twitter.com/tadabbor?s=09

وهكذا فإن المؤمن يتروَّح في بساتين السعادة القرآنية في رمضان، حيث تتضاعف سعادة القلب بالقرآن أضعافاً مضاعفة في شهر الصيام، فينهل من معين رحماته، ويستمتع بشذى أزهاره، فبالنهار هو في صيام، وفي الليل هو في قيام، يقول النبي ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، فيقول الصيام: أي ربِّ، منعته الطعام والشهوات بالنهار. ويقول القرآن منعته النوم فشفِّعني فيه فيشفَّعان»[1].

فاللَّهمَّ بلغنا رمضان في أتم صحةٍ وعافية وأنت راضٍ عنا، واجعل القرآن حجة لنا لا علينا وثقِّل به موازيننا، إنك أنت الوهاب الكريم ... والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه أحمد (٦٦٢٦)، والطبراني (١٤/ ٧٢)، والحاكم (٢٠٣٦) باختلاف يسير.

الخاتمة

وبعد... فإن القرآن متاح للجميع

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾

[التكوير: ٢٨]

ولسان الحال يقول:

هنا الأمان

هنا الإيمان

هنا السعادة

هنا القرآن.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **أحكام أهل الذمة**، ابن القيم، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري ـ شاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادي للنشر ـ الدمام الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **أسباب نزول القرآن**، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح ـ الدمام الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **الإسلام عقيدة وشريعة**، د. محمود شلتوت، مطابع دار الجمهورية للصحافة، هدية مجلة الأزهر، مصر، جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ/ إبريل ٢٠١٥م.
- **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.
- **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، دار التقوى ودار العلم والمعرفة، مصر، سنة الطبع: ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٥م.
- **الإنسان وصحته النفسية**، سيد صبحي، الدار المصرية اللبنانية، طبعة خاصة ضمن مشروع مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠٣م.

- **البرهان في علوم القرآن**، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي [المتوفى: ٧٩٤هـ]، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان ـ وبترقيم الصفحات نفسه) الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، عدد الأجزاء: ٤.
- **بيان إعجاز القرآن** مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)] ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، تحقيق: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.
- **تاريخ الطبري** (٢/ ٥٣٨)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية.
- **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي [المتوفى: ١٣٩٣هـ]، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).
- **التسهيل لعلوم التنزيل**، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، (٢/ ٤٣٢)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت، الطبعة الأولى / ١٤١٦هـ، عدد الأجزاء: ٢.
- **تفسير القرآن العظيم لابن كثير**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، عدد الأجزاء:٨.

- **التفسير الميسر**، لنخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، عدد الأجزاء: ١.
- **التفسير الوسيط للقرآن**، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة، الطبعة الأولى، تاريخ النشر: (أجزاء ١ ـ ٣): يناير ١٩٩٧، (جزء ٤): يوليو ١٩٩٧، (جزء ٥): يونيو ١٩٩٧، (أجزاء ٦ ـ ٧): يناير ١٩٩٨، (أجزاء ٨ ـ ١٤): فبراير ١٩٩٨، (جزء ١٥): مارس ١٩٩٨م.
- **تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين**، منقذ بن محمود السقار، مركز تكوين، لندن، الطبعة الثانية، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠ م، عدد الأجزاء: ١.
- **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، عدد الأجزاء: ٢٤.
- **الجامع لأحكام القرآن**، شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات).
- **جدد حياتك**، محمد الغزالي، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة مزيدة ومنقحة (ولم أقف على رقم الطبعة ولا سنة نشرها).

- **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، آدم متز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الخامسة.
- **حضارة العرب**، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٣م.
- **حقوق غير المسلمين في المنظور الإسلامي**، إعداد اللجنة العلمية بمجمع البحوث الإسلامية، سلسلة مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، مصر، السنة الخمسون، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
- **الداء والدواء**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة ، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ، عدد الأجزاء: ١، مشروع آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال(١٧) .
- **الدعوة إلى الإسلام**، سير توماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، الناشر: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١م.
- **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، علي محمد الصلابي، طبعة مؤسسة اقرأ، مصر، ٢٠١٣م.
- **السيرة النبوية** لابن هشام، عبد الملك بن هشام، دار العقيدة، الإسكندرية، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- **شرح الأربعين النووية**، مجموعة من العلماء، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
- **شريعة القرآن من دلائل إعجازه**، محمد أبو زهرة، السلسلة العلمية لمجمع البحوث الإسلامية، الأزهر الشريف، القاهرة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

- **الطريق إلى القرآن**، إبراهيم السكران، نسخة رقمية على موقع (طريق الإسلام):

https: //books.islamway.net/1/2629/8625.pdf

- **ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث**، سلطان العميري، مركز تكوين، المملكة المتحدة ـ لندن، ط ٢، ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م، عدد الأجزاء: ٢.
- **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، أبو العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بـ «السمين الحلبي» (المتوفى: ٧٥٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ٤.
- **فضاءات الحرية**، سلطان بن عبد الرحمن العميري، ص:٢٥٣، المركز العربي للدراسات الإنسانية، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م.
- **فقه السيرة**، محمد الغزالي، دار الشروق، مصر، الطبعة التاسعة، ٢٠١٧م.
- **قالوا عن الإسلام**، عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- **قصة الحضارة**، وول ديورانت، تقديم: الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨هـ.
- **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**، محمد الغزالي، دار الشروق، مصر، (لم أقف على رقم الطبعة وسنة النشر).
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة

الثالثة، ١٤٠٧هـ، عدد الأجزاء: ٤، الكتاب مذيل بحاشية (**الانتصاف فيما تضمنه الكشاف**) لابن المنير الإسكندري (ت٦٨٣) وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي.

- **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق بن عوض الله، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- **لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني**، عبد العظيم المطعني، مطابع دار الجمهورية للصحافة، هدية مجلة الأزهر، جمادى الأولى ١٤٤٠هـ/ يناير ٢٠١٩م، عدد الأجزاء: ٣.
- **مختصر تاريخ الكنيسة**، أندرو مِيلر، ترجمة: ناشد ساويرس إنطاكية، مكتبة الإخوة، مصر، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٣م.
- **المختصر في تفسير القرآن الكريم**، لجماعة من علماء التفسير، دار المختصر للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤٤٠هـ.
- **مدخل إلى القرآن الكريم**، د. محمد عبد الله دِراز، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ـ مصر، ٢٠١٤م.
- **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة ـ ١٤٢٠هـ [عدد الأجزاء: ٣٢].

- **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ «الراغب الأصفهاني» (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ـ دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- **منهج القرآن الكريم في دحض شبهات الملحدين**، أفنان بنت حمد بن محمد الغمّاس، مركز دلائل، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ.
- **الموطأ**، الإمام مالك بن أنس، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- **النبأ العظيم ـ نظرات جديدة في القرآن**، محمد عبد الله دراز، مطابع دار الجمهورية للصحافة، مصر، هدية هيئة كبار العلماء لقراء مجلة الأزهر، عدد ذو القعدة ١٤٣٩هـ/ يوليو ٢٠١٨م.
- **نظرات إسلامية**، محمود شلتوت، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، عدد الأجزاء: ٣.
- **هذا هو القرآن العظيم**، محمد بن موسى الشريف، سلسة الإصدارات القرآنية لقناة الفجر الفضائية (٥)، ط ١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- **الهشاشة النفسية**، إسماعيل عرفة، مركز دلائل، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.
- **واصِباً**، هند الورداني، الدار العالمية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

❋❋❋

فهرس

مقدمة ٩
الفصل الأول السعادة الأبديَّة ١١
الفصل الثاني شنِّف آذانك ١٥
الفصل الثالث الإبداع الفني ٢٥
الفصل الرابع الردُّ على التساؤلات الكبرى ٣٣
الفصل الخامس التوازن منهج حياة..... ٤١
الفصل السادس قواعد الذوق والإتيكيت ٤٩
الفصل السابع الصحَّة النفسية ٥٣
الفصل الثامن الصحَّة البدنية ٧٣
الفصل التاسع القرآن والعدل ٨٣
الفصل العاشر القرآن والعقل ٩٣
الفصل الحادي عشر القرآن والحرية ١٣٣
الفصل الثاني عشر القرآن والعلم ١٦٩
الفصل الثالث عشر مُسلِمَة ٢٠٧
الفصل الرابع عشر ما أسعد الحفَّاظ! ٢٤٧
الفصل الخامس عشر ليالي رمضان ٢٦٣

الخاتمة ٢٦٩
المصادر والمراجع ٢٧١
فهرس الموضوعات ٢٧٩

❋❋❋

باب السعادة

ما طرقتُ بابَ القرآن إلّا وانفتحتْ لي دروبُ السعادة.. لقد بدأتُ رحلتي مع القرآن منذُ سبع عشرة سنة، تقلّبتُ فيها من سعادةٍ إلى سعادة مع تقلبِ صفحاته، وعذبِ نغماته، وبلاغةِ ألفاظه، وسموّ مقاصدِه، ومُحكَم آياتِه.

ولم أُرِدْ أن استأثر بتلك السّعادةِ وحْدي، ووجدت أنّه من الواجبِ عليّ أن أتشاركَها معك عزيزي القارئ؛ لتنهلَ معي مِن نبْعِ السّعادةِ الصّافي، فكَم كَثُرَ أدْعياء السّعادة، فلمّا وصلوا لنهاية الطريق لم يجدوا إلّا الحَزَن والخَسارا واللهَ أسأل ألّا يحرمني تلك السّعادة مع القرآن، وأنْ يتمّ نعمته عليّ إلى أن ألقاه.

9 789772 788866

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net

دار البشير